من أعلام الفكر والقيادة المرجعية



عبد الكريم آل نجف

دار الرسول الأكرم ص — دار المحجة البيضاء

مكتبة

مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .

الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

مِنْ أعْلامِ الفِكْرِ وَالقِيادَةِ المَرْجَعِيَّةِ

عبد الكريم آل نجف

دار الرسول الأكرم (ص)

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م



دار المحجة البيضاء

بيروت - لبنان - حارة حريك - ص.ب : ١٤/٥٤٧٩
ت : ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٥٢٨٤٧ - فاكس : ٠١/٦٠١٠١٩ - ٠١/٦٠٣٣٧٩

مقدمة السيد محمد حسين فضل الله



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين وبعد:

للمرجعية الدينية الفقهية او السياسية او الاصلاحية تأثير كبير على حركة الواقع الاسلامي الذي يتحرك فيه الناس في أوضاعهم العامة، وذلك من خلال الموقع المميز الذي يتميزون به في ثقافتهم وقداستهم ومواقفهم وعلاقاتهم التي تنفتح على أكثر من جهة وأكثر من واقع.

ولعل قيمة المرجعية الشيعية الدينية الفقهية انها تمتد في عناصرها التاريخية إلى عهدة الامامة في مضمونها القيادي الشامل الذي يتسع للفتوى وللسياسة وللحرب والسلم وللجوانب الاقتصادية في الحقوق الشرعية وغير ذلك لتنفتح المسألة على موقع النيابة عنه في زمان الغيبة ليكون للمجتهد العادل موقع النائب عن الامام الذي يقوم ببعض صلاحياته التي ثار الخلاف الفقهي حول سعتها وطبيعتها في النزاع بين خط الولاية الخاصة او العامة للفقيه بالاضافة إلى الفتوى والقضاء.

وفي ضوء ذلك اكتسب الفقيه المرجع بعض قداسة الامامة في العمق الشعوري في الظلال التاريخية الوارفة المطلّة عليها مما جعل تأثيرها يقترب

من تأثير الامام الأصل بحيث يرى الناس فيه أن قَوْلَهُ قَوْلَه عليه السلام وان الراد عليه كالراد على الامام عليه السلام في النتائج السلبية المترتبة على ذلك.

وهكذا دخلت المرجعية وفي أكثر من مرحلة من مراحل الانفتاح ساحة الصراع والتحدي على مستوى المرحلة السياسية، او الجهادية او الاجتماعية الاصلاحية المتنوعة الابعاد وقد استطاعت أن تترك تأثيرها على أكثر من حقبة تاريخية في مختلف الأصعدة وكان العراق، النجف الاشرف، وايران ولبنان هي المناطق التي عاشت حركية المرجعيات الفاعلة في اتجاه الواقع التغييري في الخطوط المرحلية والاستراتيجية.

ولعل من الطبيعي ان يتطلع الجيل المعاصر إلى ذلك التاريخ الغني الحافل بالمرجعيات الرائدة المتنوعة المواقع والاتجاهات والابعاد من أجل أن يجد فيها الدرس والعبرة التي قد تطل به على الشرعية السياسية او الحركية او الجهادية، لأن الشخصيات المرجعية كانت تمثل عناوين الشرعية الفقهية التي تمنح عناوينها المتحركة الاساس الشرعي في أكثر من صعيد.

وقد قام الاستاذ الفاضل (عبد الكريم آل نجف) بجهد مشكور مميّز في كتابه من أعلام الفكر والقيادة والمرجعية في توثيق الأحداث التي عاشت في ساحة هؤلاء في مرحلتهم التاريخية وتأثيراتها على الواقع الاسلامي الذي لا يزال يحمل بعض ايجابياته للواقع المعاصر.

وقد كان موفقاً في أكثر من جانب لا سيما في تحليله الجيّد للحركة السياسية للمرجعية الاسلامية في تاريخها المعاصر حيث عرض للتطورات المتلاحقة التي استطاع الماضي أن يفتح الابواب للحاضر ليتحرك من أجل نهضة جديدة بافكار تغييرية شاملة وقد قرأت الكثير من صفحات هذا الكتاب واستَمتعت به ورأيت فيه غنى تاريخياً وتحليلياً نافعاً للقراء وللباحثين.

فأسأل الله المزيد من التوفيق والاستمرار في البحث والتحليل التاريخي

والتقدمي للحركة الاسلامية المعاصرة في خط المرجعية وخط الدولة التي استطاعت أن تبصر النور على يد المرجعية الداعية المنفتحة على الاسلام كله ليكون قاعدة للفكر والعاطفة والحياة والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

محمد حسين فضل الله

مقدمة المؤلف

العلماء هم الرمز السائد في الزمن الاسلامي باشكاله الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل وهذا من مفاخر الاسلام وانجازات حضارته الفريدة، من هنا فان الاهتمام بحياة العلماء ودراستها ان كان مظهراً تتجلى فيه حيوية الامة ودورها الفعال فانه ـ فضلاً عن ذلك ـ يعد بالنسبة للامة الاسلامية فريضة حضارية لا بد من ادائها للتدليل على القيم الايجابية والقدرة التجسيدية العالية للحضارة الاسلامية وقد ادى المسلمون هذه الفريضة أداءً عالياً قديماً وحديثاً وتركوا في هذا المجال تراثاً ضخماً لا نظير له في الامم الاخرى ويكفي انهم انفردوا بتأسيس علم خاص في باب التراجم اسمه «علم الرجال» لدراسة حياة رواة الاحاديث الشريفة الذين كانوا يلعبون في ايامهم دور العلماء في ايامنا اضافة الى ان المسلمين اثروا فن التراجم وبشكل منقطع النظير.

وقد تركوا في ذلك مدونات وموسوعات كبيرة لا نظن ان القارىء المثقف المسلم يحوجنا الى ذكرها وفي الفترة المتأخرة قدّم نفر من العلماء المحققين موسوعات جديدة في التراجم كأعيان الشيعة وطبقات اعلام الشيعة والحصون المنيعة ومعارف الرجال و... و... الخ...

واذا كان لعلم الرجال وفن التراجم منهجهما الخاص في تناول الشخصية فان نمطاً ثالثاً طرح في هذا المجال يعتمد على التحليل الموسع في

دراسة الشخصية المطلوبة وهو ما شهدته المكتبة الاسلامية الحديثة ولكن بنحو يحتاج الى المزيد من التأكيد والتواصل.

فان ما تضمنته مكتبتنا الاسلامية من مؤلفات درس فيها اصحابها حياة الشخصيات العلمية والاصلاحية والقيادية الاسلامية المعاصرة لا يتكافأ مع الضرورة ومتطلباتها. واذا ما قيس بها او بما يكتبه الآخرون عن الشخصيات التي يؤمنون بها فيمكننا اعتباره ضئيلاً جداً ونعم ما قاله الشيخ محمد جواد مغنية في معرض ذكره للامام السيد محمد حسن الشيرازي قائد ثورة التنباك فقد كتب يقول:

«لو كان السيد الشيرازي عند الاجانب لوضعوا في افعاله وآرائه مئات المجلدات ولعرضوا حياته على المسرح مرات ومرات وملؤا بها الصحف والاذاعات... ولكن عند الشيعة... واتمنى لو توجه النجف طلابها ومن يتخرج منها إلى الاهتمام برجالنا من امثال هذا السيد الذين تفاخر بهم الامم مدى الاجيال»[1].

وعلى سبيل المثال احصيت ما كتب عن عباس محمود العقاد فكان اكثر من «٢٣» كتاباً عدا ما كتب عنه في الصحف والمجلات.

بينما لا يملك المثقف الاسلامي كتاباً عن حياة قائد تحرري كبير كآية الله السيد محمد سعيد الحبوبي؟ وبينما يعرف الكثير من المسلمين الشيء الكثير عن المهاتما غاندي وجواهر لآل نهرو، تُخطىء العديد من الصحف الاسلامية في التمييز بين صورتي قائد ثورة التنباك المجدد محمد حسن الشيرازي وقائد ثورة العشرين الشيخ محمد تقي الشيرازي فتنشر صورة لاحدها في مقالة تتناول الآخر ولأن الناس اعداء ما جهلوا فقد اساء البعض فهم الدور الذي قام به العلماء في تاريخنا المعاصر ونسبوا لهم شيئاً كثيراً لم

---

(١) مغنية، محمد جواد، مع علماء النجف ص/ ١١٢.

يقولوه ولم يفعلوه وحذفوا من حياتهم ادواراً قاموا بها.

وكأن ذلك اكمالاً لسياسة التجاهل والاضعاف التي اتبعها العلمانيون حكومات واحزاباً ازاء دور العلماء في حياتنا المعاصرة.

في ضوء هذا كله ولدت فكرة الكتاب الذي سلكت فيه طريقاً وسطاً بين الترجمة والدراسة التحليلية الواسعة وذلك لتسليط الضوء على اكبر عدد ممكن من العلماء المعاصرين الذين اسهموا في تكوين تاريخنا المعاصر سياسة وثقافة.

فان اسلوب الترجمة وحده لا يفي بالغرض المطلوب لأنه عبارة عن عـرض ارشيفي للمعلومـات كما ان اسلوب الدراسة التحليلية الواسعة تحوجنا الى تخصيص كتاب لكل شخصية وهذا لا يستجيب لغرضنا الاساسي المتمثل بوضع كتاب يدرس حياة أكبر عدد ممكن من العلماء باصغر حجم ممكن.

وبين هذين الاسلوبين اخترنا اسلوباً وسطاً وسلّطنا الضوء على حياة اثنى عشر علما من اعلام الفكر والقيادة والمرجعية في تاريخنا المعاصر ونأمل ان يكون التوفيق حليفنا في تسليط الضوء على حياة بقية اعلام الفكر والقيادة والمرجعية في تاريخنا المعاصر وذلك من خلال خطوة مماثلة اخرى نكمل فيها الشوط الذي بدأناه، ولأجل ان يكمل هذا الكتاب مهمته فقد مهدت له بمدخل تحليلي يتناول الحركة السياسية للمرجعية الاسلامية في تاريخنا المعاصر بالدرس والتحليل وبشكل شمولي يعرض للعناصر المشتركة والادوار التكاملية التي قامت بها المرجعية في اجيالها الثلاثة المنصرمة بما يساعد القارىء على الربط بين الادوار التي نفذوها وبالتالي فهمها بشكل اكثر عمقاً ودقة.

سائلاً المولى العزيز ان يجعل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم ويتقبله باحسن القبول.

انه نعم المولى ونعم النصير.

عبد الكريم سلمان آل نجف

قم المقدسة

في ربيع الثاني/ ١٤١٤ هـ

مدخل تحليلي للحركة السياسية للمرجعية الاسلامية في تاريخها المعاصر

- تطور الحركة السياسية للمرجعية الإسلامية.
- خصائص خط العلماء.
- الأسس الجديدة.

تطور الحركة السياسية للمرجعية الإسلامية

يتولد التاريخ من شعور عام يتبلور في ذهن الأمة ويستوعب قطاعاتها المختلفة ويحركها باتجاه معين وقد يتواصل هذا الشعور فترة ليكون مرحلة قد تطول فتستوعب جيلاً او جيلين وقد تقتصر مكتفية بزمن محدود حسب طول وقصر امد ذلك الشعور الذي اذا انقلب او تغيرت ملامحه تكون الأمة قد دخلت مرحلة جديدة وهكذا فان المراحل في حياة الأمة لا يشترط في تكونها وجود تخطيط مسبق بل قد تكون وتسير في طريق ما خلاف لارادة الخطة المسبقة لأن الاساس فيها هو الشعور العام الذي يسود الامة ويسيرها فإذا وجد في صورة معينة تكون الأمة في مرحلة من سنخها واذا تغيرت ملامح هذه الصورة او تلبس الشعور العام بغيرها تغيرت ملامح تلك المرحلة او انقلبت الى مرحلة جديدة ولا ينجح دور الخطة في التأثير في مراحل سير الأمة إلا عندما ينجح المخطوطات في قراءة مستقبل سير الشعور العام وتقلباته المحتملة والعوامل المؤثرة عليه حاضراً ومستقبلاً.

من هنا يتعين على الباحث في حقل التاريخ استنطاق ركام الحوادث التي يدرسها واستكشاف الروح العامة والشعور العام الذي ينتظمها ومن ثم تلمس جذوره وامتداداته وتحديد نقاط الانعطاف والتغيير الذي تحوله الى عدة حلقات وتحول التاريخ من خلالها الى عدة مراحل واذا ما اعتمد هذا المنهج فان الباحث سينقذ بحثه من محدودية الحدث وسيوفر على نفسه مجـــالاً رحبـــاً

للتفسير وفرصة واسعة للعثور على الحقيقة فهناك منهجان في البحث التحليلي التاريخي:

١ ـ المنهج التجزيئي الذي ينظر الى الحدث التاريخي من خلال ربطه بالاحداث المباشرة له فقط.

٢ ـ المنهج الشمولي الذي يدرس الحدث في ضوء تشخيص مسبق ومدروس للمرحلة التاريخية التي ينتمي إليها والتي تتكون على اساس شعور عام يتواصل فترة زمنية معينة.

ولا شك ان المنهجين متكاملان وضروريان معاً للباحث في حقل التاريخ ومن غير الممكن له الاكتفاء باحدهما وترك الآخر بعد هذه المقدمة نتساءل هل درسنا تاريخ المرجعية الاسلامية المعاصر؟ ووفق أي المنهجين؟

الجواب: ان هذه المسألة درست وفقاً للمنهج الاول فقط وبشكل محدود فكتابات الباحثين العراقيين ركزت على مرحلة معينة واقتصرت على الادوار العراقية للمرجعية، وفعل الباحثون الايرانيون الشيء نفسه وكأننا متفقون على اهمال هذا الجانب الحيوي والاستسلام لكتابات غير الاسلاميين.

واضافة الى محدودية ما كتبه الاسلاميون فان اكتفاءَهم بالمنهج التجزيئي ادى وكما هو المتوقع الى نتائج غير متكاملة اما باضافة ايجابيات غير واقعية او اعتبار بعض الامور على انها سلبيات وهي ليست كذلك في قياسات المرحلة التي حصلت فيها من هنا شعرت اثناء كتابتي عن حياة العلماء الاعلام «قدست ارواحهم» ضرورة التمهيد لذلك بمدخل تحليلي يتناول التاريخ السياسي المعاصر للمرجعية الاسلامية وفقاً للمنهج الشمولي بالمقدار الذي يسمح به حجم الكتاب ويعتبر كافياً لاعطاء تصورات كليه عن تطور الحركة السياسية للمرجعية في تاريخها المعاصر مستغنياً عن التوثيق التاريخي المطلوب بالتوثيقات الواردة ضمن ابحاث الكتاب.

المرحلتان الاساسيتان في التطور السياسي للمرجعية

يتمثل التاريخ السياسي المعاصر للمرجعية بمرحلتين اساسيتين هما:

١ ـ مرحلة الدفاع عن الهوية الاسلامية ومواجهة التحديات الخارجية والمشكلات الداخلية على هذا الاساس وتبدأ من الصلح القاجاري العثماني في ثلاثينات القرن الهجري الثالث عشر وعشرينات القرن الميلادي السابق على يد الشيخ موسى كاشف الغطاء وتنتهي في اربعينات القرن الهجري الرابع عشر (١٩٢٤ م) وذلك عند عودة الامام الاصفهاني وآية الله النائيني الى العراق.

٢ ـ مرحلة التحديث الاسلامي والتحرك على أساس التجديد في بنية المجتمع الاسلامي وتبدأ من حين نهاية المرحلة السابقة وتمتد حتى يومنا هذا.

وقبل الخوض بدراسة هاتين المرحلتين لا بد لنا من شرح الاساس الذي قام عليه هذا التصور فقد يقال ان المرجعية لم تنسق اعمالها على اساس تخطيط مسبق ومنهجية شمولية مدروسة فمن اين جاءت هذه المرحلية؟

الجواب: هو ما تقدم قبل قليل من ان المراحل في حياة الامة لا يشترط في تكونها وجود تخطيط مسبق بل قد تتكون وتسير في طريق ما

خلافاً لإرادة الخطة المسبقة والاساس هو الشعور العام الذي يستولي على الأمة ويحركها باتجاه ما وليست المرحلية إلا تعبير عن حالات الانعطاف والتغيير التي تطرأ على هذا الشعور وحينئذ فمن الأولى ان نحور السؤال السابق إلى السؤال عن طبيعة الشعور العام الذي قامت العملية على أساس منه؟ للإجابة على هذا السؤال نحتاج الى استعراض تاريخي سريع.

ففي أواخر القرن السادس عشر الميلادي بدأ الغرب يتطلع نحو العالم الاسلامي مجدداً العهد باطماعه القديمة فيه ومشاعره الصليبية اتجاهه منطلقاً بشكل خفي نحو مرحلة جديدة من الصراع السجالي بين الاسلام والصليبية.

كانت البداية اقتصادية لكنها سرعان ما تحولت في بعض المناطق الى سيطرة عسكرية متعددة الجنسيات شارك فيها الاسبان والبرتغاليون والانجليز والفرنسيون، فيما كان الروس يعلنون الحرب بين فترة واخرى على الدولة العثمانية. ودون مزيد من الاستعراض فقد دخل المسلمون القرن التاسع عشر الميلادي والغرب قوة مهيمنة عسكرياً في بعض المناطق الاسلامية ومتنفذة سياسياً وثقافياً واقتصادياً في المناطق الاخرى مستعيناً في ذلك بالعامل التقني وبزخم الولادة الحضارية الجديدة وما توفره من اندفاع وشعور بالتفوق وبتآكل الوضع العام للمسلمين وما يسببه من ضعف معنوي، وفي تلك الظروف التي نشرت بين المسلمين مشاعر المقاومة وحوافز النهوض كانت المرجعية الاسلامية قد بلغت مستوى جيداً من النضج والتبلور على الصعيد العلمي والتنظيمي فمن جهة كانت الحركة الاخبارية تعيش ايامها الأخيرة بعد الانعكاسات الكبيرة التي منيت بها على ايدي رموز الاتجاه الاصولي وهو الذي ساعد على انماء حركة الفكر الديني وتطويره بشكل ملحوظ ومن جهة ثانية شهدت الحوزة العلمية توسعاً في الحجم ونمواً في النوع فاضافة إلى تزايد عدد الفقهاء والمجتهدين والطلاب.

لمعت في النجف الاشرف انذاك اسماء سيظل لها دويها فترة طويلة

كالسيد مهدي بحر العلوم الكبير والشيخ جعفر كاشف الغطاء ونجله الشيخ موسى كاشف الغطاء والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر والشيخ مرتضى الانصاري ولعل من ابرز مؤشرات النمو والتطور فكرة تنظيم عمل المرجعية التي ظهرت في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي على يد السيد مهدي بحر العلوم الكبير حيث ارشد الناس الى تقليد تلميذه الشيخ جعفر كاشف الغطاء وعين لاقامة الصلاة الشيخ حسين نجف وللقضاء الشيخ شريف محي الدين وأمر السيد جواد العاملي بالتأليف.

وجاء الشيخ موسى كاشف الغطاء في القرن التاسع عشر ليؤكد هذه الخطوة وينسق اعمال المرجعية على هذا الاساس. وفي عام «١٢٣٧ هـ ـ ١٨٢٢م» برز تطور مهم له دلالاته بين الدولتين العثمانية ممثلة بوالي بغداد داوود باشا والدولة القاجارية «ممثلة بمحمد علي بن فتح علي شاه القاجاري» ولُقّب أثر ذلك «بمصلح الدولتين» اضافة إلى لقب «سلطان العلماء» الذي اطلقته الحوزة العلمية عليه لما كان له من هيبة ورئاسة روحية وما حظي به من انقياد العلماء لزعامته وبذلك تكون المرجعية قد اطلت على عالم لسياسة وسجلت اول ادوارها فيه بالنسبة إلى تاريخها المعاصر.

والذي يتحصل من دراستنا لتلك الفترة ان المرجعية في زمن الشيخ موسى كاشف الغطاء بدأت مرحلة النضج السياسي وقد ورد في ترجمة حياة هذا المرجع انه كان خبيراً في السياسة عارفاً بمواقع الأمور وله حكايات مع الأمراء والوزراء والسلاطين[١].

ومن المستبعد جداً ان تمر الأحداث المصيرية على الأمة دون ان تترك أثرها على زعيم ديني له هذه المواصفات. فالتنافس الروسي الالماني البريطاني الفرنسي على النفوذ والتغلغل في بلاد المسلمين كان على أشدّه

---

(١) آل محبوبة، جعفر، ماضي النجف وحاضرها ج ٣/ ص ٢٠٠.

والدولة العثمانية اصبحت تعرف بالرجل المريض ومشاكل المسلمين تتفاقم يوماً بعد آخر كل ذلك لا يسمح لنا بتصور ان الصلح العثماني القاجاري الذي تَمَّ برعاية المرجعية كان لمجرد حقن الدماء.

ولا بد ان يكون العامل السياسي المتمثل بالانتصار للأمة على اعدائها الغربيين قد لعب دوراً مهماً في تحفيز المرجعية نحو السياسة وعلى هذا الاساس نتصور ان عام (١٢٣٧ هـ ـ ١٨٢٢م) يمثل بداية الحياة السياسية للمرجعية الاسلامية وبداية المرحلة الأولى منها ونتصور ايضاً ان هذه المرحلة انطلقت على اساس الدفاع عن هوية المسلمين آزاء التحديات الغربية وهذا هو الشعور الذي سيسود وعي المرجعية وينتظم حركتها السياسية حتى الربع الأول من القرن العشرين.

مرحلة الدفاع عن الهوية الإسلامية

وتتكون هذه المرحلة من ثلاث فترات هي:

١ ـ فترة مقاومة النفوذ الاجنبي:

ويشترك فيها المرجعان الكبيران الشيخ موسى كاشف الغطاء، والامام محمد حسن الشيرازي فقد أوجد الشيخ موسى بصلحه اساساً لفكرة الوحدة الاسلامية بعد عهود من التناحر والتمزق وغياب الشعور الوحدوي ممهداً بذلك لفكرة الجامعة الاسلامية التي رفع رايتها السيد جمال الدين المعروف بالافغاني.

وتتبلور روحية المقاومة للنفوذ الاجنبي بشكل حاسم في ثورة التنباك

عام (١٣٠٩ هـ ـ ١٨٩١ م)، حينما اعطى ناصر الدين شاه امتيازاً لشركة انجليزية باحتكار زراعة وتسويق التبغ الإيراني لمدة خمسين عاماً فأفتى آية الله المجدد السيد محمد حسن الشيرازي بحرمة استعمال التبغ والتزم عشرون مليون مسلم ايراني بها والغي الامتياز وبعد هذا التاريخ بتسعة اعوام أكد هذا المرجع الكبير اهتمام المرجعية بهوية المسلمين ووحدتهم أزاء التحديات الغربية وذلك في حادثة رمي سماحته بالحجارة من قبل أحد أهالي سامراء السنة حيث جاء إليه القنصل البريطاني في بغداد يعرض عليه استعداد حكومته لإتخاذ الإجراءات القمعية التي يراها سماحته بهذا الشأن محاولاً من وراء ذلك الفتنة فأجابه المجدد الشيرازي قائلاً: «ان الحادث مجرد عمل صبياني عفوي وقع من قبل صبيان كانوا يلعبون في الطريق فلا حاجة لأن تدس بريطانيا أنفها فيما لا يعنيها من الأمور»[1] فعاد القنصل يجر اذيال الخيبة ويقبع بالفشل من هذه السياسة التي نجح الانجليز فيها بالهند وتصوروا انها تنجح مع زعماء الدين الاسلامي أيضاً وبذلك أحدث الميرزا الشيرازي في المرجعية زوبعة الوعي المقاوم وفتح أمامها أبواب العمل السياسي على أوسع نطاق.

٢ ـ فترة الاصلاح السياسي:

التفتت المرجعية بعد ثورة التنباك الى ان الاستبداد الداخلي ليس أقل خطراً على الأمة من التحديات الخارجية. وإنه يؤكدها حيث تحول النظام القاجاري المستبد إلى العوبة بأيدي الانجليز تارة والروس تارة أخرى فتبلورت لديها فكرة الاصلاح السياسي بإزالة الاستبداد وإقامة نظام يستند إلى أسس دستورية وشوروية ولم تفكر بتطوير حركتها إلى المناداة بنظام اسلامي

---

(١) الأسدي، حسن، ثورة النجف/ ص ١١٣.

انسجاماً مع المرحلة وشعارها الاساسي المتمثل بالدفاع عن هوية المسلمين.

لقد القت المرجعية في هذه الفترة بكل ثقلها الجماهيري والسياسي في معركة الاصلاح السياسي فشارك فيها ـ بعد علماء طهران ـ المراجع الكبار امثال الميرزا حسين خليل والشيخ عبد الله المازندراني والشيخ كاظم الخراساني والسيد كاظم اليزدي يؤيد الشاه ويناصر الاستبداد وهي الصورة الخاطئة التي شاعت عنه فيما بعد.

٣ ـ فترة الجهاد ضد الاحتلال الاجنبي:

اخيراً انتكست الحركة الدستورية الايرانية حيث قام الانجليز بتحريفها وتحويل خطها السياسي من المرجعية الى التبعية لهم وبالتالي تحويل النظام القاجاري الى ألعوبة بأيديهم بعدما كان ألعوبة بايدي الروس. وفي مقياس المرحلة اصبحت الهوية الاسلامية في خطر أشد من السابق حيث أصبحت تواجه خطر الاحتلال والسيطرة الاجنبية المباشرة وهذا ما حصل بالاعتداء الروسي على اذربيجان، والاعتداء الايطالي على ليبيا عام ١٩١١ م، ثم البدء باحتلال العراق في عام ١٩١٤ وكذا احتلال سوريا ولبنان وفلسطين والاردن... الخ، وهنا لعبت المرجعية الاسلامية دوراً مشرفاً قلَّ نظيره في ابعاده القتالية والجماهيرية والمعنوية ولم تتوان عن خوض معركة الشرف في جبهاتها كافة. فقد اصدرت فتواها بضرورة تحرير ليبيا من الطليان وبعثت وفداً الى هناك لتحري الموقف عن كثب ومعرفة سبل المساعدة التي يمكن للمرجعية تقديمها في هذا المجال وكثفت جهودها ضد الاحتلال الروسي لاذربيجان حتى ان الشيخ محمد كاظم الخراساني عزم على قيادة الجيش المتوجه لجبهات القتال هناك غير أن المنية وافته في الليلة التي كان مصمماً

على الرحيل الى اذربيجان في صباح اليوم التالي منها.

وخاضت المرجعية كذلك معركة تحرير سوريا ولبنان من الاحتلال الفرنسي وتحرير العراق من الاحتلال البريطاني وواصلتها حتى النفس الأخير وفي مراحلها كافة ففي البدء اعلنت الجهاد ضد الانجليز ثم اعلنت المقاومة لمشروع الاستفتاء حول مصير العراق ثم اطلقت شرارة ثورة العشرين وأخيراً أعلنت رفضها القاطع لنظام الانتداب في العراق ومشروع المعاهدة الايرانية ـ البريطانية في ايران.

ولمعت في هذه الفترة اسماء السيد كاظم اليزدي والشيخ الخراساني ومهدي الحيدري ومهدي الخالصي والميرزا الشيرازي... الخ وبخصوص العراق طرحت المرجعية مشروعها السياسي البديل عن الاحتلال وكان هذا المشروع يتمثل بفكرة إقامة دولة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس تمثيلي وهو مشروع يأتي استمراراً لمشروع المرجعية في الحركة الدستورية الايرانية ويمثل خلاصة فكرها السياسي المتمثل آنذاك بالدفاع عن هوية المسلمين وقامت الفكرة على أساس هوية مزدوجة من العروبة والاسلام دون قصد المعنى الايديولوجي الكامل لأي منهما فلم يقصدوا من العروبة المشروع القومي كما لم يقصدوا من الاسلام النظام الاسلامي بل اقتصر الأمر على الهوية التي كان المسلمون يسهرون على حمايتها ويخشون ضياعها فكان التعبير عن العروبة يعني رفض التتريك والتعبير عن الاسلام يعني رفض سلطة الكفار على العراق.

ولذا لم يطرحوا دور العلماء في هذا المشروع ولم يرفضوا الصياغة الملكية له وهما امران لا يتم معهما النظام الاسلامي الذي يقتضي دوراً أساسياً للعلماء ورفضاً صريحاً للملكية كما هو واضح. وبعد ثورة العشرين واصلت المرجعية دورها المقاوم للانتداب وعارضت تأسيس المجلس النيابي قبل انجاز الاستقلال التام للعراق حتى كان ما كان من أمر التسفير الذي تعرضت له حيث قام عملاء الانجليز بتسفير الشيخ مهدي الخالصي والشيخ

محمد حسين النائيني والسيد أبو الحسن الاصفهاني وعدد آخر من كبار العلماء خارج العراق.

وبعد أشهر معدودة قرر الزعيمان الشيخ النائيني والسيد أبو الحسن الاصفهاني العودة إلى العراق والموافقة على مطلب اعتزال السياسة الذي أرادته السلطة العراقية منهما.

مرحلة التحديث الإسلامي

لم تدرس حتى الآن حادثة تسفير العلماء إلى ايران عام (١٩٢٤) بما تستحقه من التحليل العميق والبحث الكافي واكتفى الباحثون بالاشارة الخجلى اليها تارة والعرض السلبي تارة أخرى وكأنهم يجمعون على ان المرجعية ارتكبت خطأ عندما وقّعت على اشتراط ترك العمل السياسي. ولكي ندرك الحقيقة في هذا الجانب ينبغي علينا تسليط الاضواء الكافية على هذه الحادثة المهمة. لقد كانت حادثة ذات دلالات بالغة الأهمية، فالمرجعية التي دخلت العمل السياسي بقوة جماهيرية لم تعهدها السياسة من قبل بحيث أنها بفتوى ذات سطر واحد ومن مرجع واحد فقط استطاعت ان تركع الشاه القاجاري وتربك الدوائر الانجليزية في المنطقة وتحقق استجابة جماهيرية منقطعة النظير، كيف وصل بها الأمر بحيث يتمكن وزير الداخلية في حكومة هزيلة من تسفير خمسين عالماً يتقدمهم ثلاثة مراجع كبار لهم سجلهم الحافل بالجهاد والفقه؟ اين توارت تلك القدرة الجماهيرية الواسعة؟ هل هو سحر الانجليز ام ضعف المرجعية السياسي أم شيء آخر؟

لا أنكر براعة الانجليز في السياسة ولكن الأمر أكبر من البراعة والدهاء، كما لا أعتقد بأن المرجعية توانت عن أمر كان ينبغي لها القيام به.

فما قامت به هو أعلى دور يمكنها أن تؤديه والتفسير الصحيح لهذه الظاهرة الغريبة يكمن في تفاوت ادوار الحضارة بين الانجليز والمسلمين فقد دخل المجتمع الاسلامي المعركة مع الغرب وهو أي المجتمع الاسلامي ـ في تهافت وذبول الدورة الأخيرة من حضارته الاسلامية.

مثقلاً بتراكمات كثيرة وتنخر به سلبيات كبيرة وتضعفه عوامل عديدة كان بحاجة إلى بناء جديد وهو ما يتطلب وقتاً ليس بالقليل وشروطاً ليست حصينة.

فيما خاض الغرب هذه المعركة وهو في عنفوان دورة حضارية جديدة. يتحرك بزخم فاعل ويعمل بثقة عالية بالنفس[١]. وفي مأزق من هذا النوع لم يكن بوسع المرجعية إلا أن تمد الوضع القائم بمقومات الصمود امام التحديات الغربية الهادفة إلى اسقاط الهوية الاسلامية للمسلمين في مجالات السياسة والثقافة والاجتماع والمقومات هي:

١ ـ اقامة الصلح بين الدولتين العثمانية والقاجارية.

٢ ـ القضاء على النفوذ الاقتصادي الغربي.

٣ ـ والعمل على اصلاح الحياة السياسية.

٤ ـ اعلان الجهاد المقدس ضد الاستعمار.

وقد استطاعت في هذه الادوار الأربعة الرئيسية ان تحقق زخماً سياسياً وثورياً قل نظيره كما وكيفا بحيث لا يتصور أن واجهة قيادية أخرى يمكنها

---

(١) نتحدث هنا عن الجانب النفسي والمعنوي من المجتمعين الاسلامي والغربي ونقارن بينهما بعيداً عما يرمزان إليه من الايديولوجيات فان الانجليز لم ينجحوا في تحقيق اهدافهم لأنهم آمنوا بالعلمانية بل لأنهم في انبعاث جديد وروحية جديدة ولأنهم ينظرون إلى امم حولهم تتسم بالخواء والضعف فتتعزز ثقتهم بانفسهم أكثر فأكثر ولم يضعف المسلمون امامهم بسبب انتمائهم الديني بل لأنهم عاشوا دور الشيخوخة في حضارتهم بكل ما لذلك من مدلولات سلبية في المجالات النفسية والثقافية والسياسية.

ان تحقق ذلك.

لكن العامل الحضاري المتمثل بكون المجتمع المسلم يعيش نهايات وذبول الحضارة الاسلامية تسبب في وجود أعماق اجتماعية هرمة لا يمكنها الاستجابة لمتطلبات المعركة بكل ابعادها فانحصر زخم المرجعية في السطح فظهرت الاندفاعة الثورية والجهادية التي توالت بشكل متواصل ما بين عامي (١٨٩١ ـ ١٩٢٤) والتي تمثل الطاقة الدفاعية المتبقية للحضارة الاسلامية في دورتها الأخيرة.

ووفقاً لهذه المعادلة تمثل دور الغرب وبشكل طبيعي في بناء متواصل الخطى فيما تمثل دور الأمة في دفاع مستميت إلا انه دفاع لا ينطلق من قاعدة صلبة بل من دورة حضارية ميتة لذا كان دفاعاً محكوماً بالتراجع وفقدان المواقع الواحد تلو الآخر حتى جاء العام ١٩٢٤ ليسجل نهاية الدفاع وبدء عهد التبعية. ففي تركيا سقطت الخلافة العثمانية وأسس اتاتورك الجمهورية العلمانية على انقاضها وفي ايران تم تحريف الحركة الدستورية وهناك خطوات جادة لانهاء الحكم القاجاري وابداله بحكم علماني صريح وفي الجزيرة العربية تم تصفية «الشريف حسين» الذي كان يطمح بتأسيس خلافة اسلامية تشمل الجزيرة والشام والعراق وجيء بآل سعود بدلاً عنه ولم تكن الساحة العراقية بدعا من هذه الساحات.

فمشروع الجهاد الذي بدء من العام (١٩١٤) وعلى الرغم من زخمه واندفاعه الشديدين لم يحقق النتائج الميدانية المطلوبة والمرجوة إذ لم يحل في المحصلة النهائية دون تحقق الاحتلال. وانتكست ثورة النجف وبعدها ثورة العشرين فيما تواصل دور الانجليز المتنامي بتشكيل نخب علمانية متغربة وإكمال الاحتلال تشكيل الحكومة المؤقتة وتنصيب الملك فيصل.

والفصل الأخير الذي تبقى من المعركة بين الطرفين كان يتمثل في انتخابات المجلس التأسيسي وعقد معاهدة الانتداب وهو الفصل الذي حُسم

أخيراً بتسفير المراجع الثلاثة ومن معهم من العلماء الكبار خارج العراق والذي ظهرت فيه علائم نضوب المقاومة لدى الأمة وأبدت جماهير المرجعية استرخاءً امام السلطة ولم تؤد الدور المعهود منها آزاء مسؤول عادي في الدولة هو متصرف كربلاء عندما أمر باعتقال أبرز مرجعين في النجف الاشرف هما الامام الاصفهاني والامام النائيني مع عدد كبير من العلماء البارزين.

هذه هي الدلالات البالغة والعميقة لحادثة تسفير العلماء. وما لم ندركها ضمن سياق الصراع الحضاري بين الغرب والأمة الاسلامية انذاك لا يمكننا أن ندرك موقف المرجعية المتمثل بالعودة إلى العراق وقبول اشتراط عدم التدخل في السياسة. ان السياسة تمثل مرحلة متقدمة من مشروع حضاري، والمشروع الاسلامي آنذاك كان يعيش سلسلة تراجعات قهرية فرضها العامل الحضاري المذكور آنفاً حتى وصل أخيراً في عام ١٩٢٤ إلى الصفر حيث اغلق ملف آخر دورة من دورات الحضارة الاسلامية.

وتعين على المسلمين النهوض بأعباء دورة جديدة وتأسيس واقع جديد يأخذ بنظر الاعتبار المعطيات الجديدة للحياة وقد يستبعد البعض هذا التصور استكثاراً منه على المرجعية مثل هذا الوعي ولكنه استبعاد غريب فان المرجعية التي وافقت على اشتراط عدم التدخل في السياسة كان لها حضورها السياسي المبكر ومعايشتها للمرحلة الاولى منذ ثورة التنباك سنة ١٨٩١ أي انها رافقت المشروع الاسلامي منذ ايامه الاولى وواكبت محطاته، انتصاراته وانتكاساته. بشكل يجعل التصور المذكور امراً تلقائياً وطبيعياً جداً.

لقد أدركت المرجعية وهي في ايران انها أصبحت في غنى عن السياسة وانها يتعين عليها خوض مهام التحديث في البنى الاساسية للمجتمع الاسلامي فعادت إلى العراق ووافقت على شرط السلطة الذي لو لم يشترط عليها لكانت قد التزمت به بشكل تلقائي لأنها دخلت مرحلة التحديث التي

ستتشكل من أربع فترات.

١ ـ فترة إعادة بناء القواعد التحتية للمجتمع:

ونقصد بالقواعد التحتية الأسس الثقافية والاجتماعية التي يتوجب إعادة بنائها بما يتوافق والظروف العصرية الجديدة وقبل أن نشرح الادوار التي قامت بها المرجعية في هذا المجال لا بد لنا من الإشارة إلى أن جذور هذه الفترة تشكلت في المرحلة السابقة إلا أنها لم تعرض طابعها المتميز إلا في المرحلة الثانية.

فإن الاعمال الفكرية والنشاطات الثقافية المتميزة للسيد هبة الدين الشهرستاني والشيخ محمد جواد البلاغي والشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء والشيخ آغا رضا الاصفهاني والسيد عبد الحسين شرف الدين قدمت شرارة التحديث في المجتمع الاسلامي وجعلته يتنبه للمرحلة القادمة التي حلت فعلاً بعد عام ١٩٢٤ م.

أما الادوار التي قامت بها المرجعية في هذه الفترة فتتمثل بالنقاط التالية:

أ ـ إعادة تنظيم الفكر الامامي وتجديده وهذا ما يتمثل في الاعمال الفكرية للسيد عبد الحسين شرف الدين والعلامة الأميني والشيخ محمد رضا المظفر والشيخ كاشف الغطاء والسيد حسن الصدر.

ب ـ ترسيخ قواعد المرجعية وتوسع نطاقها ويتمثل ذلك في مرجعية الامام السيد أبو الحسن الاصفهاني والميرزا حسين النائيني وتأسيس الشيخ عبد الكريم اليزدي لحوزة علمية في قم المقدسة وما تضمن ذلك من انشاء موطن اضافي سرعان ما احتضن المرجعية العليا في اعقاب وفاة الامام

الاصفهاني تلك هي مرجعية الامام حسين البرجوردي التي واصلت هذا الدور.

ج ـ تحديد نظم الدراسة وهيكلية الحوزة ويتمثل ذلك في مشروع جمعية منتدى النشر للشيخ محمد رضا المظفر.

د ـ الاصلاح الاجتماعي ويتمثل هذا الدور في الاعمال الاصلاحية للسيد محسن الأمين العاملي على صعيد الشعائر الحسينية وتأسيس الجمعيات الخيرية وللشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء على صعيد المجتمع الشيعي في العراق.

هـ ـ انماء حركة الفكر الاسلامي ويتمثل ذلك في الاعمال الفكرية للشيخ البلاغي والسيد هبة الدين الشهرستاني والشيخ عبد الكريم الزنجاني.

و ـ فهرسة التراث الشيعي ويتمثل هذا الدور بالاعمال الرجالية والبيبلوغرافية القيمة للشيخ الجليل آغا برزك الطهراني والسيد محسن الأمين العاملي.

ولا يعني انشغال المرجعية في هذه الفترة ببناء الأسس الجديدة للمجتمع انها انصرفت تماماً عن السياسة فالسيد الاصفهاني الذي امضى شرط عدم التدخل في السياسة والسيد حسين القمي والسيد حسن المدرس والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء والسيد البرجوردي قاموا بنشاطات وأدوار سياسية مختلفة عندما اقتضت الضرورة ذلك منهم.

٢ ـ فترة الاصطدام مع السلطة:

ومنذ أوائل الخمسينات بدأ الطابع السياسي يزداد ظهوراً في اعمال المرجعية الاسلامية التي بدأت تطرح محوراً جديداً هو محور معارضة النظام الحاكم ففي ايران ظهرت حركة «فدائيان اسلام» بقيادة السيد «نواب

صفوي». كما ظهرت حركة السيد ابو القاسم الكاشاني في معارضته الاحتكارات الاجنبية لصناعة النفط والدعوة الى تأميمه. وفي عام (١٩٦٣ م) تصدر محور معارضة النظام اعمال المرجعية بحيث قام الامام الخميني بقيادة انتفاضة (١٥ خرداد) ضد النظام البهلوي المقبور وفي العراق بدأ السيد محسن الحكيم مرجعيته في أوائل الخمسينات بمعارضة واضحة للنظام الملكي ما لبثت أن تبلورت بشكل أوضح أبان العدوان الثلاثي على مصر عام (١٩٥٦ م) وفي مطلع العهد الجمهوري تم تأسيس «جماعة العلماء» و «حزب الدعوة الاسلامية» ليكونا ذراعي المرجعية في مواجهة النظام القائم.

وفي منتصف الستينات مارست مرجعية الامام الحكيم دوراً بارزاً في بلورة رأي جماهيري رافض للنظام الحاكم.

٢ - فترة طرح النظام الاسلامي:

منذ أوائل الستينات بدأت تظهر في أوساط المرجعية فكرة إقامة نظام اسلامي وذلك من خلال جملة كتابات أبرزها كتابات الامام الشهيد محمد باقر الصدر، غير ان هذه الفكرة لم تتبلور بشكل بارز ومشخص إلا في أوائل السبعينات عندما القى الامام الخميني محاضراته عن «ولاية الفقيه» التي مثلت أول صياغة فقهية محدودة لمشروع «الحكومة الاسلامية» وأول مبادرة سياسية مرجعية في هذا الاتجاه الذي رافقه ظهور حركة فكرية قوية تدعمه.

فقد اثرت كتابات الامام الشهيد الصدر والعلامة الطباطبائي والشهيد مرتضى المطهري والعلامة محمد حسين فضل الله والشيخ محمد مهدي شمس الدين والعلامة السيد مرتضى العسكري والحجة الشيخ محمد مهدي الاصفي والشيخ باقر شريف القرشي والشيخ عبد الهادي الفضلي وآخرين في المدرسة الاسلامية وادخلتها طوراً جديداً وجعلت فكرة إقامة النظام الاسلامي تنطلق من قاعدة رصينة.

وقد واصلت المرجعية اتجاهها الجديد بكل اصرار وحزم حتى قيض الله سبحانه وتعالى تحقيق حلم الانبياء من خلال إقامة الجمهورية الاسلامية في إيران عام ١٩٧٩ م.

٤ ـ فترة الدعوة الى تطوير واقع المرجعية:

منذ أوائل المرحلة التحديثية التفتت المرجعية الى ضرورة تطوير واقعها وأساليب عملها بما يتناسب مع خصائص الوضع الجديد ومهامه فظهرت فكرة جمعية منتدى النشر التي عبّرت عن تغيير كيفي في عمل الحوزة ومناهجها فيما ظهرت مرجعية قم بزعامة آية الله اليزدي ومن بعده آية الله البروجردي وتوسعت مرجعية النجف الأشرف بزعامة الامام الاصفهاني توسعاً كبيراً وعبرت هذه الاضافة والتوسع عن تطور في حجم المرجعية فيما بقي الجانب النوعي من عملها منتظراً الفرصة المناسبة للظهور حتى جاءت فترة طرح النظام الاسلامي لتسلط الضوء على الواقع النوعي للمرجعية وتؤثر بقوة لضرورة تطوره والارتفاع به إلى مستوى التحديات والمهام الجديدة وتأكدت هذه الضرورة ـ بل تحولت إلى حتمية ـ بعد قيام النظام الاسلامي في ايران ومع أن الكثير بدأوا يرون في الواقع النوعي للحوزة والمرجعية صوراً مؤلمة إلا أنهم لم يدرسوا الأسباب الطبيعية لها المتمثلة أساساً بأن قيام الثورة الإسلامية وإقامة النظام الاسلامي فاجأ المرجعية وأخذ يطالبها بخصائص وامتيازات ما كان بالامكان توفرها بشكل دفعي كما ان هناك شروطاً نوعية مفقودة كانت سنة التدرج تقتضيها للدخول في الواقع المطلوب.

ومن بين كبار العلماء العاملين الذين افصحوا عن رغبتهم في تطوير الواقع النوعي للمرجعية تفرد الامام الشهيد الصدر «قدس سره» بحكم قيمومته على الفكر والتنظير الاسلامي المعاصر بتقديم اطروحة متكاملة في

هذا المجال يمكن اعتبارها في الحد الادنى ورقة عمل لمؤتمر قمة مرجعي تفرض الضرورة الراهنة إقامته للوصول الى صيغة جديدة في واقع المرجعية الاسلامية وسنشير إلى هذه الاطروحة وأفكارها في الفقرة التي ستأتي بعنوان الأسس الجديدة.

خصائص خط العلماء

تميزت المرجعية في عملها السياسي والاجتماعي والفكري بجملة خصائص نوعية فريدة لا نجدها في أي خط اسلامي آخر مفترض وهي:

١ - الخط الحاشد بالجماهير:

فقد كان الحضور الجماهيري في هذا الخط منقطع النظير في عالم السياسة الحديثة ففي ثورة التنباك التزم الشعب الايراني برمته - عشرون مليون نسمة تقريباً - بفتوى المرجعية بحرمة التنباك وحطمت آلات استعماله - النارجيلة حتى التي كانت في قصر الشاه.

وفي الثورة الدستورية كان وصول بيان من المرجعية في النجف الاشرف الى ايران كافياً لاحداث مظاهرات عارمة من مختلف المدن الايرانية.

وفي فترة الجهاد ضد الاحتلال الاجنبي استطاعت المرجعية ان تجند العشائر العراقية ليس ضد الاحتلال الانجليزي للعراق فحسب بل ضد الاحتلال الروسي لأذربيجان ايضاً رغم المسافة الجغرافية والقومية الفاصلة بين العراق واذربيجان ورغم صعوبة المواصلات آنذاك.

وهكذا الأمر في ثورة العشرين وقد اغنتنا الثورة الاسلامية بقيادة الامام الخميني عن سرد الشواهد التاريخية في هذا المجال حيث كانت الكلمة التي يطلقها الامام وهو في منفاه تتحول بسرعة خاطفة الى غليان جماهيري مليوني في المدن الايرانية كافة. ورغم الظروف الصعبة التي مرت بها الثورة الاسلامية لم تنخفض الحالة الجماهيرية في ايران بل انها وخلافاً لما يتصوره البعض ترسخت اكثر. فالقائد الذي استقبله ثمانية ملايين مواطن شيّعه بعد عشرة اعوام الى مثواه الأخير ثلاثة عشر مليون مواطن.

وبحكم الطبيعة البشرية التي تقترن فيها السلبيات بالايجابيات دائماً انعكست هذه الظاهرة الايجابية بشكل سلبي على بعض اعمال المرجعية وأهم ذلك امران:

أ ـ انعدام النظام في الجوانب الدراسية والاقتصادية والوظيفية الرسالية بل وظهور ذلك في بعض الاوساط كمنهج متبنى فعندما طرح المجددون فكرة النظام والتنظيم دافع المحافظون عن الواقع القائم خوفاً من الجديد ذي المستقبل غير المضمون وتقديساً لطريقة السلف التي بدت في نظرهم وكأنها مقدسة فعلاً فطرحوا فكرة مضادة تقول «ان نظمنا في اللانظام» وهي الفكرة التي يحتمل الامام الخميني «قدس سره» ان يكون الاجانب قد أوحوا بها في الحوزة العلمية بشكل أو بآخر.

ب ـ حكومة العوام فنتيجة للعلاقة الصحيحة التي تربط الجماهير بالمرجعية تضخم دور الجماهير واصبح أثره سلبياً في بعض الأحيان وهو ما يعبر آية الله الشهيد الشيخ مرتضى المطهري عنه بـ«حكومة العوام» حيث غدت هذه الحكومة قوة يحسب لها المرجع الديني حسابات دقيقة قبل ان يقدم على أي خطوة في الميدان الاجتماعي والسياسي والفكري وفي كثير من الحالات جعلت هذا المرجع أو ذاك يحجم عن الاصلاح والتغيير الذي يصطدم مع عواطف الجماهير وأحاسيسها كما سيأتي تفصيل ذلك.

٢ ـ خط الاصالة:

وتميز خط العلماء ايضاً باعلى درجات الاصالة والنقاء لأنه يتلقى فهمه للاسلام من خلال الكتاب والسنة مباشرة ويجعلها القاعدة في نسج تصوراته ومفاهيمه عن الكون والحياة والانسان فهو يبدأ من الكتاب والسنة وينتهي بالحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية خلافاً للنهج الآخر الذي يبدأ بالحياة ويجعل معطيات الحاضر أساساً في فهمه للكتاب والسنة وكأن الاسلام يستمد مصداقيته وشرعيته من الواقع الحاضر لا العكس.

وبفضل هذه الصفة استطاع خط العلماء الاعلام انقاذ الاسلام المحمدي الأصيل من تيارات الضلال والانحراف والمحافظة عليه رغم كل المشاق والتحديات الصعبة غير ان تياراً في هذا الخط ـ وبحكم الطبيعة البشرية ـ تطرف في فهم الاصالة وتشدد فيها فترجمها الى اتجاه محافظ يرفض مواكبة التطورات ويحجم عن استيعاب المتغيرات خوفاً من تحول هذه وتلك الى عناصر مخلة بالاصالة ودخولها في الاسلام كأجزاء اضافية فيه وهو اتجاه ينشأ في اسبابه البعيدة من العجز الفكري عن الجمع بين الضرورتين الاصالة واستيعاب المتغيرات فيجد اصحابه انفسهم مخيرين بين احدهما فيكون الاقتصار على الاصالة خيارهم الوحيد والطبيعي.

وإضافة الى السلبيات التي واجهتها حركة الاصلاح في المجتمع الاسلامي من هذا الاتجاه نجده جاء مخالفاً لجملة من أساسيات الفكر الاسلامي منها الفكرتان التاليتان:

أ ـ الاجتهاد: فان الاجتهاد يعني بكل وضوح استيعاب المتغيرات ومعالجتها على أساس الاصالة او صبّ الاصالة في اشكال متجددة باستمرار ومن الغريب حقاً ظهور اتجاه محافظ في المدرسة الامامية التي تتميز لتبنيها الراسخ للاجتهاد.

ب ـ التجديد فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

وعند تحليلنا لقوله ﷺ «. . . مجدداً للدين» نجد ان التجديد الديني في رسالة خاتمة لا يمكن نسخها يعني امرين لا ثالث لهما.

١ ـ تجديد الروح الدينية في المجتمع الاسلامي بحيث يبدو وكأنه في تجدد فان الدين يطلق تارة على الحقيقة الإلهية التجريدية المطلقة وهي بنفسها غير قابلة للتجديد ويطلق اخرى على الحقيقة الروحية والفكرية القائمة في المجتمع فيقال دين الرجل او دين المجتمع ويقصد درجة الالتزام وروحية الاعتقاد بالدين وهذه الحقيقة تحتاج الى التجديد لأنها في معرض لكثير من السلبيات والمتغيرات وعلى هذا الاحتمال يكون التجديد الديني المقصود هو التجديد الاجتماعي والسياسي اي ضخ المجتمع بروحية دينية متجددة تأخذ بنظر الاعتبار المتغيرات الاجتماعية الجديدة.

٢ ـ التجديد الفكري فان الفكرة الدينية قبل اختلاطها بحياة الانسان تكون مطلقة وعندما تمتزج بالحياة الانسانية تصبح تحت تأثيرها سلباً وإيجاباً وبعد فترة من الزمن تتراكم التأثيرات عليها حتى تبدو غريبة عن الدين فتظهر الحاجة الى اعادة البناء والتأصيل الديني.

ولا مانع من الأخذ بكلا التفسيرين للحديث النبوي ـ التفسير الاجتماعي والتفسير الفكري فالدين كحقيقة اجتماعية وفكرية ـ لا بما هو حقيقة مطلقة ـ يحتاج الى تجديد مستمر لضمان ضرورتين واشباع حاجتين.

٣ ـ ضرورة وحاجة المعاصرة المعبر عنها بمواكبة المتغيرات واستيعابها لكي يكون تواصل الدين مع الحياة مستمراً ولا يتحول الى انطواء على الذات ودائرة مغلقة على نفسها.

---

(١) سنن أبي داود، ٤: ١٠٩ حديث ٤٢٩١.

وضرورة وحاجة المحافظة على الاصالة كقاعدة في البناء الفكري الاجتماعي للانسان المسلم فيكون للفكر ـ وكذا للمجتمع ـ الديني دورات تجديدية متواصلة.

ولنلاحظ ان النبي الاعظم ﷺ حدد عمر كل دورة من هذه الدورات بمائة سنة أي بثلاثة الى اربعة اجيال فلا يصح للمجتمع الجمود على دورة اكثر من ذلك لأن ذلك مضر بالضرورتين معاً «الاصالة والمعاصرة».

خلافاً لما يتصوره الخط المحافظ من أن ابقاء الواقع كما هو يعطي ضماناً للاصالة وان العصرية تثير احتمالات ضعفها والخطر عليها ذلك ان الواقع لم يشكل من الحقيقة الدينية المطلقة فقط حتى يكون مقياساً للاصالة وانما تشكل من الوعي الانساني لهذه الحقيقة.

وهذا الوعي بنفسه ليس حقيقة مطلقة، صحيح انه وعي مشروع ويحمل ماركة الشرع لأنه بُني على أسسه ومقاييسه لكنه بُني في ضوء مرحلة معينة وبالتالي فهو لا يملك مؤهلات البقاء للمرحلة التالية بل يكون بقاؤه في المرحلة التالية أمراً منافياً للاصالة.

ومن هنا تبرز الاصالة والمعاصرة معاً في مقولة الخط الاصلاحي «هم رجال ونحن رجال» فالسلف أسس لمرحلته وعلى الخلف ان يؤسس لمرحلته كل في اطار الشرع ومقاييسه.

٣ ـ خط الاصلاح والتغيير:

الاصلاح والتغيير والتجديد والاحياء نوازع عميقة الجذور في الفكر الاسلامي ويكفي ان نذكر ان مادة «صلح» تكررت في القرآن الكريم أكثر من (١٨٠) مـرة وهو أمر لا نظير له في المجالات القرآنية الأخرى وقد فرض

هذا الزخـم نفسـه على تاريخ المرجعية المعاصر. فادوار الشيخ موسى كاشف الغطاء، والمجدد الشيرازي، وقادة الثورة الدستورية، وثورة العشرين والسيد محسن الأمين العاملي، والسيد عبد الحسين شرف الدين، والشيخ محمد رضا المظفر، والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والسيد الشهيد الصدر «قدس سره» والامام الخميني «قدس سره» تشكل سلسلة ذات حلقات متصلة من الاصلاح السياسي والاجتماعي والثقافي وقد يقال ان هذه الادوار هي أقل مما ينبغي بحساب الاهتمام الاسلامي الشديد بالاصلاح والتغير من جهة ومتطلبات الساحة الاسلامية من جهة ثانية والامكانات العملية الجيدة التي يملكها خط العلماء في هذا المجال من جهة ثالثة.

فكيف نفسر هذه المفارقة المهمة بين الواقع والمطلوب في حركة المرجعية؟ ولدى الاجابة على هذا التساؤل نجد أن قسماً من هذه المفارقة ناشىء من المعارضة التقليدية التي تلقتها حركة الاصلاح والتغيير في كل مجتمع لأسباب نفسية غير موضوعية ناشئة من قدسية الماضي ومجهولية المستقبل الذي يريده الأصلاحيون.

والمستقبل المجهول ـ من وجهة نظر المحافظين ـ ليس أفضل من الحاضر وان كان سيئاً.

والقسم الأعظم منها ناشيء من ان الحركة الاصلاحية لخط المرجعية كانت واقعة تحت تأثير السلبيات الجانبية التي لمسناها في الحقيقتين السابقتين فقد عرفنا سابقاً ان جماهيرية خط العلماء انتجت وبشكل جانبي حالة سلبية اخرى هي جناح المحافظين الذي تتناسب قوته طردياً مع قوة الاصالة ودرجة الاعتماد عليها.

وقد شكلت هاتان الحالتان قيدين كبيرين تسببا في اجهاض وإضعاف الكثير من الادوار الاصلاحية للعلماء. خاصة وان هناك انسجاماً وعلاقة تقليدية بين العوام والمحافظين. بحيث يجد المحافظون دائماً نصيرهم القوي

في حكومة العوام. ان حكومة العوام وجناح المحافظين لعبا دورين كبيرين في تكوين المفارقة المشار إليها. وان البيان الوثائقي التاريخي المفصل لا يتناسب مع حجم هذا المدخل التحليلي لكننا نشير في استعراض سريع الى أبرز حلقات هذه الظاهرة.

اية الله السيد كاظم اليزدي:

يشير السيد هبة الدين الشهرستاني في مذكراته التي دونها الأديب علي الخاقاني في الجزء العاشر من موسوعته «شعراء الغري» الى ان السيد اليزدي كان في بداية الأمر من جملة المراجع المؤيدين للمشروطة والعاملين لها إلا أن الذين تبنوا الفكرة كونوا باسلوب غير مباشر جواً معكراً ضده أدى بالأخير إلى تشويش الاذهان نحوه وجفاء الناس له. ويذكر ايضاً ان السفير الروسي عمل بعد ذلك على توسيع الخلاف بينه وبين الشيخ الخراساني. ان هذا الرقم التاريخي يشير بوضوح الى عدم عناية المرجعية بالجانب التنظيمي في عملها السياسي والاصلاحي وانها لم تحرص بما يكفي على وحدة الكلمة. بشكل أدى الى انفصال جناح مهم عنها وهي لا زالت في أول الطريق ولم تظهر رداً مناسباً على حالة التسلل التي أبداها السفير الروسي في جهاز المرجعية.

إن السيد اليزدي نفسه اعترف بعدم درايته في الجانب السياسي وذلك في قضية الاستفتاء حول مصير العراق التي جرت في أواخر عام «١٩١٨» وينبغي ان لا نستغرب ذلك فليست المرجعية معهداً للدراسات الاستراتيجية بل هي معهد للدراسات الشرعية تظهر من خلاله كفاءات مختلفة فهذا يبرع بالتفسير وثانٍ يتميز بالجانب الاجتماعي والقيادي.

وكان من الواجب على رموز الحركة الدستورية المحافظة على وحدة

المرجعية وتشخيص الكفاءة السياسية للافراد الذين يتعاملون معهم منذ البدء. ولو كانت هناك درجة مناسبة من التنسيق والتخطيط لما انفصل السيد اليزدي عن الحركة ولما تمكن الاعداء بعد ذلك من تحويله في انظار الناس الى خط معارض للاصلاح السياسي ومناصر الاستبداد كما هي النظرة الخاطئة السائدة عنه حتى الآن.

ويروي السيد الشهرستاني أيضاً ـ وهو أحد رموز الحركة الدستورية ـ ان الفصل الأخير من الخلاف بين السيد اليزدي والحركة الدستورية كان نتيجة صورة للسيد اليزدي ظهرت في النجف الاشرف وفيها يد تحمل مسدساً موجهاً على رأس السيد الأمر الذي افزع العوام وجعلهم في هياج شديد انتصاراً للسيد اليزدي وعداءً للحركة الدستورية التي تريد قتل ابن رسول الله. وهذا يعني ان الفتنة بدأتها أيدي مجهولة والمظنون انها أيدي السفير الروسي وطورتها حكومة العوام ويظل المنشأ الأساسي لها يتمثل في ضياع الجانب التنظيمي والتخطيطي والتنسيقي في اعمال المصلحين وهو من آثار حكومة العوام.

ب ـ اية الله حسين النائيني:

يمكننا تعريف الميرزا حسين النائيني بأنه المنظّر الفكري للحركة الدستورية فاضافة الى مشاركته الميدانية في نشاطات هذه الحركة قام هذا الفقيه الكبير بتأليف أول رسالة فقهية من نوعها في التاريخ المعاصر. وهي رسالة «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» التي اثبتت فيها مشروعية الحركة الدستورية.

إلا أنه بعد إنكسار الحركة الدستورية وتحت تأثير حكومة العوام قام آية الله النائيني بجمع كل نسخ الرسالة من المكتبات واتلافها وكان يقوم بشراء نسخها من الاسواق مهما كانت قيمتها حرصاً على انهاء وجودها من السوق

تماماً وذلك تجاوباً مع العوام الذين اصبحوا يرون الحركة الدستورية مجرد فتنة لا خير فيها، بل انه كفّ عن الاسهام السياسي والاجتماعي باستثناء فترة معارضة الانتخابات التشريعية في العراق ويبدو ان فشل هذه المعارضة حول اتجاهه من معارضة الواقع إلى معارضة تغييره فعندما قام السيد محسن الامين العاملي بحركته الاصلاحية بشأن الشعائر الحسينية كان موقف آية الله النائيني معارضاً له.

ج ـ السيد محسن الأمين العاملي:

في أواخر العشرينات أعلن السيد محسن الأمين العاملي حركته الاصلاحية بشأن الشعائر الحسينية، فواجهته حكومة العوام بمعارضة شديدة قل نظيرها حيث اعتبر اموياً يزيدياً معادياً للحسين عليه السلام كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخاص بحياته.

د ـ السيد هبة الدين الشهرستاني:

في منتصف العقد الثاني من القرن الميلادي الحالي افتى السيد هبة الدين الشهرستاني بحرمة نقل الجنائز من الأماكن البعيدة الى النجف الأشرف لما يؤدي ذلك من امراض أثر تفسخ جثة الميت في الطريق حيث ان وسائط النقل البدائية تتطلب زمناً طويلاً لإيصال الموتى الى النجف خاصة بالنسبة للأماكن البعيدة ومن الناحية الفقهية تعنون هذه الحالة بعنوان هتك حرمة الميت وهو أمر لا تجيزه الشريعة المقدسة فقامت أثر ذلك ضجة كبيرة تعرض اثناءها لمحاولة اغتيال فاشلة قام بها بعض العوام. وكتب السيد عبد الحسين شرف الدين رسالة بعنوان «بغية الفائز في جواز نقل الجنائز» رداً على فتوى السيد الشهرستاني.

و ـ الشيخ عبد الكريم اليزدي:

يروي آية الله المطهري في كتابه «الاجتهاد في الاسلام» ان مؤسس حوزة قم المقدسة الشيخ عبد الكريم اليزدي، طلب تدريس اللغات الاجنبية وبعض العلوم الحديثة كمقدمات في الحوزة لكي يتمكن طلبتها من عرض الاسلام على الطبقات الحديثة وفي البلدان الاجنبية. ولكن ما ان انتشر الخبر حتى جاءت جماعات من الناس من طهران الى قم قائلين بانهم يدفعون الخمس لتدريس الفقه والاصول لا لغة الكفار وأنهم سوف يفعلون كذا وكذا إذا نُفذ هذا الاقتراح فألغى الشيخ فكرته لأن الموقف قد يؤدي إلى انهيار الحوزة الوليدة.

ز ـ اية الله السيد البروجردي:

ويروي الشيخ المطهري ايضاً في كتابه السابق ان السيد البروجردي ذكر أثناء درسه الفقهي ذات يوم وبمناسبة البحث في تقية الشيعي من الشيعي، انه ـ أي السيد البروجردي ـ كان يظن ان عليه ان يستنبط الاحكام وعلى الناس العمل بها لكنه وجد بعد ذلك ان الأمر ليس كذلك ويروي الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ان السيد البروجردي بعث إلى هيئات العزاء الحسيني توجيهاً يطلب منهم فيه ترك العادات المخلة وغير الصحيحة أثناء اقامة مراسم العزاء فكان جوابهم اننا نقلدك في ٣٦٤ يوماً من السنة ولكننا في يوم عاشوراء لا نقلدك[١].

هذه مجرد امثلة وهناك امثلة أخرى في حياة الامام الشهيد الصدر

---

(١) مجلة حوزة. العدد ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ص ٢٦٧.

والامام الخميني على دور العوام السلبي في سير المرجعية.

يقول آية الله المطهري في كتابه السابق «ان الأمة التي أصابت مجتمعنا الديني بالشلل وأقعدته عن العمل هي الاصابة بالعوام... ان منظومتنا الدينية على أثر اصابتها بهذه الآفة لا تستطيع أن تكون طليعة فتتحرك امام القافلة وان تهدي القافلة بالمعنى الصحيح للهداية انها مضطرة للتحرك وراء القافلة «ويقول ايضاً» ان حكومة العوام هي منشأ رواج الرياء والمجاملة والتظاهر وكتمان الحقائق والاهتمام بالمظاهر وشيوع الالقاب والمقامات والتطلع الى المراكز العليا في مجتمعنا الديني مما لا نظير له في العالم».

«ان حكومة العوام هي التي تدمي قلوب احرارنا وطلاب الاصلاح فينا».

ومما لا شك فيه ان هذه الظاهرة أوجدت تذبذباً في حركة المصلحين. فنجد شخصية تقف الى جانب الاصلاح في قضية الى حد الزعامة وفي الوقت نفسه تعارض الاصلاح في قضية أخرى والى حد الزعامة ايضاً. فالشيخ محمد رضا المظفر الذي قاد حركة الاصلاح في مناهج الحوزة ومؤسساتها الدراسية حتى وصل الى قضية الخطابة الحسينية محاولاً برمجتها فاثيرت بوجهه ضجة عنيفة. كان قبل ذلك من الخط المعارض لحركة السيد محسن العاملي بشأن اصلاح الشعائر الحسينية والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الذي تزعم دوراً اصلاحياً في الجانبين السياسي والاجتماعي سجل معارضته لحركة السيد العاملي والشيخ النائيني الذي وقف الى جانب الاصلاح السياسي بقوة ختم حياته بمعارضة هذه الحركة ايضاً. ان حكومة العوام وعدم التنسيق والتخطيط وقوة الجناح المحافظ وتضارب ادوار المصلحين وعوامل سلبية اضعفت حركة الاصلاح في حياة المرجعية وجعلتها أقل بكثير مما ينبغي وما يمكن ويتوجب الآن على الجيل الحاضر دراسة هذه العوامل والعوامل الأخرى التي يمكن التوصل إليها بعمق وتأني إذا ما قرر

هذا الجيل الوصول الى مستقبل أفضل.

٤ ـ خط الفكر المتنامي:

يتسم الفكر المدرسي في الحوزة العلمية بدرجة عالية من العمق والقدرة التشقيقية وكمثال على ذلك نذكر ان كتاب «كفاية الاصول» للشيخ كاظم الخراساني المطبوع في العقد الاول من القرن الميلادي الحالي والذي يقع في «٥٠٠» صفحة تقريباً وفق الطباعة الحديثة يدرسه الطالب الحوزوي في أربع سنوات متوالية كمعدل عام. وقد ظهرت عليه حتى الآن شروح كثيرة قاربت المائتي شرحاً يقع كل منها في عدة أجزاء. وهذه ظاهرة لا نجد لها مثيلاً في الفكر المدرسي الأكاديمي. وتدلل بكل تأكيد على عمق الفكر الحوزوي وخصوبته ومكانته بما تمكن الطالب من أداء وظيفته الأساسية المتمثلة بفهم النص الديني بكل محتملاته القريبة والبعيدة وإيجاد تشقيقات يمكن ان تكون أساساً لمعالجة المستجدات التي تتطلب عمقاً علمياً أكبر في فهم النصوص كلما ازدادت المسافة الزمنية الفاصلة بينها وبين عصر التشريع ويوفر بالتالي أرضية جيدة لفكر اسلامي خصب يمكنه ان يعالج كل قضايا الاسلام بكفاءة عالية جداً.

وكما وجدنا في الخصائص الأخرى نجد في هذه الخصيصة ايضاً ان حالة سلبية طرأت عليها فان الفكر المدرسي يصرف جزءاً من طاقته وطاقة الحوزة في ابحاث خيالية فرضية واخرى فقدت ميدانها التطبيقي في عالم اليوم وثالثة قليلة الارتباط بالواقع.

ولو ان هذه الابحاث تأتي بعد اشباع الحاجات الراهنة والمهمة لكان ذلك مقبولاً بوجه. ولكنه لم يكن كذلك فالكثير من الابحاث والمحاور ذات العلاقة بالحاجات الراهنة والمهمة في عالم اليوم مفقود او لا يجد اهتماماً كافياً. فيما يتوجه الاهتمام الكبير الى الابحاث البعيدة عن متطلبات الواقع

الراهن.

٥ ـ القيادة الطبيعية:

يجد المجتمع الاسلامي في المرجعية القيادة الطبيعية له وذلك لعاملين.

أ ـ ان الدين هو المنهج الطبيعي في حياة المجتمع الاسلامي والمرجعية هي الممثل الشرعي عنه.

ان العلم هو المحور الصحيح للقيادة.

لأن تبعية الرعية للقائد، قائمة على أساس ما يملكه هذا القائد من قوة الكشف عن الواقع والملكات الفكرية للإنسان تمثل جوهر هذه القوة.

ومن هذه الجهة تتطابق المرجعية مع القيادة تطابقاً تاماً لأن المحور العلمي المطلوب في القيادة موجود في المرجعية بدرجة اوضح بوصف ان المرجعية ظاهرة علمية قبل كل شيء.

ولا نجد هذا التطابق في الواجهات الأخرى التي تزعم لنفسها صفة القيادة. فالعسكريون والرأسماليون والشخصيات الحزبية واجهات ثلاث طرحت نفسها في عالم اليوم كواجهات قيادية. وهي ان كانت تتسم بالعلم إلا انها لم تجعل العلم المحور الاساسي في وجودها كما فعلت المرجعية وهناك فرق نوعي آخر.

فالعلم الذي تتسم به هذه الواجهات يتمثل في ثقافة عامة تحيط بظروف العصر وملابساته. بينما العلم الذي تقوم على أساسه المرجعية هو العلم بالقانون الاجتماعي والتخصص بالشريعة التي يراد تطبيقها. وهو أكثر تماساً مع وظيفة القيادة من الثقافة العامة التي يطلب من المرجعية كذلك الإلمام بها فالمرجعية قيادة تشترك مع القيادات الأخرى في ضرورة الالمام

بظروف العصر وافكاره وملابساته وتنفرد عنها فيما هو الجانب العلمي الاساسي في القيادة المتمثل بقانون المجتمع وشريعته وايديولوجيته.

ولعل هذا أفضل رد يمكن الرد به على فكرة فصل الدين عن السياسة وأفضل دليل يمكن تقديمه لإثبات ان المرجعية تحل أزمة القيادة التي نشأت بسبب الادعياء الذين زعموا لأنفسهم صفة القيادة فعانت الأمة كثيراً من صراعاتهم وانشغالهم عن آداء الوظائف الحقيقية للقيادة فان انسياب الأمة نحو المرجعية واذعانها المسبق بها كقيادة طبيعية وتبلور القائد بأقل ما يمكن من الضجيج والصراعات والحزبيات يوفر مشروعاً رائعاً للقيادة السياسية.

ومن عرضنا هذا لخصائص خط المرجعية وامتيازاته يتبين لنا انها من ناحية اساسية خصائص وامتيازات فريدة تجسد سمو الاسلام على ما سواه من الحضارات لكننا وجدنا حالات سلبية طرأت بشكل جانبي على هذه الخصائص وقللت من اهميتها خاصة في الجانب الاصلاحي من حركة المرجعية ومع اننا نعتقد بان هذه الحالات جاءت نتيجة لظروف وملابسات موضوعية إلا انها لا تستعصي على الحل فمن الممكن معالجتها والحد منها اذا ما كانت هناك مرجعية مؤسسية قائمة على أساس البرمجة والتخطيط بحيث تعمل على تنمية الخصائص المذكورة لها ومكافحة الاعراض السلبية الناشئة بشكل جانبي.

الأسس الجديدة

وأخيراً دخلت المرجعية مرحلة جديدة وأصبح يتحتم عليها مواجهة الواقع ومعالجة كل تفاصيله بشكل مناسب او الانزواء عنه والتراجع الى الوراء، ربما كان الهروب عن الواقع امراً ممكناً في المرحلة السابقة لكنه في المرحلة الراهنة صار يعني وفاة المنظومة الدينية، في المرحلة السابقة لم تكن المنظومة الدينية تقود الواقع فكان يمكنها الهروب من مسؤولياته تحت غطاء ما تصبه من اللعنة عليه والبراءة منه.

لكنها أصبحت اليوم بشكل أو بآخر قائدة له. وعليها ان تثبت كفاءتها في هذا الدور أو تقبل بالتحول الى الحالة الفاتيكانية، ان المرجعية الاسلامية تواجه اليوم تحديات خطيرة لأن الانتصار الساحق الذي حققته على الغرب من خلال الثورة الاسلامية أمر لا يمكن للغرب نسيانه ولا نتوقع منه اهماله.

فالاتهامات والشبهات وإثارة الافكار المنحرفة ودس العملاء وإثارة الخصومات الداخلية بشكل أو بآخر حالات ينبغي الحذر منها، وتحديات لا شك انها تمثل تياراً غريباً رائجاً في مواجهة المرجعية.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فان ضعف المركز النجفي وعوامل داخلية اخرى تشكل مشكلة مهمة تعاني منها المرجعية في مرحلتها الراهنة ومن جهة ثالثة فان الوضع الدولي الجديد للاسلام أصبح يتطلب من المنظمة الدينية

مهاماً كبيرة في النوع والحجم ويشغل كاهلها بمستلزمات لا تجد أزاءها خياراً غير الاستجابة لها. فهناك الحاجة الى مد الدولة بالكوادر الحوزوية الكفوءة وباعداد كبيرة وفي مستويات عمل الدولة كافة والحاجة الى التبليغ والمبلغين في الداخل والخارج وهناك الحاجة الاساسية لتطوير حركة الفكر في المجتمع والدولة.

ومن جهة رابعة هناك المهمة الرسالية التي أصبح عليها ان تؤديها أزاء العالم بأسره فالانفتاح الواسع النطاق الذي يعيشه العالم اليوم بشكل عام نحو الاسلام يلقي على منظومتنا الدينية مهمة الاستجابة لمتطلباته الفكرية والاجتماعية خاصة وان بعض مناطق هذا الانفتاح يمثل بيئة عريقة بالفكر والثقافة.

كل ذلك يجعل منظومتنا الدينية في ظرف حساس للغاية يصعب على الفرد الواحد مهما أوتي من قدرة فكرية الإلمام به فضلاً عن معالجته. وهذا ما يجعل الباحث يعتقد ان قضية المرجعية تمثل اليوم القضية الاولى في حياة اتباع أهل البيت عليهم السلام في العالم وينبغي عليهم ابداء أعلى درجات الحرص والمسؤولية والعطاء أزاءها وان بداية الطريق للارتفاع بها الى مستوى الظرف الدقيق الذي تجتازه تتمثل بإقامة مؤتمر اسلامي عام يحضره المفكرون والخبراء والعلماء من ذوي السابقة في العمل والاخلاص والتضحية من اتباع أهل البيت عليهم السلام في العالم لدراسة الطور الجديد والصيغة الجديدة التي ينبغي إعادة تأسيس المنظومة الدينية في ضوءها والتي تستجيب للشروط والمتطلبات الجديدة.

لقد درسنا قبل قليل خصائص خط العلماء وتبين لنا في الأخير ان طبيعة الهيكلية القائمة ونتيجة لسلبيتها أدت الى تحويل الخصائص الايجابية الى خصائص سلبية. وفي المرحلة الراهنة نلاحظ ان هذه الهيكلية تحول دون ظهور أية ايجابية من الايجابيات التي يختزنها خط المرجعية وانها إذا

تواصلت ستنتهي الى التآكل والانقراض لانها في مرحلة الشيخوخة التي تختفي عندها الطاقات وتكثر فيها العلل والامراض.

وهكذا فان التجديد في بناء المنظومة الدينية يعني بالنسبة للجميع مسألة موت أو حياة والمشاركة فيها وظيفة الجميع كل حسب قدرته واستطاعته. وينبغي ان لا تعطل طاقة يمكنها المشاركة، تحت أي ذريعة، ما دامت تنطلق من الحرص والاخلاص والدرجة المناسبة من الخبرة والدراية.

البناء الجديد

وبشكل أولي يمكننا ان نطرح ما نرجح صحته من التطورات بشأن البناء المستقبلي المطلوب وهي ان البناء الجديد ينبغي اقامته على أساسين جديدين هما:

أولاً: الأساس الاجتماعي المتوازن للفقه.

فلقد ولد الفقه الامامي في ظروف سياسية ضاغطة يرفض فيها الحاكم هذا الفقه ويحاربه والمدلول العلمي لهذا الرفض كان يتمثل من جهة الحاكم بمنع ظهور وصياغة متكاملة للفقه تتناول الفرد والمجتمع معاً.

ومن جهة الفقيه الامامي في عدم الحاجة الى مثل هذه الصياغة فتألف اجماع من الحاكم والفقيه الامامي على مصادرة الجانب الاجتماعي للفقه والاقتصار على الجانب الفردي وبمرور الزمن تبلورت النزعة الفردية التي تُمنهج البحث الفقهي في ضوء حاجات الفرد ومسائلة فقط ولما استفردت هذه النزعة بالفقه أخذت تتسرب الى الشريعة وأخذ الفقيه ينظر للشريعة من الزاوية الفردية وكأنها بنيت هي الأخرى على هذا الأساس.

ونتيجة لهذه الولادة غير المكتملة. وتمادي عصور الابتعاد عن التطبيق أصبحت النزعة الفردية وكأنها الحالة الطبيعية في الفقه بحيث اختفت الكثير من الابعاد الاجتماعية وعاد الفقيه يعاني في معالجته للابعاد الاجتماعية التي تستعصي على الفهم الفردي. وهو ما تغلب عليه بوسائل متعددة منها الحيل الشرعية، فتم تذويب تلك الابعاد من خلالها لصالح الابعاد الفردية المستفحلة.

وما جرى للفقه جرى مثله للاصول والاخلاق أيضاً لكن الفقه يبقى المثال الاكثر بروزاً في هذا المجال.

وربما ساعد على هذه النزعة ان الفترة الممتدة ما بين حياة الامام الباقر عليه السلام وغيبة الامام المهدي عليه السلام وهي فترة مهمة من عصر النص عاشت الظروف ذاتها وتركت أثارها على النصوص. وحينما تبلور الفقه وقام بدراستها لم يفهمها كنصوص طرحت في جو خاص، ولم يدرس أثر هذه الخصوصية عليها بل تلقاها على واقعها كما هو. ومن الطبيعي أن يكون أثر هذه النزعة على الفقه كبيراً جداً، فان الشريعة في مجالها الدنيوي قانون ينظم العلاقة بين الفرد والمجتمع والروح الاجتماعية هي الاساس في كل قانون ومصادرة هذه الروح تعني مصادرة الجانب الاساسي منه وهذا لا يعني ان الفقه طيلة هذه العصور لم يكن شرعياً وأن ما حصل كان انحرافاً عن الشرع ليس الأمر كذلك.

فان الصورة التي توصل إليها الفقه في ظل تلك الظروف كان تجسيداً مشروعاً بحكم مشروعية الاجتهاد. لكنه ليس التجسيد الوحيد، لقد انعكست أثار هذه النزعة على ابواب واسعة في الفقه كالزكاة والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فانعكست على منهجية البحث الفقهي وكيفية تقسيم أبواب الفقه وسنقتصر على ذكر ثلاثة نماذج منها:

١ - الخمس:

ذهب المشهور الفقهي الى ان الخمس فريضة مالية يؤديها المكلف للمجتهد والسادة ذرية الرسول الأعظم محمد ﷺ دون الالتفات الى ان اعطاء فئة اجتماعية محدودة نصف الخمس من موارده السبعة المقررة أمر لا يتناسب مع حاجات تلك الفئة فان فقراء السادة في العالم يمكن اشباع حوائجهم بخمس مكاسب سوق بغداد فقط كما يقول الامام الخميني في كتابه الحكومة الاسلامية، فإذا اشبعت حوائجهم أين نمضي بالباقي إذا كان مقرراً لهم فقط؟

ولو تصورنا ان العالم باجمعه طبق الاسلام يوماً فهل عليه ان يدفع نصف الخمس من أرباح مكاسبه وكنوزه ومعادنه وغوصه. . . الخ الى فقراء السادة. هل يعقل مثل هذا التصور في شريعة هي أكمل الشرائع؟

ان هذا التصور من نتائج الفقه الفردي الذي لا يوزان بين الفرد والمجتمع. ومنه تتولد نتائج فردية أخرى كالشأنية. حيث يدعى ان المساواة ليست هي الاساس في توزيع الخمس على السادة المستحقين له بل الشأنية هي الأساس. فمن كان شأنه امتلاك السيارة يعطي سيارة ومن ليس له هذا الشأن لا يعطى.

وهذه الشأنية قابلة للنمو كما ان البسط على المستحقين غير واجب في التوزيع فمن الممكن اعطاء ذي الشأن الرفيع سيارة فارهة تتناسب وشأنه وان كان محتاجاً لها وحرمان بقية المستحقين من الحقوق التي اجتمعت في تلك السيارة فقط.

وعارضت هذا الاتجاه آراء حديثة اعتبرت الخمس فريضة يؤديها المكلف للمجتهد بما هو الحاكم الشرعي وولي الأمر فيصرفه على حاجات

الدولة واغراضها ويعزل منه حصة للسادة يتم تحديدها في ضوء الحاجة والظروف. ليكون ذلك عوضاً عن الزكاة التي حرموا منها وقد تبنى هذا الاتجاه الامام الخميني في كتابه «الحكومة الاسلامية» والجزء الثاني من كتاب «البيع» وتبناه آية الله الشيخ المنتظري في الجزء الأول من كتابه «فقه الدولة الاسلامية» وكتاب «الخمس»، كما تبناه الشيخ فياض الدين الزنجاني في كتابه «ذخائر الامامة» المنشور في ثلاثينات القرن الميلادي الحالي.

٢ ـ الحيل الشرعية:

ان الحيل الشرعية بشكل اجمالي مبدأ غريب في الحياة القانونية، وسواء أكان هناك جانب موضوعي في نشأته ام لا وسواء أقام على أساس نصّي ام لا.

فمما لا شك فيه ان النزعة الفردية لعبت دورها في ظهوره والمثال البارز لذلك نلمسه في مسألة الربا. حيث شدد القرآن الكريم على حرمته وتوعد القائم به بحرب من الله ورسوله. ومع هذه الشدة يلجأ اتجاه كبير في الفقه الى حيلة يتم من خلالها التخلص من الحرمة. لا نناقش في مشروعية هذا الفقه فانه مشروع بمشروعية الاجتهاد لكننا نجده معبراً عن فقه فردي يخلو من الحس الاجتماعي الذي بنيت حرمة الرِّبا عليه بشكل أساس. وقد تمت مصادرة هذا الحس من خلال مبدأ الحيل الشرعية. ولذا نجد الفقه الذي يواكب الحس الاجتماعي يرفض الحيل الشرعية. كما هو الأمر في فقه الامام الخميني «قدس سره»[1].

٣ ـ منهجية البحث الفردي في الفقه:

ومن نماذج هذه المنهجية زج الفقه الفردي لمسألة ولاية الفقيه ذات

---

(١) الإمام الخميني/ كتاب البيع، ٢: ٤٠٣ـ ٤١٦.

القوام الاجتماعي في نهايات وذيول الابحاث الفردية ويبدو ان الفقه الفردي عانى في اختيار الموضع المناسب لها في ابواب الفقه وحتى الآن لم يهتد الى ذلك فتارة توضع في ذيول بحوث التقليد والاجتهاد واخرى في ذيول مسألة الصوم وحكم الحاكم بالهلال. وثالثة في أطراف بحث الحج ورابعة في القضاء، وخامسة في البيع، وكأنها من فضول البحث الفقهي.

فيما قام الفقه الاجتماعي المتوازن بوضعهما في باب مستقل تحت عنوان «فقه الدولة الاسلامية» كما فعل آية الله الشيخ المنتظري، اما الامام الشهيد الصدر فقد أوجد تقسيماً جديداً كلياً للفقه يتكون من أربعة أبواب رئيسية فقط. القسم الرابع منها سماه باحكام السلوك العام يدرس فيه الفقه السياسي الاسلامي وسلوك الحاكم.

ان حركة الفقه مدعوة الآن الى تأسيس جديد وابعاد جديدة يمكن من خلالها استيعاب المتطلبات. وقبل المباشرة بذلك لا بد من دراسة السلبيات التي تعتري حركة الفقه في واقعه الراهن واهمها النزعة الفردية ليصار الى دراسة سبل التخلص منها والأسس الجديدة اللازم اتباعها بدلاً عن ذلك[١].

ثانيا: الإساس القيادي للمرجعية:

وما حصل للفقه حصل للمؤسسة الدينية ايضاً. فقد وجد الفقهاء الاوائل بعد وفاة الامام الحسن العسكري عليه السلام في منتصف القرن الهجري الثالث ان الفقه السني والمؤسسة الدينية السنية مرّ عليها زمن طويل تكونت

---

(١) أنظر ملحق الاتجاهات المستقبلية في حركة الاجتهاد. بقلم الامام الشهيد محمد باقر الصدر في نهاية الكتاب.

فيه وقطعت اشواطاً في البناء من خلاله، فيما يريد الفقه الامامي التكون والتبلور حديثاً في صياغات منهجية، وذلك لأن عصر التشريع انتهى بالنسبة للمدرسة السنية بوفاة النبي الاعظم ﷺ ومنذ ذلك الحين شرعت هذه المدرسة بالظهور بينما لم ينته عصر التشريع ولم يبدأ عصر الفقه في المدرسة الامامية إلا في أوائل القرن الرابع الهجري بعد انتهاء الغيبة الصغرى للامام المهدي عليه السلام فقامت المدرسة الامامية على أساس علمي بحت ووجدت وظيفتها في صيانة تراث الأئمة وصياغته وفق مناهج البحث الفقهي يستحثها شعور قوي بضرورة مسابقة الزمن ومواكبة ما وصلت إليه المدرسة السنية وبفضل هذا الاساس وانجازات العلماء الكبار الأوائل استطاعت المدرسة الامامية ان تخطو خطوات واسعة الى الامام وتكوّن لنفسها تراثاً صار يضاهي التراث السني بعد فترة قليلة بحيث انعكس على الجانب السياسي والاجتماعي وأخذ المذهب الامامي يتوسع بالمراد وأبرز معالم ذلك ما حصل على يد العلامة الحلي في القرن الثامن الهجري عندما استبصر الشاه «خدا بنده» على يديه وصار اعتناقه للمذهب بداية لتحول ايران واعتناقها له. وفي القرن الثالث عشر الهجري اكتسبت المدرسة الامامية ابعاداً واسعة جداً حيث تطورت الحوزة العلمية في النجف الاشرف في تراثها الفكري وكيانها الاجتماعي تطوراً كبيراً جعلها المركز العلمي الأول في العالم الاسلامي قاطبة.

وغني عن البيان ان هذه المكتسبات عززت الأساس العلمي الذي قامت عليه الحوزة العلمية. وهو أساس يتناسب في مدلوله النفسي مع النزعة الفردية التي لمسناها قبل قليل في الفقه الامامي. ومعنى هذا ان النزعة الفردية تسربت الى المرجعية الأمر الذي الغى الأساس القيادي الذي لو أقيمت عليه المرجعية لكانت أكثر زخماً وفاعلية مما حصل.

وكما تدعو الضرورة الآن الى الغاء النزعة الفردية من الفقه تدعو كذلك

الى الغاء الاساس العلمي للمرجعية واحلال الاساس القيادي محله بوصفه الأساس الطبيعي لها دون ان يعني ذلك الاقلال من مكانة العلم وشأنه في الحوزة. فالعلم هو الاساس في حركة المرجع قبل بلوغه المرجعية فإذا بلغها اصبح الاساس في حركته هو القيادة ومسؤولياتها أزاء الرسالة والأمة.

ولقد بين الامام الشهيد محمد باقر الصدر في اطروحة المرجعية الصالحة الطابع الفردي الذي اتسمت به المرجعية في أدوارها المختلفة. واطلق عليها اسم المرجعية الذاتية ونادى بطور جديد اسماه المرجعية الموضوعية. وهي ما يمكننا تلخيصه بالاساس التقليدي الذي ينبغي ان تقوم عليه المرجعية. فأن الخصائص والوظائف والاهداف التي نسبها الامام الشهيد للمرجعية الموضوعية مستخلصة جميعاً من الاساس القيادي للمرجعية. كما ان خصائص المرجعية الذاتية ناشئة من الاساس العلمي الذي قامت عليه المرجعية في أدوارها الماضية والنزعة الفردية التي يترجمها في الواقع العملي. ولقد بينا في فترة سابقة ان فترة الدعوة الى تطوير واقع المرجعية تمثل آخر تطور بلغته في سيرها الارتقائي الحديث. ويمكننا القول الآن بان الامام الشهيد الصدر هو الرائد لهذه الفترة حيث قدم اطروحة عن مرجعية جديدة كانت في غاية المتانة والدقة، وقد سمى هذه المرجعية بالمرجعية الصالحة والموضوعية وذلك في الكراس الخاص بها. وسماها بالمرجعية الرشيدة في بحث لمحة فقهية عن مشروع دستور الجمهورية الاسلامية، فهل انهما مرجعية واحدة ام مرجعيتان احداهما مرجعية للمذهب والثانية مرجعية الدولة؟

وعلى فرض التعدد هل هناك اطار جامع بينهما؟ إستفهامات فوّت علينا القدر المشؤوم فرصة تحصيل الاجابة عنها من منظّر المرجعية القائدة «رضوان الله عليه» ولكننا اليوم وبظل دستور الجمهورية الاسلامية والتعديلات الأخيرة التي أجريت عليه أصبحنا في غنى عن البحث في

مرجعية الدولة والنظام وأصبحت الحاجة ماسة الى البحث في المرجعية المعبرة عن الطائفة والمذهب من الجهات التالية:

١ ـ طبيعة العلاقة بين النظام الاسلامي والمرجعية وكيفية تقسيم الوظائف الاسلامية بينهما وحدود الصفة التمثيلية لكل منهما وكيفية إقامة نظام متقن للتكامل فيما بينهما بالادوار والمهام.

٢ ـ الطبيعة والشكل المؤسسي لجهاز المرجعية القائدة وكيفية اقامته كواجهة تمثل اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام في العالم وتدافع عن قضاياهم وتؤدي وظائفها تجاههم. في ظل الظروف الدولية والسياسية السائدة اليوم.

٣ ـ إعادة بناء نظم التدريس ومناهج الدراسة بما يتوافق مع المهام الجديدة التي أصبح على المرجعية القيام بها أزاء النظام الاسلامي والمجتمع الشيعي والمسلمين والبشرية بصورة عامة. وينسجم ذلك مع طبيعة التحديات الداخلية والخارجية التي تواجهها الآن والتي قد تواجهها في المستقبل.

٤ ـ البحث في وسائل ايجاد نظام اداري متقن ينسق الاعمال الداخلية لأجهزة المرجعية ومؤسساتها.

٥ ـ البحث في وسائل الارتفاع بالمستوى التدريسي والتربوي لطلاب العلوم الدينية. ومدى الحاجة الى تطبيق نظام التخصص في الدراسة والى خبراء في علوم غير دينية تتطلب عملية الاجتهاد والاستنباط وجودهم في كيان المرجعية. والبحث في مدى الحاجة الى تدخل الحوزة العلمية في إعطاء هذه الصفة الرسمية والقانونية لمنتسبيها بدءاً من الطالب البسيط وانتهاءً بالمجتهد. وسحب هذه الصفة عنهم عندما يتطلب الأمر ذلك. وذلك للحيلولة دون ظهور أفراد غير جديرين بالصفة الروحية منذ بدء الانتساب او بعد فترة من تحققه.

٦ ـ تنظيم الموارد المالية للحوزة من الوجوه الشرعية كافة على أساس

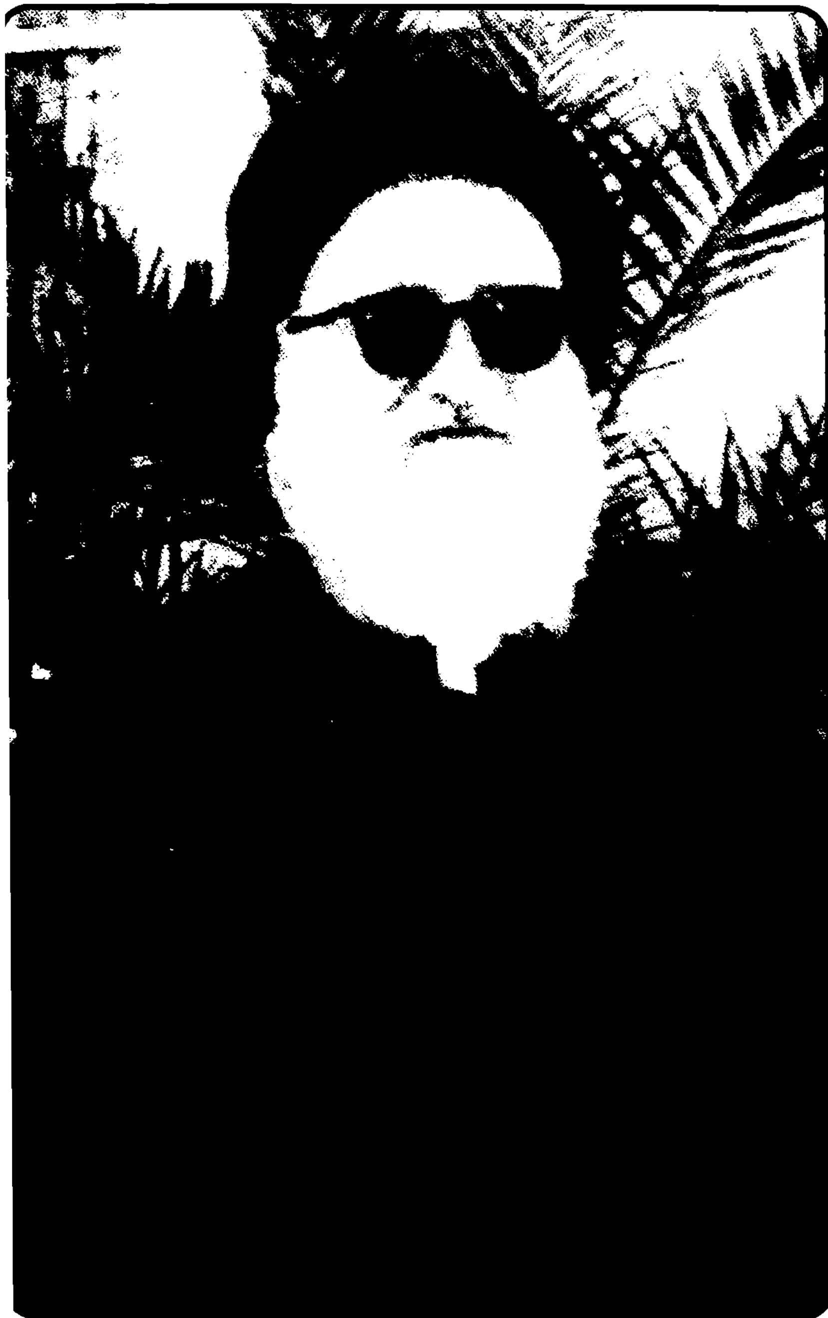
نظام متقن يحرص على ان لا يتم الصرف إلا في أكثر المجالات خدمة وأداء أفضل للوظيفة وتحقيقاً لأعلى ما يمكن من الهدف في بقاع العالم الاسلامي كافة.

٧ ـ كيفية حل مشكلة تقليد الأعلم وتعيين المرجع الاعلى للطائفة. والبحث في وسائل الارتفاع النوعي والكمي بالفقه ليكون مشبعاً لحاجات العصر وظروفه.

وغير ذلك من الجهات الاساسية والضرورية.

طليعة التحديث الاسلامي

السيد هبة الدين الشهرستاني



السيد هبة الدين الشهرستاني

يتشكل الفكر الاسلامي من عنصرين أساسيين: الحقيقة الإلهية المطلقة والفهم البشري لها المقيد بشروط معينة وضعت لضمان استقامة هذا الفهم على خط الحقيقة الإلهية، العنصر الاول ثابت، وهذا سر خلود الرسالة الاسلامية، والعنصر الثاني متغير وهذا ما يجعل الرسالة الخالدة حية وفاعلة وليس خلودها جموداً مفروضاً على الزمان والمكان، العنصر الاول يوضح الحكم والعنصر الثاني يشخص موضوعه الذي تتغير ملامحه بين ظرف وآخر، العنصر الاول يضمن الهية الخط واستقامته وأصالته، والعنصر الثاني يضمن استيعاب الرسالة للمتغيرات، العنصر الأول لا يقبل الاجتهاد والعنصر الثاني متقوم بالاجتهاد وبوعي المتغيرات.

وخلاصة هذه الفروق بين العنصرين توضح ان التحديث ضمن الاصالة يمثل ضرورة ايديولوجية في حركة الاسلام وتقلبه في آفاق الزمان والمكان، وان الأصالة التي تقتضي الثبات على الحقيقة الألهية المطلقة تقتضي في الوقت نفسه متابعة المتغيرات وذلك ان الجمود على فهم ثابت لأمور متغيرة أمر ينافي الأصالة والمنطق معاً.

ومن أجل ذلك نهض عدد من العلماء الكبار بمهمة التحديث المستمر للفكر الاسلامي، ويأتي آية الله السيد هبة الدين الشهرستاني في طليعة عصر التحديث الفكري الجديد للاسلام.

دور النشأة والتكوين:

في اسرة عريقة بالعلم والأدب والتقوى ولد السيد محمد علي المعروف بـ «هبة الدين» بن الحسين بن محسن الصراف في سامراء يوم ٢٤ رجب ١٣٠١ هـ (نيسان ١٨٨٤ م) يرتبط نسبه عبر ثلاثين واسطة بزيد الشهيد ابن الامام زين العابدين عليه السلام وقد عُرف بالشهرستاني نتيجة مصاهرة والده (آل الشهرستاني) في كربلاء، فلحقه لقبهم وعُرف ولده بذلك ايضاً[(١)] وكان والده انتقل من كربلاء الى سامراء في أيام إقامة آية الله السيد محمد حسن الشيرازي هناك، فنشأ السيد هبة الدين بين والد يمحضه اهتمامه وعنايته ووالدة عُرفت بالعلم والأدب[(٢)] ولها آثار تدل على أنها من الشاعرات الفاضلات[(٣)] وسيكون لها دور كبير في صقل مواهبه العلمية والأدبية وفي جو تهيمن عليه الانفاس الثورية للمجدد الشيرازي فراح يرتضع عزة الدين وهو يرى مشاهد ركوع الغرب على اعتاب هذا القائد الاسلامي الفذ، وبعد وفاته في ١٣١٢ هـ (١٨٩٤) انتقل الشهرستاني مع والده الى كربلاء ليبدأ الشوط الدراسي الاول في حياته، فدرس الفقه والأصول والكلام

---

(١) الطهراني، آغا بزرك. نقباء البشر ج ٤ ص ١٤١٤.

(٢) العلوي، محمد مهدي، نابغة العراق او هبة الدين الشهرستاني ص ٧.

(٣) الخاقاني، علي. شعراء الغرى ج ١٠ ص ٦٦.

والرياضيات. وتشاء الأقدار إرتحال والده الى جوار ربه في ١٣١٩ هـ (١٩٠١) فوفد عليه المعزّون من مختلف الانحاء وكان السيد مرتضى الكشميري من جملتهم فدار الكلام بينهما حول جملة من المسائل الفكرية التي تبين للسيد الكشميري من خلالها عمق وسعة مدارك جليسه ذي الثماني عشرة سنة فحبذ له الهجرة الى النجف الاشرف لمواصلة التحصيل العلمي هناك، فاعتذر السيد هبة الدين، إلا أن السيد الكشميري عاود عليه الطلب في لقاء ثان فاستخار الله تعالى فخرج له قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[1] ومن الصدفة ان والدة السيد هبة الدين كان اسمها مريم[2] فأثرت هذه الآية في نفسه واقنعته هذه الاستخارة الغريبة بالهجرة الى النجف فهاجر اليها في شعبان ١٣٢٠ هـ (١٩٠٣) وانكب على التحصيل العلمي في أندية مرموقة كدرس آية الله الخراساني وآية الله اليزدي وشيخ الشريعة الاصفهاني، والسيد مصطفى الكاشاني «والد السيد أبو القاسم الكاشاني) والسيد علي الداماد، حتى بلغ درجة الاجتهاد بشهادة عدد من اساتذته كالسيدين الكاشاني والداماد المتقدم ذكرهما[3] والى جانب الفقه والاصول، درس الاخلاق والفلسفة.

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٠.
(٢) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٦٧.
(٣) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ٩.

هموم التحديث

وفي أوائل إقامته في النجف الأشرف حمل السيد هبة الدين هموم التحديث والتجديد الفكري واختار لنفسه طريقاً مزدحم الجانبين بالمعارضين كما هو شأن المصلحين الكبار الذين تكون منهم أنفسهم في تعب وأممهم في راحة، ويمكن تلخيص حركته هذه بالنقاط التالية:

١ ـ ربط الأندية الثقافية العراقية بالعالم الخارجي:

كانت المكانة المرموقة التي تحتلها حواضر النجف وكربلاء وبغداد العلمية مشوبة بسلبية الانقطاع عن العالم الخارجي وعدم الاطلاع على ما يدور فيه من تطورات ثقافية وعلمية، فاندفع السيد هبة الدين لمعالجة هذا الجانب، فاتصل في السنين الثلاث الاولى من إقامته في النجف «بصحف القاهرة وانديتها العلمية ومطبوعاتها التي صدرت ترد عليه بكثرة مع فقدانها عند غيره، فتجمع عليه المتعطشون من ابناء العلم الذين حجبت عنهم..»[1].

---

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٦٧.

ومن الاقطاب الذين اتصل بهم الشيخ محمد عبده وصاحب مجلة الهلال والشيخ محمد رشيد رضا وصاحب مجلة المقتطف وكان يراسلهم ويربط من خلال ذلك النجف بسوريا ومصر[١].

٢ - إصدار مجلة [العلم]:

إتاحت له خطوته السابقة إقامة اتصالات واسعة مع اقطاب الفكر خارج العراق وبالاخص مثقفي مصر، وأصبح بامكانه تلبية الطلب الذي تقدم به اليه جملة من الشباب المتيقظ الملتف حوله باصدار مجلة علمية سياسية، فاصدر مجلة «العلم» سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠) وهي أول مجلة صدرت في النجف وقد أرخ الحجة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء صدورها بابيات شعرية منها:

هبة الدين اتـــانا	بعلوم مستفيضـــة
وله التاريخ اهدى	طلب العلم فريضة

وأسس للمجلة مكتبة عامة يرتادها العلماء والأدباء من مختلف الطبقـات والأعمار[٢] وقد ركّز في مجلته على رد الشبهة القائلة بتناقض العلم مع الدين وهو ما أدى به الى خوض غمار الكفاح على جبهتين جبهة المتزمتين من أدعياء العلم ودعاة التغريب الذين بلغ ايمانهم الافراط والتأليه الفـارغ، وجبهة الخرافة التي الصقت بالدين وهو منها براء والمنهج الذي حدد لنفسه في هذا الطريق كان يتمثل بربط العلوم الحديثة بالدين لا

---

(١) العلوي محمد مهدي، مصدر سابق ص ١٠.
(٢) الطهراني، انما بزرك، مصدر سابق ص ١٤١٥.

العكس[1].

والى جانب ذلك نحا فيها منحا اصلاحياً لم يألفه الناس من قبل[2] واستمر في اصدارها سنتين كاملتين بصورة شهرية ولعبت هذه الفترة القصيرة دوراً كبيراً في الهاب حركة الوعي الديني المتجدد، يقول المؤرخ علي الخاقاني: «كانت اعدادها كالشواظ تلهب النفوس وتوقظ الغافلين من ذوي المواهب، وحام حوله فريق ممن نما الوعي فيه واكتمل فساندة على نشرها وكان صداها في العالم الاسلامي والعربي يتردد بقوة كما كانت تصل الى أبعد الحواضر الغربية، وكانت كمدرسة تعلم الشباب معنى الجهاد والعمل ومبادلاتها التي تأتيها من كتب ومجلات من مختلف الدنيا لها ابلغ الاثر في تغذية نفوس الشباب الحر الذي انعزل عن الدنيا ولم يعرف ما يجري فيها فكان فضل «العلم» ان اتصل بالعالمين الشرقي والغربي اتصالاً فكرياً وسياسياً وانبثقت آراء له حرة جريئة انعكست اصداؤها على الخارج ما دعا انه تلقب النجف بمدينة الاحرار وان يُستفاد بها كأداة صالحة لقلب مبادىء وخلق دول حرة تستند على الشورى والرأي ونبذ الاستبداد[3] ويقول عبد الله فياض ـ مؤرخ عراقي آخر ـ عنها ايضاً «انها من أشهر مجلات ذلك العصر» وقد بلغت من النضج والرصانة درجة لا يستهان بها[4] كما اثنى على مجلته ايضاً الشيخ محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار[5].

---

(١) الوردى، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج ٣ ص ١٠.
(٢) العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، المجلد العاشر ص ٢٦١.
(٣) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٦٨.
(٤) الاسدي، حسن، ثورة النجف ص ٦٤.
(٥) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ٢٤.

٣ ـ تحريم نقل الجنائز من الأماكن البعيدة:

يحرص الشيعة على نقل موتاهم الى النجف الاشرف ليدفنوا هناك على مقربة من أمير المؤمنين عليه السلام كتعبير عن الولاء والحب له، وهناك روايات عن ائمة أهل البيت عليهم السلام في فضل تربته عليه السلام والدفن فيها.

ومن ناحية كلية لا اشكال في صحة هذا السلوك واستحبابه شرعاً غير ان العامة من الناس تطرفوا فيه، كما هو شأنهم في مثل هذه الأمور وأخذوا ينقلون موتاهم الى النجف وهم في الاماكن البعيدة عنها بحيث يتطلب وصولهم الى النجف فترة طويلة تؤدي الى هتك حرمة الميت وتفسخ جثته وصدور الروائح النتنة منها خاصة وان وسائل النقل آنذاك كانت بدائية. وهنا تصدى السيد هبة الدين الشهرستاني لمعالجة هذه الظاهرة غير الشرعية فأفتى في عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) بحرمة نقل الجنائز من الأماكن البعيدة الى النجف الاشرف، وطالب الفقهاء في عصره بإيقاف الناس على حقيقة الأمر، فأصبح مثلاً يحتذى في الجرأة في مواجهة اخطاء المجتمع، وحيث أن الأمر مسّ العواطف الفارغة بالصميم لذا كان عليه ان يواجه الاتهام بالزندقة، بل والتعرض للاغتيال[١].

٤ ـ اصلاح الشعائر الحسينية:

في أواخر العشرينات من القرن الميلادي الحالي ظهرت حركة اصلاح الشعائر الحسينية بقيادة السيد محسن الأمين العاملي وقد أحدثت ضجة وهيجة في المجتمع الشيعي واستطاعت رغم قوة المعارضين لها أن تؤتي بعض ثمارها، وفي تلك الآونة وقف السيد هبة الدين الشهرستاني الى جنب

---

(١) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ٢ ص ٢٠٥.

هذه الحركة وآزرها بكل ما يملك من جرأة واقدام لأنه وجد فيها اتجاهاً معبراً عما يجيش في نفسه ويلتمع في صدره من النزوع الاصلاحي والتجديدي، فافتى بحرمة ضرب القامة على الرؤوس ودعا الى نبذ التقاليد المخلة بحقيقة النهضة الحسينية كضرب السلاسل على الظهور، ووضع كتاباً مهماً باسم «نهضة الحسين عليه السلام» استخلصه من أوثق المصادر وحلل فيه هذه الحركة العظيمة بعيداً عن الخرافات والاباطيل، وفي الشطر الأخير من حياته حيث اقامته الأخيرة في الكاظمية استطاع ان يغير تقاليد اليوم العاشر من المحرم ومراسيمه من ضرب القامة والسلاسل الى اقامة حفل كبير تتلى فيه اسرار نهضة الحسين من قبل اعلام الكتّاب والشعراء وثابر على ذلك سبعة اعوام كانت نتائجها تملأ المجلات والصحف وتوجد الكتب القيمة في الموضوع نفسه ومن نتائجها الاعداد الهامة بذكرى الحسين لمجلة ـ والكلام للمؤرخ على الخاقاني ـ البيان»[1].

لكن المغرضين استطاعوا بعد ذلك الغاء السيرة الجديدة والعودة الى السيرة القديمة فلجأ السيد هبة الدين الى بيته محتسباً جهوده عند الله سبحانه وتعالى، ويكفيه انه ادى ما وجب عليه وان له الفضل في كف ضرب القامة في ايران[2].

٥ ـ تأسيس المدارس والجمعيات الاسلامية:

في عام ١٣٣٠ هـ (١٩١١ م) قام السيد الشهرستاني برحلة طويلة طاف فيها عدداً من البلدان الاسلامية، كسوريا ولبنان ومصر والحجاز واليمن والبحرين وعمان، كما زار الهند ومكث فيها أكثر من عام وتطلع اثناء ذلك

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٧٤.
(٢) الخليلي، جعفر، مصدر سابق ص ٨.

على أحوال المسلمين وتعرف على أوضاعهم، وقد ركز في كل المحطات التي توقف فيها على ضرورة العودة الى الاصول الدينية الصحيحة والتمسك بالمعارف والعلوم والتسلح بالوعي، ملهباً حماس الشباب ضد التحديات الصليبية المحدقة بالوطن الاسلامي الكبير من كل جهة وقد أسس الجمعيات الاسلامية والنوادي وأصدر الصحف في أكثر المدن التي مرّ بها كما التقى بـالعلمـاء والشبـاب المسلـم وتبـاحـث معهـم حـول شجـون المسلميـن وشؤونهم[1].

٦ ـ ارسال أول بعثة علمية عراقية الى الخارج.

اثناء توليه وزارة المعارف في الحكومة العراقية المؤقتة قام بارسال أول بعثة علمية عراقية الى أوروبا وسوريا[2]

٧ ـ تربية الجيل الاسلامي:

وحرص السيد الشهرستاني أشد الحرص على تنشئة الجيل المخلص من الشباب تنشئة اسلامية مقرونة بالمعارف الحديثة وكانت له حلقة دراسية في جامع الطوسي في النجف الاشرف يدرس فيها مبادىء العلوم الحديثة[3] وأول ما قام به في النجف تدريس البلاغة والفلسفة والهيئة والعقائد والفقه والاخلاق، وقد استطاع بشخصيته الاخاذة وملكاته الرفيعة اجتذاب شباب الاسر العلمية الشهيرة كآل الجواهري وآل كاشف الغطاء وآل الشبيبي وآل

---

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٦٨.
(٢) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ١٦.
(٣) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٦٧.

الجزائري وغيرهم، إضافة الى العديد من طلاب الحوزة الايرانيين والهنود[1] ومن تلامذته المعروفين الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ جعفر النقدي والسيد سعيد كمال الدين وبعد انتقاله الى كربلاء ساهم في إيجاد حركة فكرية في أوساط الشباب وكان يلقي المحاضرات في التفسير.

٨ ـ تأسيس مكتبة الجوادين العامة:

وبعد انصرافه عن المسؤوليات الرسمية واختياره الكاظمية مقراً أخيراً لاقامته، قام في عام ١٣٦٠ هـ «١٩٤١» بتأسيس مكتبة الجوادين العامة في الصحن الكاظمي الشريف، وقد أولاها عنايته الفائقة حتى غدت من أكبر المكتبات العراقية وبفضل نشاطاته المكثفة تحولت الى ملتقى ثقافي يرتاده العلماء والأدباء، ويلقي فيه السيد الشهرستاني محاضراته في التفسير وعلوم القرآن، ومركز سياسي يلتقي فيه سماحته مع الشخصيات السياسية العراقية وغيرها، وكانت ترده على عنوان مكتبته الاسئلة المختلفة في الفقه والتفسير والهيئة والتاريخ من مختلف الاوساط الثقافية في العديد من البلدان الاسلامية ويجيب عليها وقد جمعت بعض الأجوبة وطبعت في كتب خاصة.

---

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٨١.

في معركة الإصلاح السياسي:

في عام ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) دخل السيد هبة الدين معترك الحياة السياسية وكان له من العمر يومذاك (٢٣) عاماً وذلك أبان بلوغ الحركة الدستورية الايرانية ذروتها وبروز استاذه آية الله الخراساني كقائد أعلى لها، فانضم الى تيارها وبدأ يشارك في نشاطاتها وباندفاع وحماس شديدين وهو الذي لقّب الامام الخراساني بـ «أبي الحرية» وتحور هذا اللقب فيما بعد الى «أبي الاحرار» وكان قائد الحركة في طهران السيد محمد الطباطبائي يرتبط نَسبياً بالسيد الشهرستاني باعتبارهما ابناء عمومه، فصار حلقة الوصل بين النجف وطهران وفي أوائل عام ١٩٠٨ أصبح عضواً في هيئة العلماء التي شكلها الدستوريون في النجف لادارة حركتهم السياسية[١] وله مذكرات حول الحركة دونها الأديب علي الخاقاني ضمن ترجمته للسيد الشهرستاني[٢].

رجل الجهاد والثورة:

وحضر آية الله الشهرستاني ساحات الجهاد ومعارك الشرف ضد

---

(١) الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق ص ١٤٧.
(٢) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٨٠ ـ ٩٠.

الاحتلال الاجنبي وخاضها كأقوى المجاهدين وأكثرهم حماساً، وأول المعارك التي شارك فيها معركة الدفاع ضد الاحتلال الروسي لاذربيجان الايرانية حيث كان من أبرز الخطباء الذين الهبوا حماس الجماهير وعملوا على تعبئة الرأي العام العراقي ضد هذا العدوان في عام ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م)[١]. ثم قام برحلته الطويلة الى عدد من البلدان الاسلامية التي دامت اثنين وعشرين شهراً فخرج من النجف في رمضان ١٣٣٠ هـ (ايلول ١٩١٢) ورجع اليها في رجب ١٣٣٢ هـ (حزيران ١٩١٤)[٢].

وعند عودته أخذ يقص على مريديه وتلامذته مشاهداته السياسية والاجتماعية في البلدان التي زارها مثيراً فيهم روح الحماس ضد الاخطار المحدقة بالمسلمين وكانت ارهاصات الحرب العالمية الاولى آخذة بالظهور، ولما بدأت في أوروبا استشعر العثمانيون الخطر منها وأخذوا يعدون العدة لاحتمالات وصولها الى المنطقة الاسلامية.

ويبدو أن نشاطات السيد هبة الدين السياسية والفكريّة خصوصاً رحلته الطويلة الى عدد من البلدان الاسلامية أثارت انتباه السلطات العثمانية وحسستها بشخصية سياسية وعلمية محنكة وكبيرة يمكنها ان تلعب دوراً مهماً في انقاذ الدولة العثمانية من المأزق الحرج الذي تعيشه خاصة وانه كان من الداعين الى التمسك بالخلافة العثمانية في مواجهة التحديات الغربية، فقام قائمقام النجف بزيارة خاصة الى السيد الشهرستاني وابلغه برقية وصلته من والى بغداد يعرض فيها الوالي رغبته على السيد هبة الدين بالمجيء الى بغداد للتداول معه في أمر مهم فاستجاب السيد الشهرستاني للطلب وسافر للقاء الوالي الذي سرّ إليه ان الحرب الالمانية الانجليزية بدأت في أوروبا وطلب منه المشورة في تدبير مناسب يمكن من خلاله المحافظة على العراق فيما لو

---

(١) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ٣٤.
(٢) الخاقاني، علي، مصدر سابق ص ٦٩.

وصلت الحرب الى المنطقة الاسلامية وقام احد الطرفين المتصارعين بالاعتداء على العراق، فأبدى السيد الشهرستاني الخطة التي كان يراها مناسبة[١].

وفي أوائل محرم ١٣٣ هـ (تشرين الثاني ١٩١٤ م) ومع نزول اول كتيبة انجليزية في الفاو ـ جنوبي العراق ـ ورفع العلم البريطاني هناك تحرك السيد هبة الدين نحو ساحات الجهاد وشارك في معارك الجناح الايمن ـ الشَّعَيبَه ـ الذي كان بقيادة السيد محمد سعيد الحبوبي وفي طريقه الى المعركة مرّ بعشائر الفرات ونادى فيها الى الجهاد والتحق به جمع غفير منهم، وقد سجل مذكرات عن هذه المعركة وأسباب انكسار المجاهدين فيها في مخطوط خاص اسماه (الخيبة في الشَّعَيبَه).

---

(١) هناك روايتان مختلفتان حول بداية هذه الرحلة ونهايتها، الاولى رواية الأديب المؤرخ علي الخاقاني في الجزء العاشر من كتابه «شعراء الغري» ص ٦٨، حيث يرى ان الرحلة دامت ثلاث سنوات وانها بدأت من أوائل ١٣٣٠ هـ وانتهت في رمضان ١٣٣٣ هـ ووافقه على ذلك المحقق أغا بزرك الطهراني في نقباء البشر «الجزء الرابع ص ١٤١٥، الثانية رواية السيد محمد مهدي العلوي في كتابه «نابغة العراق» ص ٢١ حيث يرى ان السيد الشهرستاني خرج من النجف في رمضان ١٣٣٣ هـ وعاد إليها في رجب ١٣٣٢ هـ فتكون مدة الرحلة اقل من سنتين، وهي الاصح لأنها تتوافق مع تواريخ الأحداث اللاحقة من احداث الجهاد، ومشاركة السيد الشهرستاني فيها، فمن المعروف ان الجهاد ضد الاحتلال البريطاني للعراق اعلن في منتصف محرم ١٣٣٣ هـ، واذا أخذنا برواية الخاقاني يكون السيد الشهرستاني قد دخل العراق بعد مرور سبعة أشهر ونصف على الجهاد. وهذا ما لا يقولهُ الخاقاني نفسه، فقد ثبّت في الصفحة ٦٩ من المصدر المذكور ان السيد الشهرستاني تحرك للجهاد في محرم ١٣٣٣ هـ وان السلطات العثمانية تشاورت معه في وسائل حماية العراق من هجوم بريطاني محتمل قبل تحقق الاحتلال وقبل ان تصل نيران الحرب العالمية الاولى الى البلدان الاسلامية خلال الاشهر الأخير من عام ١٣٣٢ هـ كان موجوداً في العراق وهو ما يطابق رواية السيد العلوي.

وبعد انكسار المجاهدين رجع الى النجف ولكن سرعان ما عاودت السلطات العثمانية الاتصال به طالبة منه رسم خطة جديدة للجهاد فاستجاب لهم ايضاً ونفذت الخطة وكان النصر حليف المجاهدين هذه المرة(١).

وبعد سقوط بغداد انتقل الى كربلاء ليبدأ هناك مرحلة جديدة من النشاط الجهادي ضد الاحتلال، وصادف ذلك انتقال آية الله الميرزا محمد تقي الشيرازي من سامراء الى كربلاء من أجل قيادة حركة المقاومة الاسلامية والاعداد للثورة، ولما استشعر الميرزا الشيرازي في منتصف عام ١٩١٩ م ضرورة تأسيس مجلس استشاري يستعين به على إدارة الأمور بادر إلى ذلك وتم تشكيل المجلس بعضوية عدد من العلماء الكبار كان السيد هبة الدين في مقدمتهم، واضافة الى ذلك كان يرأس مكتب الثورة في كربلاء(٢) ويشارك في نشاطات الجمعية الاسلامية التي أسسها الشيخ محمد رضا الشيرازي نجل قائد الثورة، في كربلاء.

وتشير الدلائل التاريخية الى ان السيد الشهرستاني كان يحظى بمكانة خاصة لدى قائد الثورة ولذا كان الميرزا الشيرازي يوفده للقيام بالاعمال الضرورية ويعتمد عليه في الاحداث المهمة، ففي منتصف عام ١٩٢٠ وقبل نشوب الثورة ذهب السيد الشهرستاني والشيخ احمد الخراساني بايفاد من قائد الثورة الى الحاكم الانجليزي العام (ولسن) ليعرضا عليه مطاليب الشعب، وابان الثورة اوفدهما ثانية اليه للغرض نفسه، وفي أواخر ذي القعدة ١٣٣٨ هـ (آب ١٩٢٠) أوفد قائد الثورة السيد الشهرستاني خاصة الى الثوار ليبلغهم رغبة القيادة في قطع الاتصال بين الحلة وبغداد(٣).

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٠.
(٢) آل فرعون، فريق المزهر، الحقائق الناصعة، ص/ ٨٢.
(٣) المصدر نفسه ص ٢٩٥.

وله مساهمات ميدانية وقيادة مباشرة للعمليات العسكرية في جبهة الحلة[١] وفي مؤتمر كربلاء الذي عقده عدد من العلماء ورؤساء العشائر للمداولة في أمر الثورة وذلك في منتصف شعبان ١٣٣٨ هـ (أيار ١٩٢٠) كان السيد هبة الدين أحد المشاركين فيه كما عُين رئيساً للمجلس العلمي الذي شكله قائد الثورة بعد تحرير كربلاء في ذي القعدة ١٣٣٨ هـ تموز ١٩٢٠ ويظهر دوره في الثورة أكبر وعمق علاقته بقائدها في البيان الذي أصدره بمناسبة وفاة الميرزا الشيرازي والذي يعزى المسلمين فيه بهذا الخطب الفادح الذي أثر في عزائم الثوار وادى ضمن اسباب اخرى الى سقوط كربلاء بايدي الاحتلال مرة ثانية فالقي القبض على السيد الشهرستاني والسيد ابو القاسم الكاشاني والشيخ محمد الخالصي وآخرين، وزجّوا في سجن الحلة تسعة أشهر لم يتخل اثناءها عن رسالته بل واصلها بالقاء الدروس والمحاضرات على من كان معه بحيث حوّل السجن الى مسجد[٢].

الشهرستاني وزيراً

في ذي الحجة ١٣٣٩ هـ (آب ١٩٢١) قام الحاكم السياسي في كربلاء بابلاغ السيد الشهرستاني نبأ اعتزام الأمير فيصل زيارة كربلاء بعد النجف وذلك في أيام ترشيحه للعرش، متمنياً عليه الحضور في الحرم الحسيني لمقابلته.

فحضر ضمن من حضر من العلماء وما كاد الأمير فيصل يعود الى بغداد حتى أرسل اليه رسالة يطلب منه قبول منصب وزارة المعارف العراقية

---

(١) الرهيمي، عبد الرحيم، مصدر سابق ص ٢٢٦.
(٢) الخليلي، جعفر، مصدر سابق ج ٢ ص ٢٠٥.

مما يدل على اشتهار أمره في العلم وذيوع صيته في الفكر والثقافة آنذاك، ومن المؤكد انه انفرد من بين علماء عصره ومصلحيه بشدة الحرص في مجال بناء المدارس والاهتمام بها، وقد خلف آثاراً مهمة منها مدرسة الجامعة الاسلامية في مدينة العمارة في العراق وكان يحث الناس للتبرع لها واستطاع ان يجمع من تبرعات اهالي هذه المدينة ٥٠٠ ليرة عثمانية لتسيير شؤون المدرسة[١]، من هنا وجد السيد الشهرستاني ان تولي وزارة المعارف سيتيح له اسداء خدمات جيدة للمجتمع العراقي، وابعاد بعض جوانب الغزو الفكري الغربي عنه فوافق على الأمر بتشجيع من بعض العلماء وبدافع الحرص على تربية النشىء الجديد تربية اسلامية صحيحة[٢] ودخل الوزارة ليحارب من جديد على جبهتين جبهة استقلال الوزارة عن الادارة البريطانية وجبهة بناء أسس صحيحة للتعليم في العراق، وعلى الجبهة الاولى حارب المناهج الاستعمارية التي كانت توحي اليه في مجال التعليم ورفض احلال الرموز والشعارات الانجليزية محل الشعارات الوطنية والاسلامية، بل واقدم على عمل جريء جداً هو فصل المستشار البريطاني «كبتن فاول» من الوزارة[٣] وفي الجبهة الثانية قام بعدة انجازات في مجال بناء المدارس، كما قام بتأسيس مجالس المعارف في مراكز المحافظات وسن لهذه المجالس قانوناً صَدّقَهُ مجلس الوزراء، ووزع منشوراً على الأهالي يطلب منهم التبرع للمشاريع التعليمية فجمع من ذلك ٣٠٠ الف روبية كما قام بارسال أول بعثة علمية الى خارج العراق، وأمر باداء الصلاة في جماعة في دار المعلمين[٤]

---

(١) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ١٣.

(٢) الطهراني، أغا بزرك، مصدر سابق ص ١٤١٦.

(٣) كان من مقررات الحكم البريطاني في العراق تعيين مستشارين في الوزارات والمحافظات يقومون بدور التوجيه والاشراف على اعمال الوزراء والمسؤولين في المدن.

(٤) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ١٥.

كل ذلك في فترة محدودة تقرب من سنة واحدة فقط.

ولكنه وجد نفسه أخيراً مضطراً الى الاستقالة نتيجة لتبلور فكرة نظام الانتداب لدى الانجليز وتبنّي الحكومة العراقية له وعدم امكانية التأثير في موقفها هذا، فقدم استقالته من الوزارة بتاريخ ذي الحجة ١٣٤٠ هـ (١٤ آب ١٩٢٢) وكتب في نص الاستقالة «ان شعبنا العراقي الكريم الذي جاهد في سبيل تكوين حكومته الوطنية لا يهدأ روعه إلا إذا وجد حكومته حرة في اعمالها»(١) وتكريماً لخدماته في الوزارة وضع المحامي عبد الحسين الكاظمي كتاباً باسم «سر تقدم المعارف» ضَمنَهُ سيرة السيد الشهرستاني وانجازاته على صعيد وزارة المعارف، وبعد هذه الاستقالة ترك السيد الشهرستاني مباشرة السياسة وان ظل على تماس معها في بعض الحالات فقد اعترض على مؤتمر السلام المنعقد في برلين سنة ١٩٥٠ لأن ندائه الأخير تضمن الدعوة الى عقد ميثاق بين الدول الخمس الكبرى مطالباً سحب هذه الدعوة والتعويض عنها بالدعوة الى وحدة بشرية عامة(٢).

الشهرستاني قاضيا:

بعد انسحابه من وزارة المعارف طلب منه الملك فيصل الاضطلاع باعباء مجلس التمييز الجعفري، فرفض لكن اصرار الملك وعدد من العلماء الذين وجدوا فيه الرجل اللائق الذي يمكنه القيام بخدمات جيدة للقضاء الشرعي، الجأه الى الموافقة أخيراً، وكان الحاكم العسكري في كربلاء قد عرض عليه تولي القضاء في عام ١٩١٩ لكنه رفض، فتولاه اخيراً شريطة رفع

---

(١) الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الوزارات العراقية ج ١ ص ٨٩.
(٢) الشهرستاني، هبة الدين، حلال المشكلات ص ٤٢.

درجة القضاء الجعفري من نواب قضاة الى قضاة ولما نفذ طلبه باشر مسؤوليته الجديدة بدءاً من عام ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣) وما كاد هذا العام ينتهي حتى فاجأه القدر بفقد بصره لكنه بقي يؤدي هذا الدور مدة اثني عشر عاماً. لافتقار السلطات اليه، وأخيراً أجهده العمل، وأحس بصعوبة مواصلته مع هذه الحالة الصعبة فقدم استقالته، بعد ذلك تولى تمثيل اهالي بغداد في البرلمان.

الشهرستاني مفكراً:

وللشهرستاني دور كبير آخر لا بد من ذكره فقد كان مفكراً كبيراً قدم خدمات جليلة للفكر الاسلامي عبر (٢٨) كتاباً ورسالة مطبوعة عدا الـ (٢٣٤) كتاباً ورسالة غير المطبوعة توزعت موضوعاتها بين الفقه والاصول والتفسير والعقائد والتاريخ والاخلاق وأهم كتبه على الاطلاق كتابه (الهيئة والاسلام) الذي ظهرت طبعته الاولى في عام ١٣٢٧ هـ (١٩٠٩ م) أي عندما كان عمره (٢٦) سنة فقط وقد حدد اغراضه منه باربعة أمور هي، إثبات عدم ايمان الاسلام باقوال الفلكيين والفلاسفة الاقدمين حول الكون والفلك فإذا سقطت اقوالهم لا يكون ذلك سقوطاً له، واتمام الحجة على مفكري الرسالة الاسلامية من أهل الديانات الاخرى وتنزيه ساحة النبي ﷺ عن الزعم القائل بانه كان ترجماناً لآراء غيره من الفلاسفة وعلماء أهل الكتاب واعطاء التفسير المناسب للنصوص الدينية التي اعطاها القدماء شرحاً منافياً لمعطيات العلوم الحديثة[١] وقد شهد عدد من العلماء الكبار بفضل هذا الكتاب ومنزلته كآية الله الشيخ كاظم الخراساني والشيخ محمد رشيد رضا[٢] وشيخ الشريعة

---

(١) الشهرستاني، هبة الدين الهيئة والاسلام المقدمة ط ١٩٦١.

(٢) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق، انظر هذين التقريضين ص ٤٤.

الاصفهاني[1] ومجلة المقتطف المصرية، وقد ورد في تقريض شيخ الشريعة قوله «ان هذا الكتاب صار همزة الوصل بين القديم والجديد»[2] وقالت مجلة المقتطف آنذاك «ان هذا الكتاب لو يترجم الى لغة غربية يوقع دوياً في الاندية العالمية»[3].

الشهرستاني أديباً:

كان السيد هبة الدين أديباً ايضاً ينظم الشعر ويوظفه لاغراضه الفكرية والرسالية والوطنية، فقد دعا الى نبذ الفوارق والامتيازات غير الصحيحة في قصيدة كان منها:

وطني الارض وقومي البشر   اينمـــا كانوا وممن ظهروا
نحن في النوع جميعاً واحد   شكلنـــا ـ يجمعنا والصور
مـــا استفدنـــا من نزاع بيننـــا   واستفاد الغاصب المستعمـــر

وفي مجال الحث على العلم والتسلح بالمعرفة نظم قصيدة جاء فيها:

العلم تاجي ومنهاجي ومستندي   ومذهبي العلم بل شيخي ومعتمدي
اداتـي العلـــم اقضي ما اريد بـــه   والعلم حصني وسيفي ساعدي عضدي

---

(١) تبريزي، علي واعظ، علماء ومعاصرين، ص ٢٠٧.
(٢) الشهرستاني، هبة الدين، مصدر سابق، مقدمة المؤلف.
(٣) المصدر نفسه.

الرسالي الكبير:

وكان آية الله الشهرستاني رسالياً كبيراً حمل هم الرسالة وسعى الى نشرها ودعوة الغير اليها وقد وفق في هذا المجال الى ادخال عدد كبير من غير المسلمين في الاسلام ففي سنة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢) اسلم على يديه خضوري الموصلي وكان يهودياً. وفي عام ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩) اسلم يوسف بطرس ـ ايراني ـ ورمزة بنت جورج ـ سورية ـ على يديه ايضاً، كما اسلم البرهمي كلماني مسرا بعد مباحثات كلامية معه جرت في عام ١٣٣٦ هـ (١٩١٧).

وسلك الى هذا الهدف سبلاً مختلفة منا المناقشات والمحاضرات والمراسلات ومن النتائج التي جققها بالمراسلات تحول عائلة المانية الى الاسلام حيث كان سماحته يراسل هذه العائلة منذ بداية الحرب العالمية الاولى يوم دخل الاتراك الى جنب المانيا في الحرب ووصل القائد العسكري الالماني «فوت غولنج» الى بغداد سنة ١٩١٥ للاشراف على العمليات العسكرية فاقام السيد هبة الدين علاقة معه ونظمت لقاءات اسبوعية بين الطرفين حتى اسلم اخيراً هو وعائلته واصبح داعية الاسلام في الغرب على

حد تعبير السيد الشهرستاني (قدس سره)[1].

وقد كانت الصحف اليابانية تنشر معارف الاسلام ومفاهيمه نقلاً عن مؤلفات السيد الشهرستاني بعد ترجمتها وذلك منذ عام ١٣٢٨ هـ (١٩١٠) وواصلت ذلك عدة عقود من الزمن.

مزاياه ومكانته:

تحدث الاديب والمؤرخ علي الخاقاني عنه قائلاً: «عرفته منذ زمن بعيد جداً وسره انه الملجأ للشباب الحائر والموئل للاحرار» ويقول عن مصاحبته له في زيارته الى ايران «عجبت من نفسيته الكبيرة التي تجلت في زيارة المسؤولين له في الدولة الايرانية وعدم اكتراثه بسطوتهم» ويذكر انه في تلك الزيارة التي تمت في عام ١٣٦٥ هـ (١٩٤٥) زاره رئيس الوزراء حسين علاء فقابله كما يقابل ابسط اصدقائه، ويروى ان اهالي المدن التي مر بها في هذه السفرة خرجوا في استقبال عظيم له، اضافة الى الاستقبال الرسمي فيها ـ وفي مكان آخر يقول عنه انه: «من اشهر مشاهير الشرق ومن الاعلام الذين سرى ذكرهم الى الغرب مشغوفاً بالاكبار»، وانه لم يستغل مكانته الاجتماعية الخطيرة بامتلاك ارض او عقار»[2].

وقال عنه احد اطبائه الذين اشرفوا على علاج عينيه «ان وراء هذه العين عقلاً كبيراً فعلى العقول الكَبيرة ان يهتموا بها لمنفعة البشر»[3].

---

(١) الشهرستاني، هبة الدين، مصدر سابق، ص ٢٣.
(٢) الخاقاني، علي، مصدر سابق، ص ٧٣ ـ ٧٥.
(٣) العلوي، محمد مهدي، مصدر سابق ص ٦٠.

وفاته [قدس سره]

يتحدث الشيخ أغا بزرك الطهراني عن الايام الاخيرة من حياة السيد الشهرستاني مشيراً الى ما حل بمداركه وذاكرته من ضعف حتى عاد لا يعرف زواره إلا بعد حين مما عز على احبابه ومخلصيه فقللوا من زيارته وظل على هذه الحالة حتى توفاه الله في ٢٦ شوال ١٣٨٦ هـ (١٩٦٧) وشيع جثمانه تشييعاً مهيباً.

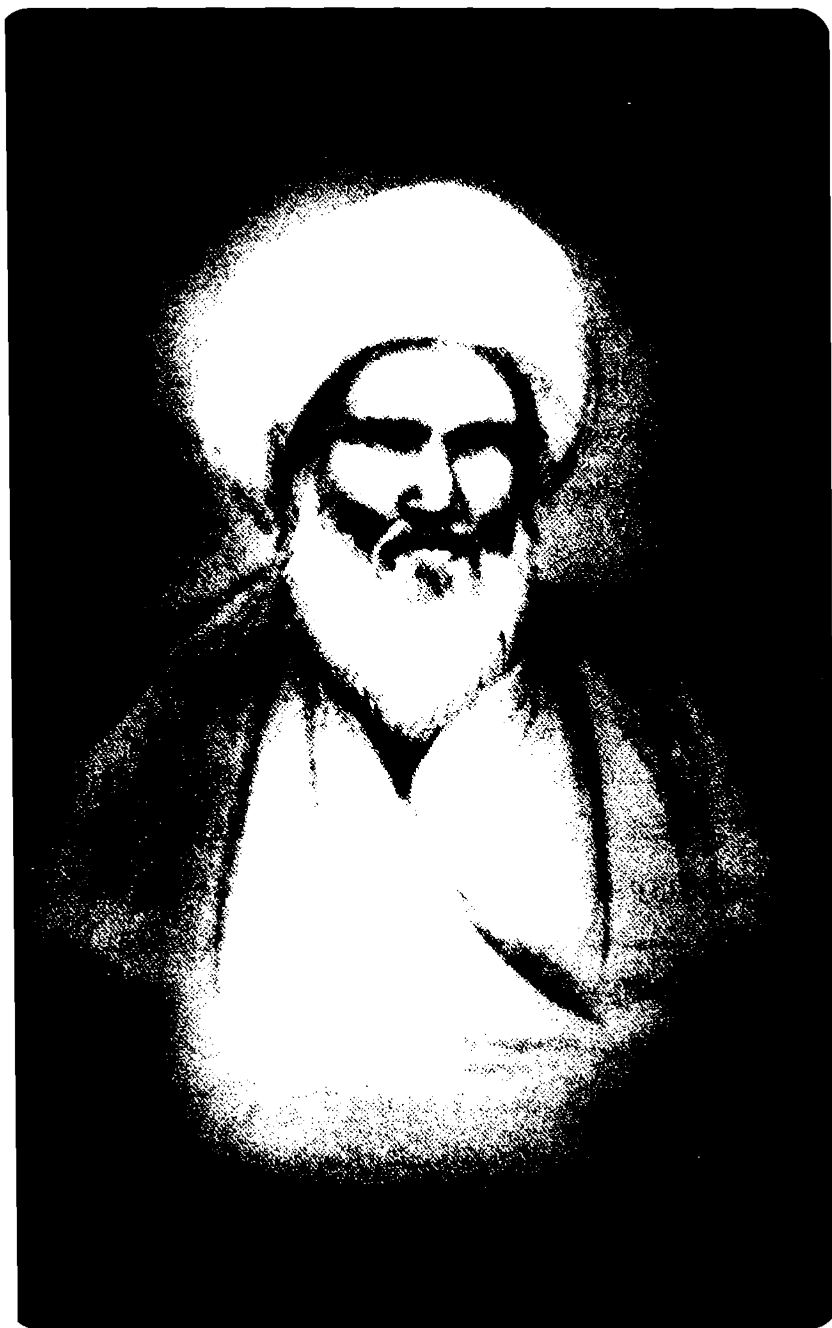
ودفن في الكاظمية وأقيمت له الفواتح في مدن العراق وايران[١].

---

(١) الطهراني، أغا بزرك، مصدر سابق ص ١٤١٦.

قائد الاصلاح السياسي

الإمام الشيخ محمد كاظم الخراساني



الإمام الشيخ محمد كاظم الخراساني

يؤكد العلمانيون على الربط بين الدين والنظام الثيوقراطي وكأنه حتمية في كل دين، متجاهلين ان هذا الربط لا يحظى حتى بشاهد واحد من التأريخ. والنموذج التقليدي الذي أسسوا عليه هذه الحتمية النكدة هو الكنيسة ودورها في دعم اباطرة أوروبا خلال القرون الوسطى. مع انها تمثل نفسها فقط، ولا تمثل الدين المسيحي الحقيقي.

ان الدين يقوم بشكل أساس على حاكمية الله ورفض الحاكميات الأخرى. وفي الواقع السياسي لا تتجسد حاكمية الله في فرد بعينه كما تقتضي نظرية التفويض الألهي التي يبتنى عليها النظام الثيوقراطي وانما تتجسد في خط عام والفرق بين الصورتين كبير جداً وأكثر ما يتجلى في القدسية المترشحة عن التجسيد. فان تجسد حاكمية الله في فرد، يحوله الى ذات مقدسة تفعل ما تشاء دون حق لأحد في الاعتراض عليها او المساس بها، كما حصل في اوروبا في العصور الوسطى بينما لا يعرف الدين ذاتاً مقدسة، ويرى القدسية للخط والنظرية فقط، بما هي معبرة عن حاكمية الله واذا اعتبرنا المعصومين عليهم السلام ذواتاً مقدسة فلانهم التجسيد الامثل للخط الالهي، والتاريخ الاسلامي المعاصر خير شاهد على رفض الاسلام للثيوقراطية فقد تزعم المرجع الديني الشيخ محمد كاظم الخراساني في أوائل القرن الميلادي الحالي، الحركة الدستورية الايرانية وساند الحركة الدستورية التركية، مطلقاً شرارة الاصلاح السياسي في المجتمع الاسلامي المعاصر ومؤكداً على أسس الشورى والعدالة وسيادة القانون في المجتمع.

دور النشأة والظهور

ولد الشيخ محمد كاظم بن حسين الخراساني في مدينة مشهد المقدسة سنة «١٢٥٥ هـ ـ ١٨٣٩ م» في اسرة دينية معروفة بالصلاح، وكان والده تاجراً للحرير من أهل هرات وقد عُرف بحبه للعلم والعلماء، مما اتاح لابنه نزوعاً شديداً في هذا الاتجاه، فقد توجه منذ أوائل حياته الى التحصيل العلمي، فبدأ بدراسة المقدمات وواصلها حتى بلغ الثالثة والعشرين من عمره، فأحسّ في نفسه توقاً شديداً الى سلوك هذا الطريق حتى نهايته، ان كانت له نهاية، ولم يكن لهذا الاحساس معنى سوى الرحيل الى النجف الاشرف فغادر مدينته سنة «١٢٧٧ هـ ـ ١٨٦٠ م» وفي طريقه مرّ بمدينة سبزوار وحضر دروس الفيلسوف الكبير ملا هادي السبزواري مدة خمسة أشهر ثم توجه الى طهران وأقام فيها فترة من الزمن وواصل اثناءها دروس الفلسفة عند كبار علماء طهران، ولم يكن في هذه الفترة ناسياً لقصده الذي سافر من أجله ولم ينثنِ عنه بل ان عدم توافر المال الكافي للوصول الى النجف، هو الذي جعل سفرته تطول مدة سنتين، وكادت ان تطول أكثر لولا ان الله سبحانه وتعالى يسر له سبيلاً الى المال فعندما كان الشيخ مقيماً في مدرسة الصدر في طهران، يفكر في الحل الذي يحقق له امنيته بلغه ان هناك اموالاً شرعية يمكنه ان يستفيد منها مقابل التعهد بأداء الصوم والصلاة عن عشرين عاماً نيابة عن صاحب المال المتوفى، فالتزم الشيخ بهذا التعهد

وتسلّم المبلغ الذي كان عبارة عن مائة تومان فقط[١].

وأثر ذلك غادر طهران متوجهاً الى النجف، حتى دخلها في عام «١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ م» وكانت المرجعية فيها يومئذ للشيخ الاعظم مرتضى الانصاري فحضر دروسه في الفقه والأصول مدة عامين، وبعد وفاته (رض) في عام «١٢٨١ هـ - ١٨٦٤ م» لازم درس الامام السيد محمد حسن الشيرازي الكبير مدة عشر سنوات، كما حضر دروس العلامة الشيخ راضي النجفي في الفقه، وفي عام «١٢٩٢ هـ - ١٨٧٥ م» انتقل استاذه المجدد الشيرازي الى سامراء وانتقل اغلب طلابه معه إلاّ الشيخ الخراساني فانه واصل الاقامة في النجف واستقلَ بالتدريس[٢] وقيل انه سافر مع استاذه الى سامراء ولكن استاذه طلب منه الرجوع الى النجف[٣].

ونظراً لبراعته في تدريس علم الاصول فقد استطاع ان يستقطب نحوه الانظار ويصبح في فترة وجيزة الاستاذ الاول فيه.

---

(١) الشهرستاني، السيد جواد، مقدمة كفاية الاصول، تحقيق مؤسسة أهل البيت (ع)، ص (١٦).

(٢) العاملي السيد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج ٩ ص ٦، انظر كذلك: محمد حرز الدين، معارف الرجال، ج ٢ ص ٣٢٣.

(٣) الشهرستاني «مصدر سابق» ص ١٨.

مكانته العلمية

بعد وفاة المجدد الشيرازي سنة «١٣١٢ هـ ـ ١٨٩٥ م» برز على صعيد المرجعية الدينية عدد من كبار العلماء كان الشيخ الخراساني أحدهم وما هي إلا سنوات قلائل حتى ظهر سماحته في طليعة المرجعية وكادت تنحصر به الى حين وفاته، وصارت الرحلة اليه من أقطار الأرض على حد تعبير السيد محسن العاملي[١] وانتشر اسمه في كل مكان حتى ان الحاكم العثماني في النجف حضر لديه يوماً وعرض عليه كتاباً بلغه من الاستانة يذكر فيه كاتبه «ان عالماً خراسانياً ظهر في النجف وجدّد معالم من الاصول وانه في هذا العصر كالعضدي في زمانه فأرسل ترجمته وأصوله بقدر ما تستطيع[٢]».

بل ان شيخ الاسلام في الاستانة قدم يوماً لزيارته، فوصل الى مسجد الشيخ الطوسي الذي كان يدرس فيه، فدخل حلقة الدرس وجلس قرب المنبر. وبمجرد ان انتبه الشيخ الخراساني الى وجود شيخ الاسلام في الدرس نقل بحثه الى مسألة «دلالة النهي في الوجوب» وذكر رأي أبي حنيفة القائل فيها بدلالة النهي على الصحة، ثم ذكر الوجوه المؤيدة له مما أثار دهشة شيخ الاسلام من تسلط الشيخ على مباني غير الامامية في الاصول، لكن

---

(١) السيد محسن الأمين «مصدر سابق».

(٢) الشهرستاني «مصدر سابق».

الشيخ سرعان ما فنّد تلك الوجوه حتى وصل الى الرأي المختار القائل بان النهي في الوجوب دليل الفساد، وعند رجوع شيخ الاسلام الى موطنه كان جل حديثه عن سفره يدور حول شخصية الشيخ الخراساني ومنزلته العلمية[١].

ويكفي ان كتابه «كفاية الاصول» أصبح مدار التدريس في المراحل النهائية من الدراسة الحوزوية، منذ صدوره وحتى الآن، وقد عُدّت الشروح والتعليقات التي كتبت حوله بـ «١٩٤ كتاباً»[٢]، يقع كل واحد منهما في عدة اجزاء بلغ المطبوع منها «٢٩» شرحاً.

أما حلقة درسه فقد امتازت على غيرها بالكم والكيف معاً، وتراوحت التقديرات في عدد طلابه بين «١٥٠٠ و ٣٠٠٠» طالب، فيما يقول السيد محسن الأمين، بان الشيخ الخراساني عمر درسه بمئات الافاضل والمجتهدين[٣].

ومن الناحية النوعية يمكننا الاكتفاء بالقول، ان تلامذة الشيخ الخراساني قد تزعموا المرجعية الدينية طيلة الأربعين سنة الممتدة ما بين العشرينات والستينات من القرن الميلادي الحالي، ولئن كان العام «١٩٧٠» قد سجل وفاة آخر خريجي مدرسته وهو الامام السيد محسن الحكيم «قدس سره».

فان مدرسته الفكرية المتمثلة بشكل أساس بكتاب كفاية الأصول لا زالت تهيمن على اجواء الدراسة الحوزوية مقتربة من انهاء قرن كامل.

ومما لا شك فيه ان هذه المكانة الراسخة أتاحت للشيخ الخراساني

---

(١) المصدر السابق، ص ٢٠.

(٢) مجلة نور علم، الدورة الثالثة، العددان ٧ ـ ٨ محرم وصفر ١٤٠٩ هـ.

(٣) السيد محسن الأمين، «مصدر سابق».

قدرة مثالية على التحرك السياسي والاجتماعي الذي اتاح له بدوره مزيداً من النفوذ بحيث وصلت افكاره التحررية الى الهند، وأخذ زعماء حركة التحرير الهندية يتلقونها بالتأييد والتبني[1] أي انها غدت رافداً لابرز حركة تحررية في العالم آنذاك فما هي قصة الاصلاح والتحرر في حياة الفقيه والاصولي الكبير للشيخ محمد كاظم الخراساني؟

---

(١) الخاقاني، علي، شعراء الغري ج ١٠ ص ٨٧ من مذكرات السيد هبة الدين الشهرستاني.

معركة الإصلاح السياسي

ان ثورة التنباك عام «١٨٩١ م» تُعتبر من الأحداث الكبرى التي أيقظت العالم الاسلامي والهمته الوعي السياسي في تأريخه الحديث فقد تنبه المسلمون بفضلها الى الأخطار التي يسببها النفوذ الاجنبي في بلادهم وتحدد في وعيهم طريق الخلاص الوحيد المتمثل بالجهاد وقيادة علماء الدين فبعد انتصار هذه الثورة بقيادة المجدد الشيرازي على ناصر الدين شاه والشركات الانجليزية، انتصاراً ساحقاً التفتت القيادة الاسلامية من بعده الى ضرورة مواصلة طريق التحرر والاصلاح والدخول في مرحلة جديدة منه تتمثل بأصلاح النظام السياسي القاجاري الحاكم في ايران، وجعله يستند الى قاعدة شعبية دستورية محددة بدلاً عن الاستبداد السائد فيه وكان الدافع الى ذلك أمرين كما سيأتي:

١ ـ مكافحة الظلم الحكومي الذي يجد في الاستعمار قاعدة متينة له.

٢ ـ مكافحة النفوذ الأجنبي الذي يجد في الاستبداد قاعدة متينة له ايضاً.

فإذا ما أقيم نظام دستوري أمكن من خلاله الحد من تعديات الدولة بحق الشعب ومن النفوذ الاجنبي في البلاد ويمكن تحديد عام «١٨٩٤ م» على انه بداية ظهور هذا الاتجاه فقد دوّن السيد محمد الطباطبائي «المجتهد

الكبير في طهران»، في مذكراته ما نصه: «جئت الى طهران عام ١٨٩٤ م ومنذ دخولي إليها كنت بصدد تأسيس مشروطة في ايران وتأليف مجلس شورى شعبي، وكنت اتحدث من على المنبر عن هذين الأمرين»[١].

وكان ناصر الدين شاه يعارض هذه الافكار بشدة، وقد صرّح ذات مرة انه يودّ ان يكون محاطاً بماشية من الاغبياء لا يعرفون عن «بروكسل» هل هي مدينة ام نوع من الخس؟[٢].

وفي عام «١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م» اغتيل ناصر الدين شاه، من قبل احد اتباع السيد جمال الدين الافغاني «الاسد ابادي» وعيّن ابنه مظفر الدين شاه خليفة له وقد اتخذ الأخير وسيلة معتدلة أزاء الافكار التحررية التي كانت تشتد يوماً بعد آخر، حيث بادر علماء النجف في عام «١٩٠٢ م» الى إرسال رسالة إليه يناشدونه فيها، اصلاح الحالة السياسية في البلاد وتأسيس مجلس تمثيلي[٣]. الأمر الذي أثار حفيظة رئيس الوزراء «عين الدولة».

وجعله يواصل سياسة الشاه السابق وبقسوة أشد وكانت الحادثة التي فجرت الموقف، تتمثل في ارتفاع اسعار السكر في عام ١٩٠٥ م ارتفاعاً فاحشاً، ولما طلبت الحكومة من التجار التقيد بسعر حكومي حددته لهم. لم يلتزموا به لانه كان مجحفاً بهم، مما دفعها في المقابل الى تأديب بعضهم بـ «الفلقة» امام الملأ.

فقرر الآخرون الالتجاء الى مرقد شاه عبد العظيم باعتباره احدى المناطق الآمنة حسب التقاليد الايرانية، وأخذت اعدادهم تتزايد.

وهنا بدأ الظهور الحاسم لعلماء طهران فقد قرر السيد محمد

---

(١) شبر، حسن، تاريخ العراق السياسي المعاصر، ج ٢، ص ٦١.
(٢) الوردي، علي، لمحات اجتماعية عن تاريخ العراق الحديث، ج ٣ ص ١٠٣.
(٣) شبر مصدر سابق ص ٦٠.

الطباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني والشيخ فضل الله النوري الالتحاق بقافلة الملتجئين، واعلان مطاليب الاصلاح السياسي من هناك وعندها وقعت الواقعة فقد نفذ رئيس الوزراء عدة محاولات عسكرية لضرب المتحصنين، إلا انه لم يحقق نجاحاً يذكر ثم قرر العلماء الثلاثة واتباعهم الهجرة الى قم والتحصن من جديد هناك، مما اضطر الشاه أخيراً الى النزول عند مطاليبهم المتمثلة بشكل أساسي في عزل عين الدولة وتأسيس دار للعدالة «مجلس تمثيلي» وكان ذلك في جمادي الآخرة عام «١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م» وفي الشهر اللاحق أجريت انتخابات لتعيين نواب المجلس الذي افتتح بعد شهر من الانتخابات، كما أعلن الدستور في ذي القعدة «١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م» وبعد عشرة أيام من هذا التاريخ توفي مظفر الدين شاه ليخلفه في الحكم ابنه محمد علي شاه.

الى هنا والشيخ الخراساني يؤدي دوره في الأحداث، كأحد العلماء المعنيين بها في النجف الاشرف وكان يشاطره في تأييدها وتبنيها كل علماء النجف تقريباً، وعلى رأسهم الميرزا حسين خليل والشيخ عبد الله المازندراني، وفي المرحلة التالية تألق نجمه أكثر وظهر دوره الحاسم في الحركة كرمز قيادي فيها، ففي شهر رجب من عام «١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦ م» وصلت الى النجف رسالة موقعة من قبل علماء طهران الثلاثة، يطلبون فيها دعم الحركة ومطالبة الشاه بانشاء مجلس للشورى فتولى الشيخ محمد كاظم الخراساني، بتوكيل من عشرة من كبار المجتهدين الاجابة على هذه الرسالة، وكان مهمة قيادة الحركة اوكلت إليه فكتب ما نصه: «ان قوانين المجلس المذكور على الشكل الذي ذكرتموه هي قوانين مقدسة ومحترمة وهي فرض على جميع المسلمين ان يقبلوا هذه القوانين وينفذوها، وعليه نكرر قولنا ان الاقدام على مقاومة المجلس العالي، بمنزلة الاقدام على مقاومة احكام الدين الحنيف، فواجب المسلمين ان يقفوا دون أي حركة ضد

المجلس[1]».

ومنذ هذا التاريخ صار آية الله الخراساني محوراً للحركة الدستورية، وأبا للحرية والاحرار حسب تعبير السيد هبة الدين الشهرستاني[2].

وحينما بعث اهالي تبريز رسالة الى علماء النجف، يطلبون تعيين واجبهم الشرعي أزاء الاحداث الجارية رد عليهم الشيخ الخراساني برسالة جوابية ذكر فيها:

«ان هذا المجلس يساعد على محو الاستبداد وإزالة العادات الرذيلة ونشر القانون في البلاد.

والخلاصة: المسلمون ملزمون ان يتبعوا الأصول الجديدة في الحكم»[3].

---

(١) الوردي «مصدر سابق» ص ١١٦.
(٢) الخاقاني، شعراء الغربي ج ١٠ ص ٨١.
(٣) الاسدي، حسن، ثورة النجف، ص ٧٠.

الثورة الثالثة

يعتبر بعض الكتاب ان الحركة الدستورية الايرانية انطوت على ثورات ثلاث:

الثورة الاولى كانت ضد مظفر الدين شاه، والثورة الثانية كانت ضد رئيس وزرائه عين الدولة، والثورة الثالثة ضد خليفته محمد علي شاه، وهي أخطر المراحل التي تقهقرت فيها الحركة من الانتصار الى تحديات الشاه الى الانحراف والاحتواء الاستعماريين، فقد اتخذ الشاه الجديد سياسة ماكرة أزاء الحركة الدستورية، وبعد فترة ضئيلة تحول الى العداء السافر، ولأجل الحيلولة دون انفجار الموقف، حاول الشيخ آية الله الخراساني في البدء نصيحة الشاه وتنبيهه الى بعض الأمور المهمة التي ينبغي عليه اعتمادها في سياسته الداخلية والخارجية، وذلك عبر رسالة مطولة ذات نقاط عشر مثّلت بمجموعها المنهج الصحيح للحاكم المسلم[١]، إلا ان محمد علي شاه كان قد تمادى في عدائه للحركة معتمداً في ذلك على الحماية التي توفرها المعاهدة الروسية ـ البريطانية بشأن ايران له، والتي جعلت طهران والقسم

(١) انظر، نص الرسالة في تاريخ العراق السياسي المعاصر «مصدر سابق»، ج ١ ص ٨٦ ـ ٨٩.

الشمالي من ايران تابعاً للنفوذ الروسي وكان الروس يجدون مصلحتهم في الاستبداد وتعطيل الدستور(١) مما حفز قيادة الحركة الى استنفار القوى وتنظيم الجهود، استعداداً للمعركة القادمة، فأعلن في أوائل عام «١٩٠٨ م» عن تشكيل «هيئة العلماء» من «٣٣ عضواً» يمثلون غالبية المجتهدين في النجف الاشرف وذلك لادارة الحركة بشكل منظم وفي خضم الاحداث أعلن عن محاولة لاغتيال الشاه، كأن الشاه نفسه قد دبرها ليتخذ منها ذريعة للانتقام من الحركة الدستورية، وبالفعل اعلن الشاه في «حزيران ١٩٠٨ م» الاحكام العرفية في البلاد وأمر الجيش بقصف المجلس بالمدفعية.

والقي القبض على السيد محمد الطباطبائي والسيد عبد الله البهبهاني، وبعد التعذيب نفي الأول الى خراسان والثاني الى كرمنشاه، وأزاء هذه الأحداث الخطيرة أصدر آية الله الخراساني واثنان من المراجع الكبار هما الميرزا حسين خليل والشيخ عبد الله المازندراني فتوى مشتركة اعلنوا فيها للشعب الايراني المسلم وجوب اسقاط الشاه وحرمة دفع الضرائب الى حكومته، مؤكدين ان مخالفة ذلك تعتبر خذلاناً ومحاربة للامام المهدي عليه السلام(٢).

وفي تشرين الأول عام ١٩٠٨ م أصدر الشاه بيانه الخطير الذي أعلن فيه صرف النظر عن المجلس معللاً ذلك بأن «افتتاح المجلس وتحقير الاسلام شيء واحد»(٣) وهنا ثار العلماء وكتب آية الله الخراساني بخط يده بياناً تهديدياً شديد اللهجة ضد الشاه ما كاد يصل ايران حتى تم تكثيره وتوزيعه في المدن المختلفة مما جعل نيران الثورة تضطرم فيها وقد قال الشيخ الخراساني في بيانه الذي يعتبر وثيقة تأريخية مهمة مخاطباً الشاه:

---

(١) الوردي «مصدر سابق»، ص ١١٣.
(٢) انظر نص الفتوى في تأريخ العراق السياسي المعاصر، ج ٢ ص ٩٠.
(٣) الاسدي، ثورة النجف، ص ٧٠.

«عندما تدعّون مخالفة الشروط[١] للشرع الشريف انما تتجاهلون الحقيقة الدينية الاساس التي تقضي بان تكون العدالة واجبة حتى في الأمور الجزئية ونحن نقول بكل صراحة ليس في المشروطة أية نقطة تخالف الدين الاسلامي بل انها تتفق مع احكام الدين وأوامر الانبياء بخصوص العدالة ورفع الظلم عن الناس، فاترك سند الشيطان وأنشر بياناً آخر، فيه الحرية للناس، واذا حصل تأخر منك عما نطلب فاننا سوف نحضر جميعاً الى ايران، ونعلن الجهاد ضدك، فلنا في ايران اتباع كثيرون والمسلمون كثيرون ايضاً اننا اقسمنا على ذلك»[٢].

سرت هذه الكلمات كالنار في الهشيم، وأخذت تؤجج المشاعر وتحشد الجماهير باتجاه الثورة مما أسفر عن انتفاضة عارمة في العديد من المدن الايرانية الرئيسية.

وفي مواجهته لهذا الموقف الحرج عمد الشاه الى فتح المجال امام القوات الروسية لاحتلال اذربيجان كوسيلة لأرعاب المعارضة. غير ان هذا الاجراء اعطى نتائج عكسية حيث أصبح سبباً لانضمام العلماء المعارضين للمشروطة كالسيد آية الله محمد كاظم اليزدي الى صفوف المعارضة، وأوجد رأياً موحداً ضد الشاه والروس معاً.

وهنا أدرك الروس والانجليز معاً خطورة الموقف فاجتمع السفيران الروسي والانجليزي مع الشاه وطلبا منه الموافقة على اعلان الدستور وافتتاح مجلس الشورى[٣] فامتثل الشاه لرغبتهما واعطى وعدا بالرجوع الى الدستور وافتتاح المجلس إلا ان الثورة عليه كانت قد بلغت اوجها، ففي منتصف عام

---

(١) المشروطة مصطلح فارسي يقصد به الحركة الدستورية.
(٢) الوردي «مصدر سابق»، ص ١١٩ ـ ١٢٠.
(٣) شبر «مصدر سابق» ص ٩٦.

١٩٠٩ م دخل الثوار طهران، وخلعوا الشاه الذي التجأ الى المفوضية الروسية وعينوا نجله احمد شاه خليفة له.

مبادىء الحركة الدستورية الإيرانية

يركز العديد من الكتاب والمؤرخين على وصف ثورة الدستور الايرانية بكونها مظهراً من مظاهر التنافس الروسي ـ البريطاني على ايران، ومع ان هذه حقيقة تاريخية لا يسع الباحث نكرانها، إلا ان موضوعية البحث وضرورة الدقة فيه تقودُ الى التمييز بين المنطلقات الاساسية للثورة في مرحلتها الاولى، وبين النفوذ البريطاني الذي راح يخطط لسرقة الثورة في مرحلتها الثانية، كما هو الشأن في كل الثورات الشعبية في التاريخ المعاصر.

ففي البدء انطلقت فكرة الحكم الدستوري الشوري في اذهان العلماء في طهران والنجف على أساس مفاهيم الاسلام عن العدالة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واقصاء التدخل الاجنبي في شؤون المسلمين تحقيقاً لاستقلالهم السياسي.

ورغم ان الانجليز كانوا منهمكين ببث فكرة مشابهة في تركيا هي فكرة الديمقراطية إلا انهم لم يسمحوا بانتشار الفكرة الدستورية، فقد عارضها ناصر الدين شاه بشدة، ولكن باستفحال الحركة الدستورية وانتصارها الاول في عهد مظفر الدين شاه، نبّه الانجليز الى خطورة الوضع، وضرورة الالتفاف على الحركة وتحويل مسارها من الخط الاسلامي الى الخط الغربي خاصة وان الحركة اصبحت برعاية المرجعية الدينية التي سبق لها ان حققت

انتصاراً باهراً على النفوذ الانجليزي في ايران، وذلك إبّان ثورة التنباك عام ١٨٩١ م، كما تنبه الروس الى ان الحكم الدستوري من شأنه القضاء على فرص النفوذ في ايران، مما جعل الحركة الدستورية تواجه مخاطر التدجين في الداخل وظروف المواجهة الشرسة في الخارج معاً. بل ان اندساس الانجليز في الحركة، فصل عنها جناحاً من المرجعية الدينية، بدافع الاحباط وفقدان الثقة بالمستقبل، وليس الاعتقاد بالاستبداد كما يشيع في أغلب المؤلفات، فقد تخلى آية الله السيد محمد كاظم اليزدي عنها، وانحاز اليه بعض علماء النجف وايران وفي مقدمتهم الشيخ فضل الله النوري الذي كان يوماً ما المحور البارز فيها، فيما واصل بقية المراجع وعلى رأسهم آية الله الخراساني تأييد الحركة الدستورية، حاملين على عواتقهم مهمة مواجهة الاخطار والمنزلقات معاً.

لقد سارت الثورة الاولى في الخط المرسوم لها من قبل العلماء، وفي الثورة الثانية بدأ الانجليز يستغلون الاحداث، كما في حادثة تحصن الثوار بالسفارة البريطانية في طهران خوفاً من سلطات الشاه، وذلك في جمادى الأولى «١٣٢٤ هـ، ١٩٠٦ م» حينما قامت زوجة السفير بتلقين الثوار مبادىء الديمقراطية، فتبلور الخلاف بين السيد كاظم اليزدي والشيخ كاظم الخراساني، الذي عمقه الروس والانجليز اكثر فأكثر وهنا تحرك الشيخ فضل الله النوري ضد محاولات التحريف العلماني الاستعماري واستطاع بعد جهود مكثفة اضافة مادة الى الدستور تقضي ان يقوم خمسة من فقهاء كل عصر بالاشراف على لوائح المجلس وقراراته وان قرارات هؤلاء الفقهاء واجبة التنفيذ وان هذه المادة لا تقبل التغيير حتى ظهور الامام المهدي عليه السلام[1] اما الثورة الثالثة فقد خرجت بالكامل عن الخط المرسوم لها، فاعدم الشيخ النوري واغتيل السيد عبد الله البهبهاني فيما بعد، واعلن الشيخ الخراساني

(١) الوردي «مصدر سابق» ص ١١٢.

والشيخ المازندراني عدم رضاهما عن المجلس والشخصيات غير الاسلامية فيه، وسجّلا عدداً من المؤاخذات على الوضع الجديد[1].

(١) شبر «مصدر سابق» ص ١٠٢.

مع الجهاد في كل المواقع

لقد حمل آية الله الشيخ الخراساني همّ اصلاح وتحرير المسلمين كافة، ولم ينحصر بالاطار القومي أو الاقليمي الذي ينتمي إليه. فقد ساند الحركة الدستورية التركية وذلك بارسال رسالة مطولة الى السلطان عبد الحميد الثاني، يدعوه فيها الى الاصلاح السياسي وللاستجابة لمطاليب الحركة الدستورية التركية(١).

وعندما قامت ايطاليا بالاعتداء على ليبيا، أصدر الشيخ الخراساني فتوى بالجهاد المقدس لتحريرها، وفي ايران كانت الثورة الثالثة قد اسفرت عن انسحاب الروس من ايران، بعد خلع محمد علي شاه، غير ان الاحتلال الروسي تجدد ثانية لاذربيجان الايرانية، وذلك في كانون الأول «١٩١١ م». فبعث الشيخ آية الله الخراساني رسالة تهديد وإنذار الى القنصل الروسي في بغداد، كما بعث رسالة الى علماء تبريز يأمرهم فيها بتعلم فنون القتال كواجب ديني، وافتى بحرمة بيع وشراء البضائع الروسية، واشترك مع باقي العلماء في إصدار عدد من الرسائل والبيانات الموجهة الى الخليفة العثماني محمد الخامس، والى الشعب الايراني ومسلمي الهند والعالم اجمع يطالب

---

(١) الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، ص ١٥٠.

فيها نصرة المسلمين في اذربيجان في مواجهتهم للاحتلال الكافر[1].

(١) شبر «مصدر سابق»، ص ١٢٠ ـ ١٢٣.

مع اصلاح نظم التعليم ايضاً

والى جانب جبهة الاصلاح السياسي، ساهم الامام الخراساني في جبهة الاصلاح التعليمي، ففي أواخر حياته (رض) ظهر في النجف الاشرف وعدد من المدن العراقية الاخرى حركة تدعو إلى تأسيس مدارس تعنى بالعلوم الحديثة واللغات الاجنبية، وظفرت بتأييد عدد من علماء الدين، كالميرزا حسين خليل وآية الله شيخ الشريعة والامام الخراساني وأُسست لهذا الغرض هيئة علمية، وقد بلغ حماس وتأييد الشيخ الخراساني لهذه الحركة درجة، بحيث أجاز صرف الحقوق الشرعية على المدارس التي اسستها الحركة[1].

(١) الاسدي «مصدر سابق»، ص ٧٨ ـ ٧٩.

وفاته

في أواخر حياته قرر الشيخ الخراساني التوجه الى جبهات القتال على رأس جيش من المجاهدين وعدد كبير من العلماء لمقاومة المحتلين في ايران، وكان من المقرر ان يتوجه بهذا الجيش الى ايران في ٢١ ذي الحجة ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م إلا انه في المساء اصابته وعكة صحية مفاجئة، وقبل شروق شمس اليوم التالي انتقلت روحه الطاهرة الى بارئها، في ظروف غامضة جداً، ويرى بعض المؤرخين ان «المسز بيل» قد زارت العراق في تلك الفترة مرتين وحصلت وفاة الشيخ الخراساني بعد أيام من خروجها من النجف في زيارتها الثانية، ويؤكد ان الخادم الخاص للحجة الخراساني وأولاده ـ أي أولاد الخادم ـ اصبحوا موضع عناية شديدة في زمن الاحتلال البريطاني للعراق[١].

ومما يذكر ان الشيخ الخراساني تعرّض قبل ذلك الى محاولة اغتيال من قبل محمد علي شاه أبّان الثورة الثالثة حيث يرسل دواء لمعالجة عين الشيخ، غير ان والدة الشاه أرسلت إليه رسالة ـ وكانت من مقلديه ـ تحذره فيها من استعمال الدواء[٢] .

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٢) شبر المصدر السابق ص ٨٣.

المرجع الثائر

آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي



آية الله الشيخ محمد تقي الشيرازي

للمرجعية نمط فريد من القيادة الجماهيرية لم يتعرف عليه العالم المعاصر بعد، فريد في انسيابية ظهور القائد وفي كيفية ممارسته لسلطته الروحية والزمنية وفي طبيعة العلاقة التي تربطه مع الجماهير، بشكل يوضح حجم المغالطة التي يرتكبها العلمانيون عندما يفصلون القيادة عن الدين ويختارونها بمعزل عنه، والمثال الذي يتجسم امامنا ونحن نتحدث عن خصائص القيادة المرجعية يتمثل في شخصية آية الله العظمى الشيخ محمد تقي الحائري الشيرازي، قائد ثورة العشرين الاسلامية في العراق. الذي أوضحت سيرته السياسية والروحية ان القيادة المرجعية تختزن كل مؤهلات القيادة وتستجمع في ذاتها كل شروط الشهادة على الأمة بفضل خصائص العلم والتقوى والزهد التي تتحلى بها، فالشخصية التي حملت على اكتافها ثمانية عقود من الزمن، ولم تمارس السياسة إلا اللمم دخلت الميدان السياسي من أوسع أبوابه ومارسته على حين غرة كما يمارسه أكثر السياسيين براعة واحترافاً. الأمر الذي يحفزنا لدراسة حياته من جوانبها كافة.

دور النشأة والظهور

في مدينة شيراز جنوبي ايران ولد الميرزا محمد تقي نجل الميرزا محب علي الشيرازي، في احضان عائلة اشتهرت بالعلم والتقوى والأدب. حيث كان والده من أهل الورع والدين كما كان اخوه احد علماء شيراز. فيما كان عمه من مشاهير الشعراء[1]، ولم تذكر المصادر المختلفة التي بأيدينا والمعتمدة في هذا الكتاب سنة ولادته إلا ان الدكتور علي الوردي ذكر في كتابه «لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث» ان سماحته كان في الثمانين من عمره عندما وصل كربلاء سنة ١٩١٨ م[2] وهذا يعني ان ولادته في حدود العقد الرابع من القرن الميلادي السابق «١٨٣٠ ـ ١٨٤٠ م» ولما لم يجد في شيراز بسطة علمية كافية لملكاته ونزوعه الشديد نحو العلم، هاجر الى العراق شاباً، وأقام في كربلاء يدرس المقدمات على أفاضل شيوخها وعلمائها، كالفاضل محمد حسين الاردكاني والسيد علي تقي الطباطبائي، ثم هاجر الى سامراء حيث اقامة المجدد السيد محمد حسن الشيرازي، ليغترف من علمه وينهل من اجوائه الروحية ووعيه السياسي

---

(١) العاملي محسن الامين ـ أعيان الشيعة المجلد التاسع ص ١٩٢.
(٢) المصدر المذكور ج ٥ القسم الأول ص ٦٣.

ايضاً، حتى صار ثالث ثلاثة في سامراء يوليهم استاذهم عنايته الخاصة والآخران هما السيد اسماعيل الصدر والسيد محمد الاصفهاني. وبعد وفاة السيد المجدد الشيرازي سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م اتجهت الانظار نحو الشيخ محمد تقي كمرشح بارز لمرجعية المستقبل القريب، وبقي في سامراء بهدف المحافظة على منجزات مرجعية استاذه الشيرازي ولم يتركها إلا عندما دعته الاحداث السياسية المهمة الى العودة الى كربلاء فعاد ليبدأ شوط القيادة السياسية.

بدايات النشاط السياسي

قبل الظهور الحاسم لآية الله الشيخ الشيرازي كمرجع أعلى وقائد سياسي من الطراز الاول كان سماحته قد أسهم اسهاماً ايجابياً في جملة الاحداث الكبيرة التي عاصرها، فقد أيد الحركة الدستورية الايرانية(١)، وشارك في مؤتمر الكاظمية الذي عقده كبار العلماء هناك من أوائل عام ١٩١٢ م للتداول في قضية الاحتلال الروسي لبعض المدن الايرانية الشمالية(٢) كما ساهم في حركة الجهاد التي انطلقت من النجف الأشرف وبقية المدن المقدسة في العراق ضد الاحتلال الانجليزي عام ١٩١٤ حيث افتى بالجهاد كسائر العلماء وأرسل نجله الشيخ محمد رضا للالتحاق بقوات المجاهدين المتوجهين نحو جبهة (الشّعَيبَة) بزعامة المجتهد السيد محمد الحيدري(٣).

ان شعوراً شديداً بالعداء للاجنبي المحتل ينتظم هذه النشاطات التي سيتوجها الشيخ الشيرازي بمواقف جذرية أزاء الوجود البريطاني في العراق وايران، واذا ما درسنا الاتجاه الثوري في حياته رحمه الله فسنجده نتاجاً

---

(١) الاسدي، حسن، ثورة النجف ص ٧٠.

(٢) شبر حسن تاريخ العراق السياسي المعاصر ج ٢ ص ١٢٩.

(٣) النفيسي عبد الله فهد، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ص ٨٦.

لثورة التنباك ودرساً تلقاه الميرزا الشيرازي الثاني من استاذه الميرزا الشيرازي الأول يوم كان تلميذاً له في سامراء يتزود من زوبعة الوعي السياسي الثوري التي احدثتها ثورته الشهيرة فالقائد يربي قائداً والثورة تنجب اخرى، ولا نحتاج الى التأكيد على ان الاتجاه الوحدوي في حياة الشيخ محمد تقي الشيرازي أثر آخر تركه الاستاذ في سيرة تلميذه كما سنرى في الفقرات اللاحقة ان شاء الله تعالى.

طليعة الزعامة الرشيدة

في منتصف عام ١٣٣٦ هـ (٢٣ شباط ١٩١٨) انتقل آية الله الشيرازي من سامراء عائداً الى كربلاء. ليبدأ فصلاً جديداً في حياته، فبقدر ما كانت الفترة السابقة من حياته حافلة بالدرس والتدريس جاءت الفترة اللاحقة حافلة بالسياسة، الى حدود الانصراف شبه التام إليها، وان المرء ليعجب اذا ما نظر الى هذه الظاهرة في حياته «قدس سره» وجمع إليها ملاحظة ان مواقف الميرزا الشيرازي السياسية في السنتين والنصف الاخيرة في حياته التي قضاها في كربلاء والتي تمثل فترة العمل السياسي والجهادي المكثف في سيرته كانت تنم عن قدرة قيادية فائقة من شجاعة وحسن تدبير والمام تام بالساحة وكأنه احد محترفي السياسة، فتأخذه الحيرة ويستبد به السؤال عن كيفية ظهور هذه القدرة التي لم تكن محسّة طيلة الثمانين سنة الماضية من عمره فبعد ان تمكن الانجليز في العراق من القضاء على المقاومة الاسلامية المسلحة للاحتلال أخذوا يعدون العدة لاقرار الوضع السياسي الجديد، فطرحوا في أواخر عام ١٩١٨ فكرة استفتاء الشعب العراقي حول المصير الذي يختاره وكان سعيهم الحقيقي يهدف الى تزوير ارادة الشعب واستحصال وثيقة سياسية تبين قبول الشعب بالاحتلال فظهرت حركة التنظيم «المضابط» في المدن العراقية وكانت بدايتها في النجف الاشرف. ففي صفر ١٣٣٧ هـ (١٢ كانون الاول ١٩١٨) سافر الحاكم المدني الانجليزي ويلسون الى

النجف وطرح على زعمائها فكرة الاستفتاء وبعد اجتماعات ومداولات تبلورت فكرة المطالبة بتأسيس حكومة عربية مستقلة يرأسها أمير عربي[1].
وبعد أربعة أيام من التاريخ السابق عقد اجتماع في كربلاء للغرض نفسه بين معاون حاكم الحلة وعدد من أعيان المدينة وبعد ان طرح عليهم المسؤول الانجليزي قضية الاستفتاء، تداول الاعيان الأمر فيما بينهم في اجتماعين آخرين عُقد الأول في دار السيد محمد صادق الطباطبائي، والثاني في دار الامام محمد تقي الشيرازي الذي حُسم الاختيار فيه بتقديم مضبطة الى حاكم الحلة تنص على المطالبة بـ «راية عربية اسلامية» وانتخاب «احد انجال سيدنا الشريف ليكون ملكاً علينا مقيداً بمجلس منتخب من اهالي العراق لتسنين القواعد الموافقة لروحيات هذه الأمة»[2].

وفي هذه الاثناء كانت جماهير العشائر والنجف المثقفة قد أعطت ولاءها للامام الشيرازي قائداً لمسيرة المصير والتحرير، خصوصاً بعد اعلان آية الله السيد كاظم اليزدي انسحابه من الساحة السياسية، وستتكرس الزعامة والمرجعية العامة في شخصه بعد وفاة هذا المرجع الديني في نيسان ١٩١٩ م.

واثناء قضية الاستفتاء وبالتحديد في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ (٢٣ كانون الثاني ١٩١٩) اصدر آية الله الشيرازي فتوى تحرم انتخاب غير المسلم لمنصب الولاية على المسلمين جواباً على سؤال وجه اليه هذا نصه «هل يجوز لنا انتخاب غير المسلمين للامارة والسلطنة علينا، أم يجب علينا اختيار المسلم. بينوا تؤجروا»؟.

فكتب في ذيل الاستفتاء الفتوى التالية:

---

(١) الوردي ، د. علي، لمحات اجتماعية ج ٥ القسم الأول ص ٧٢.
(٢) المصدر نفسه ص ٧٦.

«ليس لأحد من المسلمين ان ينتخب او يختار غير المسلم للامارة والسلطنة على المسلمين»[1]. وقد أيدت هذه الفتوى من سبعة عشر عالماً من علماء كربلاء.

وفي جمادي الاولى (١٣ شباط) بعث رسالة بالفارسية الى المفوض الامريكي في طهران يشكو فيها الانجليز ويدعوه الى تأييد قضية الشعب العراقي، كما بعث في الوقت نفسه وبالتضامن مع خليفته آية الله شيخ الشريعة رسالة الى الرئيس الامريكي يعرضان له قضية الشعب العراقي ويدعوانه الى تأييد مطاليبه بالعدالة.

وفي أوائل شعبان ١٣٣٧ هـ (نيسان ١٩١٩) اجتمع جمع من رؤساء عشائر الفرات في كربلاء بعد اتفاق مسبق توجهوا الى منزل الامام الشيرازي للتداول معه بشأن سبل مقاومة الاحتلال وتحقيق الاستقلال، فقال «قدس سره» «ان الواجب الديني يقضي علي ان اقوم بهذا العمل ان تمت موازينه»[2] ثم قرر الزعماء الاطلاع على رأي أهالي العاصمة وبعثوا وفداً الى بغداد بهذا الشأن.

وفي هذه الاثناء كانت المفاوضات الايرانية الانجليزية بشأن عقد معاهدة بين الطرفين جارية على قدم وساق فدعا آية الله الشيرازي شيخ الشريعة الاصفهاني والسيد اسماعيل الصدر الى اجتماع خاص يعقد في منزله للمداولة في الأمر، وبعد انعقاد الاجتماع قرر الشيخ وزميلاه إرسال برقية الى رئيس الوزارة الايرانية (وثوق الدولة) يطلبون منه فيها رفض المعاهدة وكسر طوق العبودية المفروض على رقاب المسلمين، ونتيجة

---

(١) آل فرعون فريق المزهر، الحقائق الناصعة ص ٨١.
(٢) المصدر نفسه ص ١٠١.

لهذه المعارضة الشديدة استقال (وثوق الدولة) في ربيع ١٩٢٠[١] ويبدو ان هذه القيادة الحازمة جعلت الانجليز يفكرون بضرورة استرضائها بشكل ما، ففي رمضان ١٣٣٧ هـ حزيران ١٩١٩ جاء الحاكم الانجليزي في العراق ويلسون، الى كربلاء للتباحث مع آية الله الشيرازي وفي بداية اللقاء تحدث وكان يتقن الفارسية ـ عن منصب كليدار سامراء وضرورة تعيين شخصية شيعية فيه بدلاً عن المسؤول السني الحالي، فأجابه الشيخ الشيرازي «لا فرق عندي بين السني والشيعي وان الكيلدار الموجود رجل طيب ولا اوافق على عزله «فانتقل ويلسون الى موضوع المعاهدة الايرانية البريطانية، وما فيها من الفوائد لإيران، فاجابه «قدس سره»: «نحن في العراق ونتكلم عن العراق وان حكومة ايران وشعبها اعرف بشؤونهم منا فلا يجوز لنا والحالة هذه التدخل في أمور لا تعنينا ولا نعرف عنها شيئاً» ثم تطرق ويلسون الى ما يجري في جنوب ايران من قتال بين القوات الانجليزية وبعض القبائل الايرانية طالباً من الامام الشيرازي الافتاء بكف القتال حقناً للدماء فأجابه الشيرازي: «لا يسوغ لي الافتاء بشيء لا علم لي به سيما وان لتلك القبائل حكومة فحكومتهم اعرف بذلك المحيط وما تقتضيه»[٢] فاسقط ما في ايدي ويلسون وخرج يجر وراءه اذيال الخيبة والفشل الذريع، وبسبب ذلك أصبح الانجليز يكنّون حقداً كبيراً على الشيخ الشيرازي ويشيعون عنه وعن نجله الشيخ محمد رضا مختلف التهم والأقاويل.

وهكذا بدأت الأحداث تسير نحو التفاقم وأصبح الاصطدام القريب امراً محتوماً فاستدعى آية الله الشيرازي الشيخ مهدي الخالصي للاقامة في كربلاء والمشاركة في اعمال المجلس الاستشاري الذي تم تأسيسه بعضوية عدد من كبار العلماء امثال السيد ابو القاسم الكاشاني والسيد هبة الدين الشهرستاني

---

(١) الوردي، د. علي، لمحات اجتماعية. ج ٥ القسم الاول ص ١١٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٦٥.

إضافة الى الشيخ مهدي الخالصي. وفي أوائل ذي القعدة (٢ آب) قامت سلطات الاحتلال باعتقال ستة من أعيان كربلاء الثوريين ونفيهم الى الهند بعد ذلك. فرد الامام الشيرازي برسالة احتجاجية الى ويلسون الذي رد جواباً سلبياً عليها، ولما وصلت الرسالة الجوابية الى الشيخ الشيرازي اعلن عزمه على الهجرة الى ايران احتجاجاً على رفض مطاليب الشعب العراقي مما أحدث ضجة في الاوساط الشعبية واضطراباً في السلطة الايرانية التي كانت ترى في مجيء الامام الشيرازي الى ايران ثورة شعبية عنيفة يمكن ان تنفجر ضد المعاهدة مع بريطانيا فعمل الانجليز على استرضائه فافرجوا عن المبعدين بعد أربعة اشهر كما أرسلوا مبلغاً من المال إليه فرفضه(١).

وفي خطوة ثورية جديدة، اصدر الامام الشيرازي في رجب ١٣٣٨ هـ (آذار ١٩٢٠) فتوى حرّم فيها الدخول في وظائف الدولة فعمت موجة الاستقالات من الوظائف الحكومية امتثالاً لموقف المرجعية، وأصبح البقاء في أجهزة الدولة يعد نوعاً من الانخراط في الكفر، فعندما قتل أحد المجندين العرب في الجيش البريطاني في مدينة الديوانيه رفض العلماء هناك أداء صلاة الميت على جنازته(٢)، وفي هذه الاثناء كان الوفد المرسل من كربلاء الى العاصمة ينشط في تحريك الاوساط الشعبية المختلفة باتجاه الثورة وقد تقرر اخيراً عودة الوفد الى كربلاء بمعية ممثل أهالي بغداد جعفر ابو التمن لاطلاع قائد الثورة على سير الاوضاع الجارية في بغداد والاستماع الى تعليماته.

وصل الوفد الى كربلاء في أيام زيارة النصف من شعبان عام ١٣٣٨ هـ (أوائل مايس ١٩٢٠) وهناك عقد اجتماع موسع في منزل السيد أبو القاسم

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٦.

(٢) النفيسي، د. عبد الله فهد ـ دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث ص ١٣٤.

الكاشاني حضره الوفد المذكور مع عدد من زعماء العشائر وعلماء الدين، وبعد ان تداول الحاضرون الحديث حول احداث الساعة وما ينبغي القيام به قرروا انتخاب خمسة منهم كوفد يتحدث نيابة عنهم مع الامام الشيرازي ويطلب منه اعلان الثورة، وذهب الوفد الى منزل الامام وفاتحه في الأمر، فقال الامام «قدس سره»: «انه لحمل ثقيل واخشى ان لا تستطيع القبائل ان تحارب الجيوش المختلفة» فأكد له الوفد قدرة المجاهدين على ذلك، فقال: «اخشى ان يختل النظام ويفقد الامن فتكون البلاد في فوضى وحفظ الامن اهم من الثورة» فتعهدوا له بالمحافظة على الأمن رغم ظروف الثورة، عند ذلك، قال الامام الشيرازي: «اذا كانت هذه نياتكم وهذه تعهداتكم فالله في عونكم» وبعد استلام الوفد قرار الثورة توجهوا الى ضريح الامام الحسين وتعاهدوا هناك على بذل الغالي والرخيص والالتزام بقرارات قائد الثورة وتوجيهاته[1].

وهكذا أصبحت المرحلة السلمية في لحظاتها الأخيرة، وشارفت الأحداث على الانفجار الكبير، إلا ان قائد الثورة ظل يواصل اصراره على استخدام كل وسيلة ممكنة، فأصدر في ١٠ رمضان بياناً الى الشعب دعاهم فيه الى الاجتماع والقيام بمظاهرات سلمية من أجل الاستقلال، وان يقوم الاهالي في كل مدينة بإرسال وفد عنها الى بغداد على ان تجتمع الوفود هناك وتقوم بعرض مطاليبها الى الحكومة[2].

وأثر ذلك انتخب سكان كل مدينة نواباً عنهم ووقعوا على مضابط التوكيل. ومن جانبه أوفد الامام الشيرازي كلا من السيد هبة الشهرستاني والميرزا احمد الخراساني الى بغداد لمواجهة الحاكم الملكي العام وطرح

---

(١) آل فرعون، فريق المزهر، الحقائق الناصعة، ص ١٠٤.
(٢) الوردي، د. علي، لمحات اجتماعية ج ٥ القسم الأول ص ١٨٣، انظر نص البيان.

مطاليب الشعب عليه، إلا ان الحاكم رفض استقبال الوفد واستلام كتاب القائد الشيرازي فمكث الوفد عشرة ايام في بغداد ثم عاد الى كربلاء.

ويبدو ان سلطات الاحتلال أخذت تستعد للمرحلة المقبلة وقررت استفزاز القيادة، ففي مطلع (شوال حزيران ١٩٢٠ م) أرسل حاكم الحلة الى الامام الشيرازي كتاباً يوضح فيه انه أرسل قوة عسكرية لتطويق كربلاء بغية القاء القبض على العناصر الثورية فيها، فأجابه الامام الشيرازي برسالة جوابية يطلب منه فيها الحضور عنده ويحذره بان عدم المجيء هذه المرة سيجعل «وصيتي للأمة بخصوص مراعاة السلم ملغاة في ذاتها، وأترك الأمة وشأنها وبهذه الصورة تقع مسؤولية نتائج السوء عليك وعلى أصحابك»[١].

إلا ان حاكم الحلة لم يعتن بهذه التحذيرات، واستدعى جملة من أعيان كربلاء منهم الشيخ محمد رضا نجل قائد الثورة والسيد هبة الدين الشهرستاني، ولما تردد هؤلاء في إجابة الطالب لمعرفتهم بالنتيجة وهي النفي والابعاد أوعز اليهم الامام بضرورة الذهاب ولو أدى الأمر لاستشهادهم فأستجابوا لأوامر الامام الشيرازي وذهبوا للقاء حاكم الحلة الذي أمر بتسفيرهم الى البصرة ومنها الى جزيرة هنجام[٢].

وفي هذه الاثناء تقدم العلماء وزعماء العشائر الى الامام الشيرازي بطلب الرخصة باستعمال القوة لانتزاع الحقوق الاسلامية والوطنية المهضومة، فأصدر الامام الشيرازي فتواه التاريخية التالية:

«مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ويجب عليهم في ضمن مطالبهم رعاية السلم والامن ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية، اذا امتنع الانجليز

---

(١) آل فرعون، فريق المزهر ـ مصدر سابق ص ١٥٤.
(٢) المصدر نفسه ص ١٥٦.

عن قبول مطالبهم[1].

فتأججت بذلك المشاعر الثورية وألهبت النفوس حماساً، وفي هذه الاثناء كان الشيخ شعلان ابو الجون (شيخ عشيرة الظوالم) ينشط باتجاه الثورة خاصة بعد وصول رسالة من قائد الثورة رحوم الظالمي يعتبره فيها وكيلا عنه في الرميثة، فاقدمت قوات الاحتلال على اعتقال الشيخ شعلان فاسرعت عشيرته الى اطلاق سراحه بالقوة في اليوم التالي وذلك في الاسبوع الثاني من شهر شوال ١٣٣٨ هـ (٣٠ حزيران ١٩٢٠) وبذلك انطلقت شرارة ثورة العشرين الاسلامية في العراق.

وتوالت الاحداث واشتدت العمليات العسكرية بين الطرفين وأخذ الشعب العراقي يحرز تقدماً ملموساً فيها رغم الاسلحة البدائية التي كان يستخدمها بالقياس الى اسلحة الجيش البريطاني، وفي عصر ٩ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ (تموز ١٩٢٠) أمر قائد الثورة بطرد حاكم كربلاء، وفي صباح اليوم التالي جرت مداولات بين الامام الشيرازي، وكبار معاونيه أسفرت عن تشكيل ثلاثة مجالس لإدارة شؤون المناطق المحررة، وهي:

١ ـ المجلس العلمي ووظيفته الاشراف على اعمال المجلسين الآخرين، وعين السيد هبة الدين الشهرستاني رئيساً له ومن الناحية السياسية يمكن اعتباره مجلساً لقيادة الثورة.

٢ ـ المجلس الملي، ووظيفته الادارة المحلية والأمن الداخلي.

٣ ـ مجلس جمع الاعانات للمعوزين في الثوار، ووظيفته تغطية الحاجات الاقتصادية لعوائل الثوار والمجاهدين.

وتعمل هذه المجالس الثلاثة تحت اشراف قائد الثورة، وهناك مجلس

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩٥.

رابع هو المجلس الحربي ووظيفته قيادة العمليات العسكرية ويتميز عن سائر المجالس بكونه لا يخضع لاشراف قائد الثورة، ويدخل في عضويته عدد من رؤساء القبائل والى جانب الجهد الثوري عمل قائد الثورة على مواصلة الجهد السياسي، ففي خضم الاحداث الثورية، بعث ويلسون رسالة الى الامام الشيرازي يُشَمّ منها الرغبة في التفاهم، فجمع قائد الثورة اعضاء المجلس العلمي وطلب منهم المشاورة، فاقترحوا إرسال وفد الى ويلسون لعرض مطاليب الشعب العراقي عليه مجدداً، فارسل السيد هبة الدين الشهرستاني والميرزا احمد الخراساني الى قنصل ايران في بغداد ليذهب القنصل نيابة عن الوفد الى ويلسون ويعرض عليه الأمر، فاستجاب القنصل الايراني للطلب وذهب الى مقر الحاكم العام لمقابلته، ولما قدم القنصل الايراني طلبات وفد قائد الثورة الى ويلسون غضب وزمجر ورفض العرض، ورجع الوفد الى كربلاء بهذه النتيجة، وعندما ابلغ الامام الشيرازي بها قرر ارسال شكوى الى عصبة الامم يرفع فيها قضية العراق الى العصبة ويطالبها بتأييد كفاح الشعب العراقي المسلم من أجل الاستقلال وقد تم ذلك في ٢٧ ذي القعدة «آب ١٩٢٠».

ثورة العشرين... رؤية في الاهداف والخلفيات

يلعب التاريخ والسياسة ادواراً متبادلة في كل منهما، فكما تؤثر السياسة في رسم صورة التاريخ يلعب التاريخ دوره في توجيه السياسة، ومن هنا تنبع أهمية الماضي للحاضر، وتتشكل ضرورة استخلاص انقى صورة ممكنة للتاريخ بصورة عامة والمقاطع الحيوية منه بصورة خاصة.

وتمثل ثورة العشرين في العراق وباجماع الباحثين المعنيين بها مقطعاً بالغ الحيوية بالنسبة لجهات ثلاث، التكوين السياسي المعاصر للعراق، تطور الحركة السياسية للمرجعية الاسلامية، وحركة التحرر العالمية.

فمن الجهة الاولى يجد الباحث السياسي أهمية الدور التأسيسي الذي لعبته ثورة العشرين بالنسبة للتكوين السياسي المعاصر للعراق، الأمر الذي حفز الاتجاهات السياسية في هذا البلد الى دراستها وتحليلها بالشكل الذي تراه مناسباً.

ومن الجهة الثانية، تمثل هذه الثورة مرحلة متقدمة في التطور السياسي للمرجعية الاسلامية في تاريخها المعاصر مما يحفز الخط الاسلامي داخل العراق وخارجه على اعطاء هذه الحلقة المشرقة حقها من الدراسة والتحليل وبالقدر المناسب لموقعها المهم في الوعي السياسي الاسلامي ومن الجهة الثالثة، جسدت ثورة العشرين موقعاً طليعياً في حركة التحرر العالمية من

الاستعمار والهيمنة الاجنبية، وحيث ساد النصف الاول من القرن العشرين التزعم الشيوعي بقيادة هذه الحركة على المستوى العالمي، وجد الشيوعيون أنفسهم معنيين بدراسة هذه الثورة وتفسيرها على أساس المنطق الطبقي.

وهكذا تبلورت اتجاهات ثلاثة في تفسير الثورة. الاتجاه القومي والاسلامي والماركسي. وفي ذلك مدلول سياسي كبير على الأهمية البالغة التي حظيت وتحظى بها هذه الثورة في المرحلة المعاصرة والتاريخ والسياسة والفكر وعلى المستويات الثلاثة المحلي والاقليمي والعالمي معاً.

وإذا كان للأمر هذه الأهمية فان الحقيقة المؤسفة تتمثل في أنَّ الخط الاسلامي وهو امسّ رحماً بالثورة لم يبلور رؤية متكاملة بشأنها خاصة في الجانب المرتبط بالاهداف وطبيعة الفكر السياسي لها، وكأنه شعر بالاكتفاء بطرح الامجاد الثورية التي تجسدها.

ومن هنا تنبع ضرورة تسليط الضوء على طبيعة الفكر السياسي للثورة وبيان حقيقة الهدف الذي كانت تنشده.

الثورة واتجاهات التفسير

ظهرت كما تبين سابقاً ـ ثلاثة اتجاهات في تفسير الثورة هي:

١ ـ الاتجاه الماركسي:

ويتمثل بالمحاولة التي بذلها المستشرق السوفيتي «كرتولوف» في كتابه «ثورة العشرين» حيث سعى الى اعطاء تفسيرات طبقية للثورة وكان اهتمامه بها نابعاً من الزعم الشيوعي بقيادة حركة التحرر العالمية من الاستعمار والرأسمالية غير ان محاولته لم تكن موفقة. وما كان بامكانها ان تكون موفقة، فالدين الذي اعتبرته الشيوعية «أفيون الشعوب» كان عقيدة القيادة والجماهير الثائرة وهو السمة البارزة في فكر الثورة وشعاراتها، وخلافاً للمنطق الطبقي فقد اتحد زعماء القبائل مع زعماء الدين على قيادة الجماهير ضد الاحتلال، بينما يفترض المنطق الطبقي انتفاضة الجماهير ضد القيادة الاقطاعية المتمثلة بزعماء القبائل وانصارهم من الزعماء الدينيين، وهاتان مفارقتان اساسيتان يعجز المنطق الطبقي عن معالجتهما وهما تكتفيان للاشارة الى فشل هذا الاتجاه في تفسير الثورة.

٢ ـ الاتجاه القومي:

وتمثله عدد من كتابات القوميين العرب الذين اصروا على اعطاء تفسيرات قومية للثورة وابرزهم الكاتب العراقي الدكتور وميض جمال عمر نظمي الذي خصص كتابه «الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية في العراق» لتفسير أحداث العراق في الربع الأول من القرن العشرين تفسيراً قومياً.

ويعتمد القوميون على مؤشرات عديدة في هذا المجال ابرزها تمحور الثورة حول فكرة المطالبة بتأسيس حكومة عربية يرأسها أحد انجال الشريف حسين، وهذا يعني في التفسير القومي، ان الثورة كانت تسعى وراء هدف قومي فالحكومة عربية والحاكم عربي والخصائص الايديولوجية الاسلامية مستبعدة. اذ لا مناداة بتطبيق الاسلام ولا مطالبة بدور اساسي للعلماء في الحكم، فضلاً عن ان الصيغة الملكية للنظام المطلوب تمثل نفياً صريحاً للاسلام. خاصة وان العلماء كانوا من أبرز المنادين بها وانهم رشحوا احد ابناء الشريف حسين للعرش ومنذ البداية ومعلوم ان ابناء الشريف لا يحملون مؤهلات الحاكم الاسلامي، ومن وجهة النظر الشيعية خاصة، وهذا الدليل المكون من تقريبات قومية واستبعادات للعامل الايديولوجي الاسلامي يعتبر من وجهة النظر القومية، كافياً لاثبات الهوية القومية للثورة.

ولكن يلاحظ على هذا الاتجاه انه لم يحسب حساب الاتجاه الاسلامي للقيادة فكأن القوميين يتحدثون عن ثورة قادها الملك فيصل وليس المرجع الديني الشيخ محمد تقي الشيرازي، واذا كان الشعور القومي ـ من وجهة نظرهم ـ اقوى من الشعور الديني فقائد الثورة لم يكن عربياً في انتمائه القومي حتى يغلب عنده الشعور العربي على الشعور الاسلامي، ولا بد انَ يكون الشعور الاسلامي هو الشعور الأوحد لديه لأنه زعيم اسلامي اولاً وغير

عربـي ثانياً ومعلوم ان هوية القيادة تعكس هوية الجماهير وبالتالي هوية الثورة فان تبعية الجماهير والتحامها مع قيادة ذات انتماء اقليمي وقومي مختلف يكشف عن ذوبانها في شعور غير قومي وليس ذلك إلا الشعور الاسلامي.

وهكذا فان الاتجاه القومي اعتمد في تحليله لهوية الثورة على جانب منها ولم ينظر الى كافة جوانبها.

٣ ـ الاتجاه الاسلامي:

ويرى هذا الاتجاه ان الثورة كانت اسلامية في شكلها ومحتواها وان الشعور الديني هو العامل المحرك لها بحكم الطابع العلمائي للقيادة من جهة وانقياد الجماهير لهذه القيادة على أساس ديني صرف من جهة ثانية وانعدام المؤشرات على وجود غلبة لشعور آخر من جهة ثالثة، وهذه الجهات الثلاث توثقها كل يوميات الثورة واحداثها وأدبياتها ووثقائها، والتي لا يمكننا استعراضها هنا بشكل كامل ولكن يكفينا منها ان بيانات وفتاوى قائد الثورة كانت العامل المحرك للجماهير والملهب للنفوس.

هذا المقدار في التفسير الاسلامي للثورة أمر مسلّم ولا يمكن الخدش فيه إلا ان الكّتاب الذين اختاروا هذا التفسير مضوا فيه الى ما هو أبعد من هذا الحد، فأشاروا الى ان الثورة كانت تهدف الى تشكيل حكومة اسلامية، وان الامام محمد تقي الشيرازي قد نص على ذلك، وكأنهم يريدون بذلك إثبات صفة ايديولوجية اسلامية كاملة للثورة.

والكّتاب الذين ذهبوا الى هذا الرأي هم الباحث احمد الكاتب[(١)]

---

(١) الكاتب أحمد «تجربة الثورة الاسلامية في العراق» ص ٤٤.

والاستاذ حسن شبر[1] والاستاذ عبد الحليم الرهيمي[2] والاساس الذي اعتمدوا عليه هو البيان الذي وجهه قائد الثورة الشيخ محمد تقي الشيرازي الى الشعب العراقي في ١٠ رمضان ـ ١٣٣٨ (٢٩ مايس ١٩٢٠) والذي دعا فيه الى المظاهرات والمطالبة بالحقوق المشروعة «المنتجة لاستقلال العراق ان شاء الله بحكومة اسلامية» ولعلهم ايدوا ذلك بفكرة نظرية تقول ان الامام الشيرازي كان مرجعاً دينياً ولا يمكن لامثاله إلا ان يسعى لحكومة اسلامية إلا انهم، أي الكتاب الثلاثة ـ لم يذكروا هذا الوجه. ويبدو ان هذا الرأي اعتبر من المسلمات ـ فلم أجد في الوسط الاسلامي اشارة الى رأي آخر.

---

(١) شبر حسن «تاريخ العراق السياسي المعاصر» ج ١ ص ٢١٧.
(٢) الرهيمي. عبد الحليم «تاريخ الحركة الاسلامية ص ٢٣٠.

ثورة من أجل الهوية

لقد استعرضنا قبل قليل جوانب الأهمية في ثورة العشرين، ونجد الآن ان هذه الأهمية تستدعي اعطاء دراسة كافية عن اهداف هذه الثورة وخلفياتها، الأمر يدعونا الى تسجيل ملاحظة اساسية على الرأي المذكور القائل بان الثورة كانت تستهدف تشكيل حكومة اسلامية فان الذهاب الى هذا الرأي يحتاج الى دراسة واسعة ومعمقة للفكر السياسي للثورة وقائدها بنحو خاص وللمرجعية الاسلامية في تلك المرحلة بنحو عام، وان الاكتفاء بنص واحد يعتبر استعجالاً في الوصول الى النتائج خاصة وان هذا النص يمكن تأويله الى رأي آخر ومن الناحية النظرية لا نجد ضرورة شرعية تلزمنا بهذا الرأي ـ فان اسلامية الثورة والقيادة لا تستلزم وجود مشروع سياسي اسلامي للحكم والدولة، صحيح ان هذا المشروع هدف مقدس يسعى الى تحقيقه كل فرد مسلم يؤمن باسلامه ويحترم عقيدته، فضلاً عن مرجع ديني كبير كالميرزا محمد تقي الشيرازي، لكن السياسة عالم الممكن، الذي يختزل الكثير من الطموحات والاهداف ويحددها في ضوء معطيات الواقع القائم، وحينئذ فنحن لا نتحدث عن الاهداف النظرية التي يفترض ان تحملها كل قيادة اسلامية وانما عن الاهداف الميدانية التي رسمتها الثورة كهدف فعلي لها وبالتالي لا نجد اشكالاً نظرياً في زعامة صادقة تقود ثورة اسلامية ولا تستهدف منها انشاء حكومة اسلامية، والنتيجة المهمة من ذلك هي ان وجود

مرجع اسلامي على رأس ثورة او حركة معينة لا يدل على ان هذه الثورة او تلك الحركة كانت تسعى لاقامة حكومة اسلامية، والمثال التاريخي الذي يمكننا الاستشهاد به في هذا المجال هو ثورة الدستور الايرانية، فقد كانت قيادتها اسلامية تتمثل بجملة من أبرز مراجع ذلك الوقت لكنها لم تطرح الدستور الذي ناضلت من أجله كمشروع لحكومة اسلامية وانما كاطروحة للاصلاح السياسي وصورة لحكم يتسم بالعدالة والقانون والاستقلال ـ بدلاً عن الديكتاتورية والطغيان والتبعية.

وأبرز دليل على ذلك ابقاء الدستور على الصيغة الملكية الوراثية للحكم والدولة وهي التي تشكل نفياً صريحاً للنظام الاسلامي ومن المؤكد تاريخياً ان قيادة ثورة العشرين كالشيخ محمد تقي الشيرازي وخليفته الشيخ فتح الله الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي والسيد هبة الدين الشهرستاني وغيرهم يُعدّون من تيار الحركة الدستورية ولذا وجدنا فكرهم السياسي يتطابق مع الفكر السياسي لهذه الحركة الى حد الشعور بان ثورة العشرين كانت تكراراً للحركة الدستورية في جانب الفكر السياسي لها، واستمراراً لمرحلة الدفاع عن الهوية التي ستتواصل في حياة المرجعية الاسلامية حتى عام ١٩٢٤ م.

وذلك ان الشعار المركزي الذي رفعته ثورة العشرين على لسان قيادتها والذي تكرر في ادبياتها ووثائقها بشكل مطرد كان يتمثل بالدعوة الى تأسيس «حكومة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس تمثيلي».

وكان الظهور الاول لهذه الفكرة في أواخر عام ١٩١٨ وذلك أبان بروز قضية الاستفتاء على مصير العراق، ثم تحددت أكثر فصارت هكذا «حكومة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس تمثيلي وهو أحد انجال الشريف حسين «ثم تحددت في صيغتها النهائية هكذا» حكومة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس تمثيلي هو الملك فيصل».

وأول وثيقة تاريخية نصت على هذه الفكرة مضبطة اهالي النجف والتي نصت على المطالبة بتأسيس حكومة عربية مستقلة يرأسها أمير عربي، وهناك نص آخر للمضبطة اورده المؤرخ فريق المزهر آل فرعون، وهو أي النص الآخر ـ وكثر تدليلاً على الفكرة الدستورية، وهو المطالبة بـ «حكومة عربية اسلامية ملكية دستورية مقيدة بقانون اساسي شرط ان لا يخالف قواعدنا وعاداتنا وشعائرنا الدينية منها والوطنية تحت ظل ملك عربي، وهو أحد انجال الشريف حسين»[1] وقد نص الامام الشيرازي بنفسه على هذه الفكرة في رسالته الموجهة الى المفوض الامريكي في طهران ورسالته الموجهة الى الرئيس الامريكي ويلسون والتي كتبها بالتضامن مع خليفته الشيخ فتح الله الاصفهاني، وتضمنتها كذلك مضبطة اهالي كربلاء التي نظمت في دار الامام الشيرازي، وهي الفكرة التي عمل بمضمونها قادة الثورة من بعد الامام الشيرازي كالشيخ فتح الله الاصفهاني والسيد أبو الحسن الاصفهاني والشيخ مهدي الخالصي والشيخ حسين النائيني وعندما سأل المؤرخ العراقي فريق المزهر آل فرعون أربعة عشر زعيماً دينياً وقبلياً، منهم السيد هبة الشهرستاني والشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد محسن ابو طبيخ عن هدف الثورة نص الجميع وبلا استثناء على هذه الفكرة كهدف وحيد للثورة[2] ومع كل هذه النصوص والشواهد التاريخية كيف يمكننا القول بان الثورة كانت تستهدف اقامة حكومة اسلامية؟ فان الشعار المذكور يستبعد النظام الاسلامي بل يتنافى معه. في صيغته الملكية، وفي استبعاده للدور العلمائي في الحكم وفي تحديده لاحد ابناء الشريف حسين كملك على عرش العراق.

---

(١) آل فرعون، فريق المزهر، الحقائق الناصعة ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق ص ٥٥١ ـ ٥٨٨.

مشكلة النص

تبقى مشكلة النص الذي وردت فيه عبارة «حكومة اسلامية» كهدف تسعى اليه الثورة ضمن البيان الذي أصدره قائد الثورة في ١٠ رمضان ١٣٣٨ هـ والذي دعا فيه الشعب العراقي الى تنظيم مظاهرات احتجاجية للمطالبة بـ «الحقوق المشروعة المنتجة لاستقلال العراق ان شاء الله بحكومة اسلامية»، ويبدو ان الباحثين الثلاثة المذكورين آنفاً لم يجدوا تفسيراً لعبارة «الحكومة الاسلامية» غير تفسيرها حسب المفهوم الشرعي الدقيق لها، فركبوا من اجله الصعاب التي ذكرنا بعضها سابقاً ونستطيع ان نلخصها الآن بالنقاط التالية:

١ ـ ان هذه العبارة لم تذكر طيلة عمر القضية الاسلامية في العراق الممتدة ما بين عامي ١٩١٤ م ـ ١٩٢٤ م، إلا هذه المرة وفي هذه الحالة يصعب على الباحث الاعتماد عليها كأساس في تفسير الثورة، فإنَّ حركة جماهيرية وسياسية بحجم ثورة العشرين لا يكتفي في تفسيرها بنص واحد، ومن غير المألوف ان تكتفي القيادة في مثل هذه الحركة بالتعبير عن اهدافها ونواياها بنص واحد. ومن الغريب ان الاستاذ عبد الرحيم الرهيمي ذكر ان شعار الحكومة الاسلامية ورد كهدف للثورة في فتاوى العلماء وفي المذكرات التي قدمت لسلطات الاحتلال وفي عدد من البيانات، ثم يضيف قائلاً: «غير انها بقيت فكرة مبدئية ولم تعط شرحاً محدداً ويبدو انها كانت تعني سلطة

مقيدة تستند الى الشريعة الاسلامية واحكامها وربما يكون نموذجها المقصود الدولة العثمانية، مشذّبة من الاستبداد أو ملكية مقيدة كملكية ايران المقيدة بدستور ١٩٠٦»[1].

ووجه الغرابة امران:

الاول: ان شعار الحكومة الاسلامية ذكر مرة واحدة فقط ولم يتكرر.

الثاني: ان الدولة العثمانية لا يمكننا اعتبارها مصداقاً للحكومة الاسلامية حتى لو شُذِّبت من الاستبداد وكذلك لا يمكننا اعتبار الدستور الايراني لعام ١٩٠٦ مشروعاً لحكومة اسلامية للاشكال المذكور آنفاً.

وبالنسبة للأمر الأول من المحتمل ان يكون قصد الاستاذ الرهيمي من تكرر شعار الحكومة الاسلامية في أدبيات الثورة ووثائقها العبارة التي اعتمدنا عليها في تفسير الثورة على اساس الهوية الاسلامية وَهي الدعوة الى تأسيس «حكومة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس تأسيس «فهذه هي التي تكررت الاشارة اليها في معظم ادبيات الثورة ووثقائها ووثائق قائد الثورة الشيخ محمد تقي الشيرازي نفسه كما أشرنا سابقاً، ولعلَّ هذا هو المتعين من كلامه وبه وحده يحل وجه الغرابة في الأمرين معاً، وحينئذ لا يكون ـ بنظر الاستاذ الرهيمي ـ الغرض من عبارة «حكومة اسلامية» الواردة في بيان قائد الثورة المذكور. المصطلح الشرعي وهو ما نريد اثباته.

٢ ـ ان قبول المرجعية بفكرة تأسيس «حكومة عربية يرأسها ملك مسلم هو احد انجال الشريف حسين «لا ينسجم مع القول بانها كانت تسعى الى تأسيس حكومة اسلامية بالمصطلح الشرعي لها بينما يمكننا الخروج بتفسير

---

(١) الرهيمي، عبد الحليم، المصدر السابق.

لعبارة الحكومة الاسلامية الواردة في البيان المذكور آنفاً ينسجم مع هذه الفكرة، وحينئذ تكون هذه الفكرة هي الاساس في تفسير الثورة وليس عبارة «حكومة اسلامية».

ان الشيخ محمد تقي الشيرازي عندما استفتى في قضية الاستفتاء ـ عام ١٩١٩ م ـ حول جواز او عدم جواز انتخاب غير المسلم للامارة والسلطنة على المسلمين، أجاب بعدم جواز ذلك ولم يلتفت السائل ولا الامام نفسه في جوابه الى طبيعة الحكم وشروط الحاكم. مما يدل على ان القضية التي كانت تشغل ذهن القيادة والجماهير هي قضية هوية الحاكم وليس طبيعة الحكم وايديولوجيته.

٤ ـ ان الشيخ عبد الكريم الجزائري وهو أحد رموز ثورة العشرين وصف في فتواه التي اصدرها أبان حركة مايس ١٩٤١ م لاستنهاض الشعب العراقي ضد الاحتلال وصف الدولة العراقية التي أسست في أعقاب ثورة العشرين بانها حكومة اسلامية فقال ما نصه: «ولكم السابقة في تشييد هذه الحكومة الاسلامية»[١] ومن المقطوع به ان الدولة المقصودة في هذا البيان لم تكن اسلامية بالمصطلح الشرعي.

من كل ما مضى يتبين لنا عدم امكانية القول بان ثورة العشرين كانت تستهدف اقامة حكومة اسلامية حسب المصطلح الشرعي لهذه العبارة وحينئذ لا بد من اللجوء الى تفسير آخر لهذه العبارة غير الذي اختاره هؤلاء الكّتاب الثلاثة، وهو التفسير العرفي الذي ينظر الى الحكومة الاسلامية من زاوية الهوية العامة لرموزها وشخصياتها والأمة التي تحكمها وليس من الزاوية الشرعية الايديولوجية، وهذا التفسير أقرب الى طبيعة المعركة، فان الثائر ضد الاحتلال الاجنبي ينطلق من الدفاع عن وجوده وهويته وشخصيته

---

(١) الحسني، عبد الرزاق، الاسرار الخفية في حركة مايس ص ٢٥٨.

المستقلة، وهكذا هي ثورة العشرين انطلقت دفاعاً عن شعب اعتدى الانجليز عليه فتحفز لديه الشعور بالهوية والخوف من ضياعها وتولد عنده الاحساس بالذات المتكونة من عقيدة سماوية يريد الكفار القضاء عليها ومن انتماء عربي يريد الانجليز اذلاله، ومن مجموع الشعورين تكونت لديه روحية الدفاع عن هوية يخشى ضياعها فيحاول المحافظة عليها بكل وسيلة ممكنة، وهذه هي معركة الاستقلال فانها معركة الهوية قبل ان تكون معركة الايديولوجية.

الحكومة الثورية المؤقتة... والتفسير المختار

ذكرنا ان القيادة الاسلامية تحمل اهدافاً نظرية واخرى فعلية وان الحركات والثورات التي تقودها يتم تفسيرها تاريخياً في ضوء الاهداف الفعلية لا النظرية وان الحكومة الاسلامية تمثل الهدف النظري وليس الفعلي للقيادة في ثورة العشرين.

وينبغي ان نوضح أخيراً ان تبنى الثورة للهوية الاسلامية كهدف فعلي لها، لا يعني انها لا تسعى لتحقيق الحكومة الاسلامية اذا ما سنحت الفرصة لها في صورة من الصور، لان دخولها عالم الامكان يعني تحولها الى هدف فعلي ومن هنا لا نجد تعارضاً بين التفسير المختار للثورة وبين رؤيتنا للمجالس الأربعة التي تم تشكيلها ابان الثورة في كربلاء بعد تحريرها من قوات الاحتلال باشارة من قائد الثورة، رؤيتنا لها على انها صورة تقترب من مفهوم الحكومة الاسلامية المحدودة، جاء بشكل استثنائي لا يعبر عن الرؤية الاستراتيجية للثورة على مستوى العراق ككل، وذلك ان قرار قائد الثورة بطرد الحاكم العسكري في كربلاء في تموز ١٩٢٠ لم يكن يبغي منه اخلاء المدينة لاقامة حكومة اسلامية تكون نواة للنظام السياسي المطلوب على مستوى العراق، وانما كان اجراءً ثورياً جاء في نطاق الصراع مع الانجليز فلما تولد منه فراغ سياسي واداري على مستوى مدينة كربلاء قرر قائد الثورة

ملء الفراغ بالمجالس الأربعة (المجلس العلمي والملي والحرس ومجلس جمع الاعانات للثوار) تقوم بإدارة الثورة والمدن المحررة تحت اشراف قائد الثورة.

ان تأسيس هذه الحكومة الثورية الاسلامية لا يتنافى مع التفسير المختار للثورة بل يؤكده فان الهدف الاستراتيجي والفعلي للثورة هو حماية الهوية الاسلامية، ولكن اذا ما أتيح لها ان تحقق في ظرف زماني ومكاني محدود هدفاً اعلى من ذلك فانها ستعمل له، الهدف الأول عبارة عن مشروع زمني قررته قيادة الثورة في ضوء ملابسات الوضع السياسي والسكاني والتاريخي والديني للعراق ككل، والثاني مشروع ايدلوجي قررته القيادة في ظل ظرف استثنائي وطبقته في حدود كربلاء وبعض المدن المحررة نتيجة للفراغ الاداري والسياسي الذي نشأ في هذه المدن بعد تحريرها ولو كانت الثورة ترى في هذه الحكومة نموذجاً لما يطلب على مستوى العراق ككل لما وجدنا اختلافاً بينهما وبين شعار الثورة المركزي المتمثل بالدعوة الى «تشكيل حكومة عربية يرأسها ملك مسلم مقيد بمجلس تأسيس» والاختلاف الاساس هو فارق الزعامة العلمائية غير الملكية في حكومة كربلاء والزعامة الملكية في الشعار المذكور.

لماذا وقع الاختيار على احد أنجال الشريف؟

ومما يساعد على التفسير المختار أن الرأي العام العراقي وحسب ما تبين أدبيات الثورة ووثائقها رشح بدءاً من أواخر العام ١٩١٨ أحد انجال الشريف حسين ملكاً لعرش العراق وهو الذي تم تحديده فيما بعد بالملك فيصل، وذلك ان شخصية الشريف حسين وسلالته التي توارثت الزعامة الدينية السياسية في حكمه منذ أمد بعيد تطابقت مع النزوع المحلي الشديد

نحو الهوية، إضافة الى الامتيازات الأخرى التي حظي بها ورفعته في نظر الفرد العراقي آنذاك، فهو الشخصية المقبولة لدى الوسط السني بوصف الشريف حسين سني المذهب، والوسط الشيعي باعتبار انه ينحدر من سلالة علوية ويكن احتراماً وتقديساً لأهل البيت عليهم السلام كما انه ظهر في بداية الأمر على انه الخليفة الجديد للمسلمين بعد سقوط الخلافة العثمانية، أضف الى ذلك ان الشعور الاقليمي لم يكن متبلوراً بوضوح آنذاك وكان الشعور العربي أقوى وأسبق منه، فلم يكن الفرد العراقي يأنف من ملك عربي يتزعمه من خارج العراق.

الوطنية الصادقة والوطنية الكاذبة

لقد دافع آية الله الشيرازي عن الكيان العراقي وذاد الاجانب عن ترابه وشعبه ورفع شعار الاستقلال وضحى من أجله بنجله الشيخ محمد رضا الذي أبعد من العراق الى الهند الى ايران وتوفي هناك.

انطلاقاً من شعور اسلامي عارم يعتبر الأرض الاسلامية وطناً للجميع رغم انتمائه القومي والاقليمي المختلف فيما توارى ادعياء الوطنية العراقية والقومية العربية عن الساحة متربصين الفرص والمغانم حتى اذا ما اجهضت الثورة وسحب المحتل جيوشه من ميادين المعركة قدم هؤلاء أنفسهم بين يديه جيشاً سياسياً جاهزاً لأداء مهام التبعية والانقياد للاستعمار وسرعان ما فتك هذا الجيش بقادة الثورة وعلماء الدين المجاهدين، فايهما أصدق في عروبته ووطنيته في مقياس العروبة والوطنية ذاتها، علماء الاسلام أم فرسان التبعية؟

وقد تنكرت الدولة العراقية المعاصرة لمؤسسي هذا الكيان ومحرريه من الاحتلال وغدت تحارب ذكرهم، فيما ينتصب في وسط العاصمة بغداد

تمثال كبير لعبد المحسن السعدون العميل الشهير للانجليز؟ بطل حادثة تسفير العلماء من العراق عام ١٩٢٤ م.

مزاياه الروحية والإخلاقية

عُرف الامام الشيرازي بمزايا أخلاقية وروحية فريدة، ينقل الشيخ أغا بزرك الطهراني عن آية الله السيد حسن الصدر انه قال عن الامام الشيرازي: «عاشرته عشرين سنة فما رأيت منه زلةً ولا أنكرت عليه خلة وباحثته اثنتي عشرة سنة فما سمعت منه الا الانظار الدقيقة والافكار العميقة والتنبيهات الرشيقة».

ويعلق الشيخ الطهراني على ذلك قائلاً: «أقول وقد تتلمذت عليه وحضرت بحثه ثمان سنين في سامراء فتأكدت لديَّ صحة كلام سيدنا الصدر وبانت لي حقيقته»[1].

ولما سئل الشيخ محمد كاظم الشيرازي تلميذ الميرزا الشيرازي عن عدالة استاذه أجاب: «أسئلوني عن عصمته[2]» ويقول الشيخ أغا بزرك الطهراني ايضاً «كان عليه ملامح القديسين وكان لا يطلب من أحد شيئاً حتى الماء، وكان زاهداً عازفاً عن الدنيا»[3].

---

(١) الطهراني، إغا برزك، نقباء البشر ج ١ ص ٢٦١.
(٢) الطهراني، أغا برزك، هدية الرازي إلى المجدد الشيرازي ص ٦.
(٣) المصدر نفسه.

وفاته «قدس سره»

يرى السيد هبة الدين الشهرستاني ان نكسة الثورة أثرت على صحة الامام الشيرازي ويروى ان الميرزا دخل صحن الامام الحسين عليه السلام يوماً للصلاة فشاهد عدداً كبيراً من الجنائز فراعه ذلك فانهارت بعد ذلك صحته ولم يدخل الصحن مرة ثانية حتى توفى بعد أيام قلائل في ٣ ذي الحجة المصادف ١٧ آب ١٩٢٠ .

المجاهد الكبير

الشيخ مهدي الخالصي



الشيخ مهدي الخالصي

«قيادة العلماء» مشروع حضاري تقدمي يتبناه الإسلام

فمن تبنيه للعلم كقاعدة اساسية في حضارته، وتبنيه للعقل كأساس وحيد لخلافة الانسان ونيابته عن الله سبحانه وتعالى في السيادة على الوجود، وليت الانسان المعاصر ينتبه الى الفرق الواسع بين حضارة تعطي مواقع القيادة والتوجيه للعلماء وتحضرها على غيرهم، وأخرى تجعلها مطية للرأسمالية الجشعة، بين مجتمع يقوده علماء يتبعون الحق وينشدون الحقيقة وآخر يخضع لقيادة رأسمالية تنشد المال وتعبد المادة ليته ينتبه الى المفارقة التي وقعت فيها الحضارة المعاصرة عندما سلبت القيادة اعزّ خصائصها وهي العلم وابدلتها بخصيصة الجشع المادي التي لا يشك أحد في انها من الرذائل الكبرى ولا نعني من ذلك ان القيادة الغربية حُرمت من العلم نهائياً بل المقصود ان المحور ليس هو العلم، خلافاً للقيادة الاسلامية، وقد استطاع الاسلام ان يجد مشروعه حقيقة واقعة، وبفضله ظهرت في المجتمع الاسلامي سلسلة كبيرة متصلة الحلقات من العلماء القادة والمصلحين الذين لعبوا دوراً قيادياً على مختلف المستويات ويعتبر آية الله الشيخ مهدي الخالصي في طليعة هؤلاء العلماء الكبار.

ولادته ونشأته

ولد الشيخ مهدي نجل الشيخ محمد حسين الخالصي في الكاظمية سنة ١٢٧٦ هـ (١٨٥٩ م) ونشأ في احضان اسرته العريقة بالعلم والتقوى تخرج منها عدد من العلماء وكان والده وجده عالمين، بدأ رحلة العلم منذ أوائل حياته وتنقلت به بين ثلاثة حواضر رئيسية، فعندما كان مقيماً مع والده في النجف قرأ مقدمات العلوم هناك على يد أبيه ثم عاد الى الكاظمية وأكمل دراساته في الفقه والاصول والكلام عند عدد من الافاضل منهم الشيخ عباس الجصاني، ثم رجع الى النجف ليدرس عند اكابر مجتهديها فلازم درس آية الله الشيخ حبيب الله الرشتي والشيخ كاظم الخراساني ومنها انتقل الى سامراء لحضور درس المجدد السيد محمد حسن الشيرازي ليعود أخيراً الى الكاظمية مجتهداً واستاذاً كبيراً.

والشيخ الخالصي عربي عراقي المولد، وكذلك اسرته، إلا انه اكتسب الجنسية الايرانية لغرض شخصي.

دوره العلمي

ولدى عودته الى الكاظمية سرعان ما أصبحت له حلقة درس واسعة هناك وتخرج على يديه عدد من العلماء الافاضل، وفي حقل التأليف ترك سماحته آثاراً واسعة في عدد من المجالات، منها منظومة في العلوم العربية تبلغ ألف بيت، وعشر رسائل مختصرة، وكتاب المنحة الالهية في ثمانية أجزاء، وكتاب القواعد الفقهية، وحاشية علىٰ كفاية الاصول لاستاذه الشيخ الخراساني، وكتاب الشريعة السمحاء في الفقه في ثلاثة اجزاء، وكتاب العناوين في الاصول يقع في جزئين، وآخر في الرجال[1].

---

(١) العاملي محسن الأمين، أعيان الشيعة، المجلد العاشر ص ١٥٧، كذلك، حرز الدين محمد، معارف الرجال ج ٣ ص ١٤٩.

بدايات الاسهام السياسي

بدأ الشيخ مهدي الخالصي حياته السياسية بالمساهمة في نشاطات الحـركة الدستورية الايرانية حيث يُعد من جملة العلماء المؤيدين لها، على ان ظهـوره البارز بدأ بعد وفاة آية الله الشيخ كاظم الخراساني، وبدءاً من العام ١٩١٢ وحتى وفاته في عام ١٩٢٥ سيندفع الشيخ الخالصي في جهاد متواصـل وكأنه ذو شوط واحد ضد التدخل الاجنبي في البلاد الاسلامية مبديـاً حمـاساً قل نظيره في هذا الاتجاه ففي أواخر آذار ١٩١٢، وصل العراق خبر قصف الجيش الروسي بالمدافع لمشهد الامام الرضا عليه السلام فاجتمع في الكاظمية العلماء والمجتهدون وفي مقدمتهم الشيخ مهدي الخالصي وقرروا اعلان الجهاد ضد روسيا، وكان نشاط الشيخ في هذا المؤتمر متميزاً حيث حرص على حضور كبار العلماء فيه وسافر الى النجف وسامراء لدعوة السيد آية الله كاظم اليزدي والميرزا الشيخ محمد تقي الشيرازي إليه[١].

---

(١) شبر، حسن «تاريخ العراق السياسي المعاصر» ج ٢ ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

دوره في حركة الجهاد
ضد الاحتلال البريطاني للعراق

في أوائل عام ١٣٣٣ هـ (أواخر عام ١٩١٤) بدأت بريطانيا تحقق ما كانت قد مهدت له طيلة ثلاثة قرون من النشاط التجسسي والتجاري والدبلوماسي المكثف فقد انزلت كتيبة تابعة لفيلق المشاة السادس عشر ايذاناً ببدء حملة عسكرية تستهدف احتلال العراق.

ويومها وجد الشعب العراقي نفسه فجأة يقف وحده في مواجهة اقوى دولة في ذلك العصر وبدأ يستجمع قواه والتجأ الى كوامنه الاسلامية التي ظهرت كأكبر قوة معنوية يمكنه الاعتماد عليها للخروج من المأزق الصعب الذي أصبح فيه وظهرت الاطلالة المشرفة لعلمائنا المجاهدين على ميادين الجهاد وأخذت الوفود منهم تتقاطر على الجبهات كل يبحث عن دوره وموقعه فيها فانقسموا الى ثلاث فرق ميمنة وميسرة وقلب.

أما الشيخ الخالصي فقد كان أشدهم حماساً للجهاد حيث وضع رسالة بعنوان (السيف البتار في جهاد الكفار) وأصدر حكماً اوجب فيه على المسلمين صرف جميع أموالهم في الجهاد وأخذ المال عنوة ممن يمتنع عن دفعه، ثم دعا علماء الكاظمية للاجتماع في الصحن الكاظمي الشريف

للمداولة في أمر الجهاد[١] وعندما تحركت قوافل المجاهدين نحو الجبهات سار في مقدمتها حتى وصل الجناح الايسر من المعركة المتمثل بجبهة الحويزة وقام بدور قيادة هذا الجناح وكان بمعيته نجله الشيخ محمد الخالصي والشيخ جعفر راضي والسيد محمد نجل السيد كاظم اليزدي والسيد كمال الحلي، وكان اثناء الجهاد حريصاً على وحدة المجاهدين ويقوم اضافة الى الدور الجهادي بدور توجيهي لبعض القادة العسكريين الاتراك، وذات مرة اراد القائد العسكري التركي توزيع مقدار من المال على العشائر المجاهدة فحذره الشيخ الخالصي من ذلك ولكن العسكري التركي أصر على الأمر، ولما فعل بدأ الاختلاف يدب بين المقاتلين[٢] والى جانب ذلك كان الشيخ الخالصي يبدي اهتماماً بقضايا المسلمين كافة، فعندما أعلن مسيو بيشون وزير خارجية فرنسا بياناً أدّعى فيه ان لفرنسا حقوقاً في سوريا وذلك في أوائل تشرين الثاني ١٩١٨ قام علماء الدين في الكاظمية بعقد اجتماع لهم في دار الشيخ مهدي الخالصي واعلنوا احتجاجهم على البيان المذكور[٣].

---

(١) الوردي. علي، «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج ٤ ص ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢.

(٣) آل فرعون، فريق المزهر، الحقائق الناصعة ص ٥٦.

الشيخ الخالصي وقضية الإستفتاء

بعد ان استكمل الانجليز احتلالهم للعراق بدأوا يخططون لاقرار قواعد نفوذهم الدائم فيه، فطرحوا قضية الاستفتاء حول المصير السياسي للعراق لاستحصال وثيقة سياسية تبين رغبة الشعب في بقاء الاحتلال في حالة من اغرب مهازل التاريخ، فالاحتلال الذي فرض نفسه على الشعب العراقي بعد اربع سنوات من الحرب يريد استخلاص وثيقة سياسية منه تؤيد بقاءه، وكأن حركة الجهاد وحرب التحرير التي دافعت اربع سنوات متواصلة ليس وثيقة سياسية كافية لاثبات رفض الشعب للاحتلال؟ من هنا لم يكن المقصود من الاستفتاء الا استغلال الظروف الثقافية والسياسية والاجتماعية السلبية التي كانت سائدة آنذاك إضافة الى استخدام وسائل القمع والتضليل لتحصيل الوثيقة المطلوبة فمن الوسائل التي استخدمها الانجليز آنذاك منع المخابرات والمكاتبات بين المدن العراقية والاشاعة في كل مكان بان العراقيين اظهروا رغبتهم في بقاء الانجليز، الأمر الذي أثار حفيظة آية الله الخالصي ففي الاجتماع الذي عقد في الكاظمية في ربيع الثاني ١٣٣٧ هـ (٨ كانون الثاني ١٩١٩) حضر من الجانب الانكليزي (بلفور) ومن الجانب العراقي علماء ووجهاء الكاظمية وفي مقدمتهم الشيخ الخالصي، وأظهر بلفور في بداية الاجتماع ان العراقيين يرغبون في بقاء الحكم الانجليزي فخاطب الشيخ الخالصي السيد محمد مهدي الصدر قائلاً: قل لبلفور اذا كان الأمر كما

تقول فكف عن منع مخابراتنا مع العراقيين لنرى رأيهم، ولما سمع بلفور ذلك تلجلج ولم يستطع الكلام فصرخ من كان في المجلس اننا لا نريد الانكليز ولا نرغب إلا في حكومة وطنية لا ترتبط بالاجانب فخرج بلفور مُغضباً[(١)].

وبعد خروجه نظم الحاضرون مضبطة يطالبون فيها بتأسيس حكومة عربية اسلامية يرأسها ملك عربي مسلم هو احد انجال الشريف حسين على ان يكون مقيداً بمجلس تشريعي.

---

(١) الوردي، علي، لمحات اجتماعية ج ٥ ق ١ ص ٧٧ ـ ٢٨ نقلاً عن الشيخ محمد الخالصي.

دوره في ثورة العشرين

بعد وفاة آية الله السيد كاظم اليزدي وتقلد الامام محمد تقي الشيرازي المرجعية والقيادة العامة ظهرت ضرورة تنظيم العمل الثوري والسياسي المعارضي وتسييره وفق توجيهات مركزية، فبادر الامام الشيرازي لتشكيل مجلس استشاري في كربلاء مكّون من عدد من كبار العلماء، ومهد لذلك بدعوة الشيخ مهدي الخالصي في أواخر ١٣٣٧ هـ (منتصف ١٩١٩ م) للاقامة في كربلاء نظراً لمكانته ونزعته الثورية الشديدة وعندما تم تشكيل المجلس الاستشاري كان أحد أعضائه البارزين وفي أوائل عام ١٣٣٨ (تشرين الأول ١٩١٩) بعث السيد أبو القاَسم الكاشاني رسالة إليه يقترح فيها عليه العودة الى الكاظمية لمساندة المعارضة في العاصمة إلا انه فضّل البقاء في المجلس الاستشاري حتى شهر رمضان ١٣٣٨ هـ (أواخر حزيران ١٩٢٠) حيث اندلاع شرارة ثورة العشرين وبعد ان انهى سنة في كربلاء انتقل الى الكاظمية ليقوم بدور النيابة عن قائد الثورة هناك.

وفي هذه الفترة أظهر الشيخ الخالصي كما في الفترات اللاحقة انسجاماً تاماً مع قائد الثورة فكان يتابع خطواته ويحث الآخرين على الالتحام مع هذه القيادة الربانية وعندما أصدر القائد الشيرازي في أواخر ١٣٣٧ هـ (صيف عام

١٩١٩ م) توجيهاته الى العراقيين الشيعة بحضور مساجد السنة أصدر الشيخ الخالصي توجيهات مماثلة بذلك[١].

(١) نظمي، وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية للحركة القومية في العراق، ص ٣٦٥.

دوره في مقاومة الإنتداب

وفي أواخر عام ١٩٢٠ تم للانكليز تصفية الثورة واجهاضها وإقامة حكومة مؤقتة برئاسة عبد الرحمن النقيب غير ان المعارضة الاسلامية واصلت نشاطها السابق باشكال جديدة، ففي جمادى الأولى ١٣٣٩ هـ (كانون الثاني ١٩٢٠ م) أصدر الشيخ مهدي الخالصي فتوى تنص على حرمة الدخول في وظائف الدولة الجديدة معتبراً ذلك بمثابة التعاون مع الكفار وقد لقيت فتواه رواجاً واسعاً وحظيت بتأثير كبير في أوساط الشعب[1] مما اسقط خطة المندوب السامي الرامية الى اغراء الشيعة بالوظائف الرسمية واخضاعهم بالتالي للتأثير الثقافي والسياسي الحكومي بعد عزلهم عن المعارضة، وقد حاول برسي كوكس اللقاء مع الشيخ الخالصي ومد الجسور معه عبر رئيس بلدية الكاظمية الذي نصحه بالمجيء الى الصحن الكاظمي وقت اداء الشيخ للصلاة وتم الاتفاق بينهما على ذلك ووقفا عند باب الصحن ينتظران مجيء الشيخ فلما وصل تقدم إليه رئيس البلدية واسمه جعفر عطيفة قائلاً: يا جناب الشيخ ان جناب المندوب السامي يحب السلام عليك ولكن الشيخ وضع عباءته على رأسه وأسرع بالدخول الى الصحن الشريف فور سماعه باسم المندوب السامي، دون ان يتكلم بحرف وعاد المندوب السامي وعميله

(١) الوردي، علي، لمحات اجتماعية ج ٦ القسم الأول ص ٤٤.

ادراجهما[1].

وفي شهر رجب ١٣٣٩ هـ (١٢ آذار ١٩٢١ م) أعلن مؤتمر القاهرة عن تسمية الأمير فيصل ملكاً لعرش العراق، فعمدت القيادة الاسلامية ممثلة بالسيد أبو الحسن الاصفهاني والشيخ آية الله النائيني الى صياغة مواقفهما بشكل جديد هو معارضة فكرة الترشيح للعرش قبل انجاز استقلال العراق استقلالاً تاماً وفي ذي القعدة ١٣٣٩ هـ (١١ تموز/ ١٩٢١ م) قررت الحكومة المؤقتة الموافقة على الأمير فيصل ملكاً لعرش العراق، غير ان فيصلاً لم يكن غافلاً عن أن مركز المعادلة السياسية يكمن في المعارضة لا الحكومة المؤقتة، فقام في اليوم التالي بزيارة لآية الله الشيخ الخالصي وأظهر له انه انما جاء لانقاذ العراق من الانجليز وان مهمته هذه لا تتم إلا بموافقة الشيخ ومبايعته له وإلا عاد الى حيث اتى فأجابه الشيخ «يمكن ان نبايعك على ان تكون ملكاً على العراق مستقلاً منقطعاً عن أي سلطة اجنبية بأي اسم كان فان تم ذلك بقيت في العراق ملكاً وإلا انصرفت وتركت العراقيين والانكليز حتى يأخذوا حقهم ويبلغوا غايتهم[2]، وافق فيصل على الشرط وأشهد الله على ذلك، وفي المقابل كتب الشيخ الخالصي كتاب البيعة ونشر في الصحافة الرسمية مؤرخاً بـ ٧ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ (١٣ تموز ١٩٢١ م) وهكذا ظهر على صعيد القيادة الاسلامية موقف جديد يختلف عن موقف المرجعية في النجف الاشرف، ويحدثنا الشيخ محمد الخالصي نجل آية الله الخالصي، انه بعد خروج الملك من الدار عاد الى والده يبدي له معارضته للبيعة ويذّكره بعمالة فيصل العريقة للانجليز والفرنسيين، فأجابه والده «ان فيصلاً فوق ما ذكرت ولكني خشيت ان يبايعه الناس بيعة مجملة ولا قوة لنا على طرده فيذهب حق العراقيين بامضائهم صك العبودية جهلاً ولو باسم فيصل فاردت

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٨ نقلاً عن الشيخ محمد الخالصي.

ان اعلّم الناس كيف يبايعون ليبقى حق العراق محفوظاً متى طالب العراقيون به»[1].

وقد حقق الشيخ هدفه وتعلم الناس منه البيعة المشروطة بالاستقلال وانتشرت هذه الصيغة بين أوساط الشعب مما أثار حفيظة الانكليز واقلقهم فاوعزوا الى المسؤولين في المدن بصياغة نص يؤيد الانتداب في متن البيعة، ويذكر الدكتور الوردي انه عثر في وثائق البلاط الملكي على رسالة شخصية مؤرخة في ٢٥ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ (٣١ تموز ١٩٢١) من مواطن من الديوانية مرسلة الى يوسف السويدي، يظهر فيها ان اهالي الديوانية يريدون الاقتداء ببيعة الشيخ الخالصي الا ان المستشار البريطاني فرض عليهم النص التالي: «ابايع الأمير فيصل ـ كذا ـ بان يكون ملكاً على العراق تحت وصاية الانكليز»[2].

ولكن الى جنب ذلك اتاح هذا الموقف لفيصل مكسباً جيداً في وقت شديد الحراجة وسار نحو عرشه في ١٨ ذي الحجة ١٣٣٩ هـ (٢٣ آب ١٩٢١) ولم يكد يبدأ الشهر الثاني في حكمه حتى بدأت المفاوضات بينه وبين الحكومة البريطانية بشأن معاهدة الانتداب، كما أثر سلبياً على وحدة القيادة اللاسلامية فقد ظل آية الله الاصفهاني وآية الله النائيني ينتظران ما تسفر عنه محاولة الشيخ الخالصي الجديدة، والفرصة المناسبة لاقناعه بالاقلاع عنها.

حتى جاءت غارة الوهابيين على العشائر الشيعية في بعض المدن العراقية في رجب ١٣٤٠ هـ (١١ آذار ١٩٢٢ م) وقد وجُه الاتهام فيها الى الانجليز، وذلك لأن العلاقة بين المندوب السامي كوكس وابن سعود كانت

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٥.

جيدة ومن غير المعقول ان يقوم الأخير بهجوم على العراق ما لم يحرز توافق او رضا المندوب السامي معه فيه، ومن المؤكد ان هذه الحادثة لم تقع صدفة وانها على علاقة وطيدة بالوضع الداخلي العراقي، فمن جهة كان الانجليز قد بدأوا توجهاً جديداً للانقلاب على الشريف حسين في الحجاز، وتعتبر هذه الحادثة من مؤشرات الدعم الانجليزي لابن سعود ضد الشريف حسين ومن جهة ثانية كانت الحكومة المؤقتة بحاجة الى التخفيف من وطأة المعارضة ومن شأن هذه الحادثة اشعار المعارضة بالحاجة الى الحكومة في دفع عادية «الأخوان» ومن جهة ثالثة كانت المفاوضات بين الملك والانجليز بشأن الانتداب قد تعثرت وطالت أكثر مما ينبغي لها، وكان الانجليز بحاجة الى اشعار الملك عملياً بانه لا يمكنه الدفاع عن العراق دون مساعدة الانجليز التي يوفرها نظام الانتداب له كما سيساعد هذا الهجوم مهمة الملك فيصل الداخلية على اساس ان هناك عناصر سياسية روحية مشتركة تجمعه والمعارضة الشيعية في الموقف من «الاخوان» فمن جهة يشتركان في الولاء لأهل البيت عليهم السلام ومن جهة ثانية يشتركان في العداء للوهابيين، الأمر الذي يخفف من وطأة الشيعية ويجعلها تعلق آمال الخلاص عليه.

غير ان الذي حدث عكس ذلك تماماً، فقد بدأ موقف الملك فيصل محرجاً بين المعارضة التي تتهم الانجليز بالحادثة وتدعو الملك ليكون الى جنبها، وبين العجز العسكري عن الرد وتباطؤ الانجليز في الرد، وأخذ رؤساء العشائر من ذوي السابقة في قيادة ثورة العشرين يعرضون على الملك امكاناتهم للاستفادة منها في الدفاع، فاندفع الملك يطلب من الانجليز امكانات عسكرية كافية للدفاع فرفضوا منه ذلك مما أدى الى ظهور فجوة بين الطرفين.

وفي هذه الاثناء عقد علماء النجف الاشرف عدة اجتماعات لبحث سبل معالجة الموقف وبعث السيد الاصفهاني والميرزا النائيني رسالة مشتركة

الى الشيخ الخالصي يدعوانه فيها الى عدم الاعتماد على وعود الحكومة في الأمر والحضور الى كربلاء للمشاركة في مؤتمر عام يعقد هناك في منتصف شعبان ١٣٤٠ هـ (نيسان ١٩٢٢ م) وكانت مناسبة جيدة لتوحيد صف القيادة من جديد كما وجد الشيخ الخالصي فيها مناسبة جيدة لاستدراج الملك الى صف المعارضة خاصة وان الأزمة بينه وبين الانجليز لا زالت قائمة، فأرسل رسالة الى الملك يدعوه فيها حضور المؤتمر كما بعث ١٥٠ برقية الى رؤساء العشائر وعلماء الدين من السنة والشيعة للغرض نفسه.

وعقد المؤتمر في الموعد المحدد له وشهدت كربلاء آنذاك ازدحاماً لم تشهده من قبل حتى عد الزوار بـ«٢٠٠ الف» أما الملك فقد اعتذر تحت ضغط المندوب السامي عن الحضور وبعث وزير الداخلية ممثلاً عنه كما ابرق الى المؤتمر برقية تليت على الحاضرين في اليوم الأخير منه.

وكان المندوب السامي يرى في المؤتمر تظاهرة سياسية تنظمها المعارضة بقيادة الشيخ مهدي الخالصي للضغط على الحكومة بالاستفادة من الأزمة القائمة بين الملك والانجليز حول المعاهدة لاقناعه بالدعوة الى الاستقلال ـ وان المعارضة ستستفيد من طلب الملك الامكانات العسكرية من الانجليز في توجيهها ضد الحكومة في حركة جهادية جديدة[١] ويؤيد هذا التحليل ما ذكره الشيخ محمد الخالصي من ان والده كان يخطط من خلال المؤتمر لعمل من نوع ثورة العشرين ضد الانجليز، وان يكون ذلك بحضور الملك ليكون مظهراً وحدوياً كاملاً يتقدم دعوة الاستقلال فيه الملك نفسه[٢]

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٣ ينقل المؤلف نص رسالة بعثها كوكس الى سكرتير الملك بشأن المؤتمر قبل انعقاده بخمسة أيام، تضمنت فقراتها هذا التحليل مع ذكر اسم الشيخ مهدي الخالصي فيها باعتباره راعياً للمؤتمر.

وبعد المؤتمر شرعت العشائر بسحب اعترافها من رؤسائها الموالين للانجليز واعدوا لذلك مذكرات سلمت نسخ منها الى الحكومة والى الشيخ الخالصي[1].

(١) الرهيمي، عبد الحليم، «تاريخ الحركة الاسلامية» ص ٢٤٨.

دور الشيخ الخالصي في معارضة الإنتخابات

في أوائل رمضان ١٣٤٠ هـ (١ مايس ١٩٢٢) نشرت الحكومة قانون الانتخابات لاعضاء المجلس التأسيسي، فبدأت بذلك مرحلة جديدة من الصراع بين المعارضة الاسلامية والحكومة، بدأها الشيخ مهدي الخالصي باعلانه الغاء البيعة السابقة التي منحت للملك فيصل باعتباره مصراً على الارتباط مع الانجلبز، وذلك في شوال ١٣٤٠ هـ (٢٦ حزيران ١٩٢٢ م) اثناء اجتماع عدد كبير من رؤساء العشائر وزعماء المعارضة معه في الكاظمية، وأعلن أمام جمع حاشد في مدرسته «لقد بايعنا فيصلاً ليكون ملكاً على العراق بشروط وقد اخل بتلك الشروط فلم يعد له في اعناقنا واعناق الشعب العراقي أية بيعة» وأعقب ذلك بفتوى تحرم الدخول في أجهزة الدولة[١].

وفي اليوم التالي توتر الوضع في بغداد واستمر متوتراً كما استمر الخلاف بين كوكس والملك فقد أبدى الاول رغبة في ضرب المعارضة ولما لم يجد حماساً من الملك للأمر قرر ان يأخذ المهمة على عاتقه فنشر في ذي الحجة ١٣٤٠ هـ (٢٦ آب ١٩٢٢) بياناً تهديدياً موجهاً لعموم شعب العراق

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦١.

وبعد يومين أرسل الى الشيخ مهدي الخالصي والسيد حسن الصدر ينذرهما بوجوب سفر ولديهما الشيخ محمد الخالصي والسيد محمد الصدر الى خارج العراق، كما أجبر الحكومة على المصادقة على المعاهدة العراقية البريطانية في أوائل محرم ١٣٤١ هـ (١٠ تشرين الثاني ١٩٢٢) وبعد يومين من هذا التاريخ أصدر وزير الداخلية محسن السعدون، أوامره الى المسؤولين في المدن بالشروع باجراء الانتخابات وبهذه السلسلة من الاجراءات العنيفة والصارمة اجبر كوكس الملك فيصل على تغيير موقفه والانصياع للتعليمات الانجليزية بدقة.

وهنا بدأت معركة الانتخابات بين المعارضة والحكومة وظهرت أولى بوادرها في الاستفتاء الذي وُجه في ربيع الأول ١٣٤١ هـ (تشرين الثاني ١٩٢٢) الى آية الله الاصفهاني وآية الله النائيني وآية الله الخالصي حول حكم المشاركة في الانتخابات وقد جاءت الاجابة منهم جميعاً بالتحريم، مع التأكيد المشترك على ان الدخول في الانتخابات والمساعدة عليها تعتبر محاددة لله ولرسوله[١] وفي فتوى ثانية نص الشيخ مهدي الخالصي على «ان المداخلة بالانتخابات وكل ما يبتنى على هذا الاساس المضر بمستقبل العراق، بل بجميع شؤونه محرمة شرعاً باجماع المسلمين ونحكم بخروجه عن ربقة المسلمين»[٢] وأيد علماء الكاظمية الشيخ الخالصي في فتواه ووحدوا صفوفهم خلفه.

ولأجل امتصاص النقمة والحماس الذي أوجدته الفتاوى في نفوس الشعب عمد الانجليز تحريك قضية الموصل بين العراق وتركيا لتحفيز الرأي العام ضد عدو خارجي وخلق أرضية مشتركة بينه وبين الحكومة إلا أن

---

(١) الوردي، علي، لمحات اجتماعية ج ٦ القسم الأول ص ٢٠٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٠٣.

العلماء كانوا في اعلى درجات الوعي لهذه الخطة فأصدر آية الله الخالصي وزميلاه النائيني والاصفهاني فتوى مشتركة بتحريم الحرب مع تركيا، الأمر الذي افتتح فصلاً حاسماً في المعركة بين الطرفين فقد أخذت الحكومة تشعر بضرورة التخلص من وجود العلماء في العراق بصورة ما، ووجدت الى ذلك طريقاً في الجنسية الايرانية التي يحملها هؤلاء العلماء، الا وهو تسفيرهم الى ايران وفي هذه الاثناء أعلن ملحق المعاهدة الذي ينص على تخفيض مدتها من عشرين سنة الى أربع سنوات ورأت الحكومة بذلك مناسبة جيدة لمعاودة الانتخابات فأرسل الملك الى الشيخ الخالصي بعض الاعيان لاقناعه بسحب فتوى التحريم ولكن المحاولات فشلت، بل ان الشيخ وبقية العلماء ساروا قدماً في التحريم، ففي أوائل شوال ١٣٤١ هـ (منتصف مايس ١٩٢٣ م) أرسل علماء النجف الى علماء الكاظمية وفي مقدمتهم الشيخ الخالصي يستشيرونهم في تجديد فتاوى التحريم بعد محاولة الحكومة خداع الشعب بملحق المعاهدة فأبدى الشيخ الخالصي وبقية علماء الكاظمية موافقتهم على الأمر، وبعد اسبوعين ظهر استفتاء ذيله ١٤ عالماً بتحريم الانتخاب وكتب الشيخ الخالصي في نهايته «نعْمَ ما حكم به حجج الاسلام وآيات الملك العلّام، ماض نافذ والرادَ عليهم راد على الله وهو على حد الشرك بالله»[(١)].

وهنا بدأت السلطات تصمم على تنفيذ ما خططت له، فقامت بالقاء القبض على احد ابناء الشيخ الخالصي، فرد الشيخ بالدعوة الى الاضراب العام، وقد استجاب الشعب له وكان ناجحاً، وفي ليلة ٢٥ ـ ٢٦ حزيران ١٩٢٣ داهمت الشرطة منزل الشيخ ونقلته الى محطة القطار ومن هنا تم نقله الى البصرة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١٧.

المجاهد العنيد في ايران

ومن البصرة تم نقل الشيخ الخالصي الى خارج العراق ولما وصلت الباخرة عدن توسط بعضهم لدى الملك لاطلاق سراحه فاستجاب لطلبهم وهناك أقام أياماً ابلغه اثناءها حاكم عدن طلباً من الحكومة الايرانية تدعوه فيه الى الاقامة في ايران هو واولاده فلم يعط رأيه في الأمر وقرر أداء الحج قبل كل شيء.

وفي هذه الاثناء كان علماء الدين في طهران يعبرون عن ردود فعل شديدة ضد الانجليز الذين تسببوا في نفي الشيخ الخالصي مما اضطر المفوض البريطاني هناك السير برسي لورين أرسال برقية الى القنصل البريطاني في جده يطلب منه الاتصال بالشيخ واستحصال برقية منه يوجهها الى رئيس الوزارة الايرانية يشكره فيها على دعوته الى ايران، لكن القنصل اعتذر عن الأمر لأن الشيخ لم يبق في جدة إلا ساعات قليلة، وفي مكة رفض الشيخ الخالصي زيارة الشريف حسين كما كانت تقتضي بذلك التقاليد الرسمية، لأنه كان يعتقد ان العلماء لا يقفون على ابواب الملوك، لكن مرافقه استطاع ان يقنعه بحضور السرادق الملكي الذي أعدّ لاستعراض الجيش وهناك التقى الخالصي بالملك الذي ابدى تكريماً واحتراماً فائقاً

له[1].

وأخيراً قرر الشيخ السفر الى ايران والموافقة على عرض حكومتها بالاقامة هناك ووصل الى قم في منتصف ربيع الأول ١٣٤٢ هـ (منتصف تشرين الاول ١٩٢٣ م) وهناك التقى بالسيد الاصفهاني والشيخ النائيني وغيرهما من العلماء الذين تم تسفيرهم الى ايران اثر موقفهم الاحتجاجي الذي اتخذوه للمطالبة بالافراج عن زميلهم الخالصي وبعد شهرين قرر الشيخ السفر الى خراسان والاقامة فيها وهناك استخار الله بالقرآن في بقائه في مشهد فخرج له قوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[2] ولم يكف الشيخ الخالصي هناك عن جهاده المقدس ضد الاحتلال البريطاني لبلاد المسلمين فقد أسس جمعية أسماها جمعية «استخلاص الحرمين وبين النهرين» وفي رجب ١٣٤٢ هـ (كانون الثاني ١٩٢٤ م) أصدر بياناً حث فيه المسلمين على الانتساب الى جمعيته والسعي لتطهير الاماكن المقدسة في العراق والحجاز من الكفار وطبع بخمس لغات[3].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٢) سبأ: ١٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٤٩.

وفاته قدس سره

بعد جهاد مرير ومتواصل لقى الشيخ مهدي الخالصي ربه في ١١ رمضان ١٣٤٣ هـ (٥ نيسان ١٩٢٥ م) وجرى له تشييع مهيب ودفن قرب روضة الامام الرضا عليه السلام وعطلت الاسواق والدوائر الرسمية وأقيمت مجالس الفاتحة على روحه الطاهرة في عدد من المدن العراقية كما سارت مواكب العزاء في الكاظمية وعطلت اسواقها.

المفكر الرسالي

الشيخ محمد جواد البلاغي



االشيخ محمد جواد البلاغي

لئن كان السيد جمال الدين الحسيني رمز المقاومة الاسلامية للمشروع التعريبي في المجال السياسي، فان الباحث لا يجد رمزاً لها في المجال الفكري غير الحجة الشيخ محمد جواد البلاغي، صحيح ان السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا وآخرين بذلوا جهوداً ونشاطات فكرية مضادة للغرب، إلا أنهم لم يركزوا على هذا الجانب الخطير من المعركة مع التغريب وانشغلوا بجوانب اخرى، بينما خص الشيخ البلاغي المعركة الفكرية كل جهده، ومع انه انشغل بالسياسة بين عام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ دفاعاً عن استقلال العراق وحريته إلا ان المحور الذي ظل يتحرك حوله طيلة حياته، والهم الذي الهب حماسه كان يتمثل في المعركة الفكرية، وسنجد كيف ان الشيخ البلاغي ذوّب كل وجوده واستخلص كل جهده واستثمر كل عبقريته الفذة من أجل المحور الذي لم يعطه الآخرون حقه فنراه ينتقد المناهج القديمة في تفسير القرآن ويكتب تفسيراً جديداً يركز فيه على ما يشتمل عليه القرآن من مفاهيم وجوانب علمية[1]، بما ينسجم مع متطلبات المرحلة متمنياً ان ينبه الله الأمة من غفلاتها فيكتبوا خيراً منه على حد تعبيره ويحث أهل العلم على ان لا يهملوا ما يلزمهم ويعنيهم في هذا العصر الذي يصفه بالتعيس، ويقدم نفسه اليهم مثلاً يحتذى في الفناء من أجل المبدأ المقدس، فيسعى لاجادة اللغتين الانكليزية والعبرية ويقيم اتصالات وحوارات مع عدد من المستشرقين، وينصرف الى التأليف ومكافحة التغريب

(١) البجنوردي، كاظم، دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١ ص ٤١٣.

الى حد الانعزال عن الناس ويرفض ـ مع كل ذلك ـ وضع اسمه على العديد من كتبه لكي يبقى عمله خالصاً لله تعالى.

من الإسرة الى القمة

اختلف المؤرخون في سنة ولادة الشيخ محمد جواد ابن الشيخ حسن النجفي البلاغي بين التواريخ (١٢٨٢ هـ ـ ١٨٦٥ م) (١٢٨٥ هـ ـ ١٨٦٨ م)، (١٢٨٠ هـ ـ ١٨٦٣ م) واختار الاول المحقق الشيخ آغا بزرك الطهراني[١] واختار الثاني السيد الأمين العاملي[٢] واختار الثالث كل من الشيخ محمد هادي الاميني[٣] والشيخ محمد حرز الدين[٤]، غير ان الأول أولى بالاعتبار لأن الشيخ آغا بزرك يرويه عن الشيخ البلاغي نفسه، وقد وافقه عليه علي الخاقاني[٥] والسيد توفيق الفكيكي[٦]، ينتسب الشيخ البلاغي الى اسرة علمية عريقة، اشتهرت بالفضل والنبوغ منذ أواسط القرن العاشر للهجرة، وقد أنجبت عدداً كبيراً من رجال العلم والأدب[٧] ومن الناحية التاريخية تعود

(١) الطهراني، اغا بزرك، نقباء البشر ج ١ ص ٣٢٣.
(٢) العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، مجلد ٤ ص ٢٥٥.
(٣) الأمين، محمد هادي، معجم رجال الفكر والأدب ص ٧٢.
(٤) حرز الدين، محمد، معارف الرجال ج ١ ص ١٩٦.
(٥) الخاقاني، علي، شعراء الغربي ج ٢ ص ٤٣٦.
(٦) الفكيكي، توفيق، الهدى الى دين المصطفى، مقدمة الطبعة الثانية ص ١٨.
(٧) الطهراني، اغا بزرك، مصدر سابق، انظر كذلك أعيان الشيعة مجلد ٤ ص ٢٥٥، ماضي النجف وحاضرها ج ٧ ص ٥٩.

هذه الأسرة في نسبها الى قبيلة ربيعة العربية الشهيرة.

بين هذه الأسرة العريقة ونوادي العلم والفضيلة التي تزين حاضر النجف الاشرف، أخذ الشيخ البلاغي ينتقل بين مراحل الكمال ويرتقيها مرقاة فمرقاة، مغتنماً عاملي الوراثة والبيئة باقصى الحدود، وهو يتخطى المسافة القصيرة بينهما والطريق الذي رسمه لنفسه بين اسرة عريقة وبيئة علمية ثرية، رافضاً نهج التكسب بالنسب، والاستجداء بعظام الموتى وان كانوا مقدسين، مستنداً في ذلك على ثقة عالية بالنفس، تشاطرها في العلو همة تحدث بأكبر الآمال وأقدس الطموحات، ولا تثنيها عقبات الطريق وثقل المسؤولية فانكب على طلب العلم يعبّ عبّاً وينهل منه على سعة ما عُرف عنه من ذكاء حاد وفطنة شديدة، وشوق ملتهب الى المعرفة، وكان من جملة اساتذته الحجة الشيخ اقا رضا الهمداني والشيخ محمد طه نجف والحجة الشيخ كاظم الخراساني، والشيخ الميرزا محمد تقي الشيرازي والسيد محمد الهندي والشيخ محمد حسن الافغاني وقد واصل دراسته على أيديهم حتى نال درجة الاجتهاد، هذا في العلوم الاسلامية اما العلوم المتنوعة الحديثة فقد درسها على نفسه، ولم يعلم استاذاً له فيما تبحر فيه من الفلسفة والكلام[١].

وكان قد انتقل في سبيل طلب العلم من النجف الى سامراء حيث اقامة الميرزا محمد تقي الشيرازي وبقي هناك عشرة اعوام الّف اثناءها كتابه «الهدى الى دين المصطفى» وكتباً أخرى ثم غادرها متوجهاً الى الكاظمية، فمكث فيها عامين ساهم اثناءها في المساعي المبذولة من أجل نيل الاستقلال، بعدها انتقل الى النجف الاشرف واستمرت اقامته فيها الى حين الوفاة.

---

(١) الحسيني، احمد، الرحلة المدرسية، المقدمة ص ٧.

عطاؤه العلمي

في وقت مبكر من حياته العلمية ذرّت العبقرية العلمية قرنها في شخصه وما هي إلا فترة قليلة حتى ظهرت مؤلفاته كواحدة من أبرز القمم التي بلغها الفكر الاسلامي في عصره، وليس من شك ان ضعف الصلة بين الحواضر الاسلامية تسببت في حرمانها من إبداعات هذا العبقري الفذ الذي لم تُكتشف منزلته خارج بيئته.

ولقد تميّز عطاؤه بخصائص ستبقى مثلاً يحتذى في عالم الفكر، كالعمق، والاصالة، والابتكار، والحجة الدافعة فيما يؤيد ويفند من افكار، يقول الأديب علي الخاقاني: «لم يكن ممن أكثر من الاسماء وجعل لها مسميات لا فائدة فيها أو مكررات عرفها الناس بل كان «رحمه الله» من أولئك الافذاذ الذين عالجوا كثيراً من المسائل والمشاكل وأوقفوا الحائرين على الهدى والحق[1]، ويقول أيضاً انه «أي الخاقاني» حضر درس التفسير «الاء الرحمن»، «فوجدته بحراً خضماً لا ساحل له، وكنا كثيراً ما نصارحه بقولنا: نرجو من الله أيها الشيخ ان يطيل عمرك لاكمال هذا التفسير وبعد ذلك لا يهمنا بقيت أم لم تبق»[2].

---

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق. ص ٤٤٠.
(٢) المصدر نفسه ص ٤٣٩.

لقد انكب الحجة البلاغي على ما انفرد به تقريباً على مستوى العراق، من القيام بواجب الدفاع الفكري عن العقيدة الاسلامية امام التحديات الصليبية والمنحرفة الحاقدة فلم يجده احد من المختلفين اليه إلا مجيباً على سؤال او محرراً رسالة او كاتباً في أحد المؤلفات[1].

ومن أجل قيامه بأداء رسالته وشغفه بشرف الجهاد في سبيله آثر الانزواء عن الناس لا يغادر غرفته ومكتبته، اللهم إلا في أوقات الصلاة وزيارة الحرم المقدس وفي خروجه للسوق لتموين عائلته بالغذاء اليومي[2].

ولقد أجادت براعته في انجاز ما كان قد ندبها اليه من مهمات ثقيلة ومقدسة واستطاعت ان تحقق الاهداف الموكلة بها من ابطال كيد المغرضين والمنحرفين وذلك عبر كوكبة من الكتب والمؤلفات الثمينة امثال «الرحلة المدرسية» (في الرد على التبشير) و «آلاء الرحمن» في التفسير و «نصائح الهدى» و «رسالة الى من كان مسلما فصار بابياً» في ابطال البابية والبهائية.

وهكذا اخرج الى عالم النشر «١٣ كتاباً» وبقي عنده «٢٥» كتاباً ورسالة دون نشر.

أما كتابه «الهدى الى دين المصطفى» فهو بلا شك يعتبر جوهرة عصره ولا زال كذلك بالنسبة الى بابه، وكان سبب تأليفه عثور الحجة البلاغي على كتابين اوقفهما مؤلفاهما على التهجم على الاسلام (على طريقة ينكرها شرع التحقيق في البحث والأدب والأمانة في البيان)[3] على حد تعبيره، ولأجل

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٣٨.
(٢) الفكيكي، توفيق، مصدر سابق ص ١٠.
(٣) البلاغي، محمد جواد، الهدى الى دين المصطفى، من مقدمة المؤلف.

الرد عليها انطلق الشيخ البلاغي لتأليف الكتاب الذي خلّد اسم مؤلفه وقدّم خدمة جليلة للاسلام والمسلمين، ومن فضائل هذا الكتاب ما ذكره الحجة السيد محمد تقي الحكيم حين حضر حفلاً كبيراً أقيم في الهند وكان بمعية الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد علي اليعقوبي وقد شاهد اثناء تجواله بين الكتب احد موظفي السلك الدبلوماسي اللبناني وهو يأخذ كتاب الهدى ويقبله ويضعه على رأسه متبركاً، فلما سألوه عن علة ذلك أجابهم بانه كان احد طلاب المدارس في لبنان وقد لاحظ وسمع من أساتذة تلك المدارس هجوماً متواصلاً على الدين الاسلامي والحط من شأنه مجاهرة امام الطلاب، وعن طريق المصادفة اشترى كتاب «الهدى» فقرأه وأدمن في قراءته فكان له الأثر البالغ في بقائه على اسلامه وتقوية عقيدته[١].

وفي مجال مكافحة الافكار الالحادية يرى الباحث الاستاذ عبد الحليم الرهيمي ان الشيخ البلاغي كان ثاني اثنين ممن سعوا الى تفنيد نظرية «دارون» ومكافحة فكر شبلي شميل الالحادي[٢].

اما منهجه رحمه الله في البحث والمناظرة فيتسم بموضوعية ورصانة كبيرتين، وقد تحدث عنه بنفسه في مقدمة كتاب «الهدى الى دين المصطفى» كتب يقول:

(لا يخفى على كل ذي رشد ومعرفة بطريقة البحث والمباحثة، ان مباحثةَ أهل الدين والاعتراض على جامعتهم واصل دينهم انما يحسن ولا يعد خبطاً ومرواغة عن الحق اذا كان البرهان عليهم بالمقدمات المنتهية الى بداهة العقل او المسلّمة عند عمومهم واذا كان الجدل والالتزام لهم بما يعلم انه من الدين الذي عكفوا عليه والقدر الجامع بينهم لا بما كان رأياً أو رواية

---

(١) فكيكي، توفيق، مصدر سابق ص ٧.

(٢) الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، ص ١٢٥.

يختص به واحد او آحاد من أهل ذلك الدين لا يفيد علماً ولا يذعن عموم أهل الدين بصحته او انه من دينهم ولأجل هذا لم أعتمد في هذا الكتاب في البرهان إلا على ما هو حقه من المقدمات البديهية لدى العقل والعقلاء ولم أجادل عموم النصارى والزمهم في جامعة دينهم والنصرانية التي عندهم إلا بما تسالموا الهاميته وصدوره عن الوحي وهي كتب العهدين، ولم أباحثهم خبطاً بآراء آحاد مفسريهم وعلمائهم او آحاد تقاليدهم التي لا توجب في دينهم علماً أو يأبى صحتها أغلبهم[1].

وفي إطار الحديث عن عطائه الفكري لا بد من الاشارة الى كوكبة رفيعة من العلماء الكبار قد تخرجت على يديه امثال المرجع الديني السيد أبو القاسم الخوئي والمرجع الديني السيد محمد هادي الميلاني والمرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي والسيد محمد صادق بحر العلوم والسيد نجم الدين العسكري وغيرهم.

---

(١) البلاغي، محمد جواد، مصدر سابق.

قدوة الرساليين

ولد الشيخ البلاغي وعاش في عصر امتحن فيه المسلمون بحملات تبشيرية واسعة كانت تستهدف صرفهم عن الاسلام وتشويه صورته في اذهانهم، فوجد نفسه معنياً بمهمة الدفاع عن الدين الحق ضد اغراض المبطلين والحاقدين، ومن أجل ذلك لم يشأ مواصلة الدراسات التقليدية في الفقه والاصول، ولم يقرر ما كان في طوع يده من بلوغ درجة المرجعية الدينية العليا التي ينهض بمهامها عدد كاف من العلماء الكبار، بل اختار طريق التأليف لينافح به عن الحق، ويدحض الباطل وسنرى انه كان يعيب على علماء عصره انصرافهم عما وجدوا من أجله مما هو محتاج الى جهدهم، كما يعيب عليهم ازدحامهم عند مجالات اخرى كان يكفي لاشباعها نصفهم او أقل من ذلك، ولم يقف في بذله وعطائه عند حدود، فلقد وهب جمجمته وكل وقته لله تعالى، وكان كل كتاب يكمل عنده لا يستطيع طبعه واخراجه حتى بلغ به الحال مرة ان باع اثاث بيته لتهيئة المال اللازم لطبع كتبه[1].

وفي هذا الطريق ابتعد عن الشهرة، لأن حب الله وحب العقيدة قد

---

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق، ص ٤٤٠.

استوليا على قلبه فلم يجد فيه مجالاً لنفسه فكان لا يقبل ان يضع اسمه على كتبه لئلا يشم من ذلك رائحة التبجح وقد سئل يوماً عن سبب ذلك فقال «المقصود من عملي ابراز الحق والدفاع عنه من أي طريق كان فلا فرق بين ان يكون قد جئت به انا او غيري فالغاية العمل»(١).

ولقد كان من مخايل رساليته وهمته وفطنته ما يبلغ بالمرء حد الاعجاب الشديد، فقد درس العلوم الحديثة على نفسه كما اتقن عدة لغات منها الفارسية والانجليزية والعبرية من غير معلم(٢)، وقد تعلم العبرية من صبيان اليهود وباعتهم المتجولين في سامراء وذلك أبان اقامته فيها، فكان يخرج على جلالة قدره الى الازقة يبتاع الحلويات حتى إذا رأى طفلاً من اليهود اعطاه شيئاً منها وسأله عن بعض ما يريد الوقوف عليه من اللغة، ومن الحكايات التي تذكر في كيفية تعلمه هذه اللغة انه كان احياناً يستوقف بائعاً جوالاً من اليهود ويشتري منه كل امتعته لا لحاجة فيها وانما لاغرائه بالاجابة على استفسارات لغوية بشأن العبرية(٣)، وكان غرضه من ذلك تعلم العبرية لكي يتمكن من خلالها فهم الثقافة اليهودية من أهلها لا بالواسطة ومن خلال كتب العهدين نفسها، وذلك من أجل الدراسة الموضوعية العلمية المعمقة الهادفة الى الكفاح عن شرع الاسلام وعقيدته ضد طعون الخصوم اما الانكليزية فلم يعلم حتى الآن كيف تعلمها(٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٣٩.

(٢) الفكيكي، توفيق، مصدر سابق ص ٧.

(٣) الحسيني، أحمد، مصدر سابق، ص ٧ ـ ٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٧، ذكر الشيخ أغا بزرك في نقباء البشر ان زميله في الدراسة الحجة البلاغي كان يجيد الانجليزية وذكر ايضاً ان الرسالة التي وضعها في وضوء الامامية وصلاتهم قد ترجمها الى الانجليزية ولم يذكر ما ذكره السيد احمد الحسيني في مقدمة الرحلة المدرسية من ان الشيخ البلاغي قد وضعها بالانجليزية، ويؤيد الشيخ اغا بزرك السيد الأمين العاملي في اعيان الشيعة، والسيد العاملي =

وبتلك القدرات الفذة والروح الرسالية العالية كان الملجأ الأمين لمن رام من المستشرقين الاطمئنان بازاحة الحجب عن وجه الحقيقة والحق، وقد أوصل الى ساحل اليقين عدداً من اعلام الغرب الذين كانوا يفزعون اليه في المسائل العويصة امثال المستشرق «خالد شردراك»[1] كما خلق آثاراً جهادية حية منها دوره في إثارة الرأي العام ضد البهائية في الكرخ وإقامة الدعوى في المحاكم لمنع تصرفهم في الملك الذي استولوا عليه واتخذوه حظيرة ـ كما في اصطلاحهم ـ لإقامة شعائرهم المنحرفة فانتزعه منهم بواسطة المحكمة وتم تحويله الى مسجد تقام فيه الصلوات والشعائر الحسينية[2]، ومن آثار رساليته ما تلمسه في طريقة طرح الافكار ومنهجية البحث في كتبه، فكتاب «الرحلة المدرسية» وضعه الشيخ البلاغي في صورة محاورات بين جماعة اجتمعوا للدرس النزيه في كتاب التوراة والانجيل والزبور والقرآن ولم ينسوا التطرق للمبادىء المادية ايضاً، فهو موسوعة معمقة في الالهيات المقارنة كتب بصورة حوار ليستفيد منها أعم الطبقات ولا يكون طرحها مملاً ولا ثقيلاً بل موجباً للرغبة والاشتياق.

ومـا أحسن ما تحدث به الشيخ أغا بزرك عن زميله البلاغي حينما كتب يقول: «... وقد وقف قبال النصارى وامام تيار الغرب الجارف فمثل لهم سمو الاسلام على جميع الملل والأديان وقد أصبح له الشأن العظيم والمكانة المرموقة بين علماء النصارى وفضلائها «ثم يقول» وقد اتصل به علماء (لوندره) وغيرها وكانوا يفزعون اليه في المسائل العويصة «ويضيف» وبالجملة فهو أحد نماذج السلف الذي ندر وجودها في هذا الزمن»[3].

= زميل آخر للشيخ البلاغي في الدراسة.

(١) الفكيكي، توفيق، مصدر سابق، ص ٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠.

(٣) الطهراني، أغا بزرك، مصدر سابق، ص ٣٢٤ ـ ٣٢٦.

اخلاقه وزهده

ولا يكاد ينقضي اعجاب المرء بالامتيازات العلمية لهذه الشخصية الفذة حتى يخضع لدورة جديدة من الاعجاب بأخلاقه وزهده وتقواه، فقد ورد في أكثر من مصدر عن حياته ان سماحته كان يشتري حاجياته بنفسه ولا يكلف انساناً آخر بذلك[1] وانه كان يحمل الغذاء اليومي لعياله بنفسه بعد شرائه من السوق ويعتذر عمن يروم مساعدته بحمله عنه بالقول: «رب العيال اولى بعياله»[2] غير مبال بالقشور والعناوين الفارغة وقلّ من يستطيع ان يميزه عن غيره من الناس[3].

وكان من تواضعه ـ قدس سره ـ انه لم يجعل اسمه الشريف على بعض كتبه المطبوعة مع ان كل منها يكفي لأن يكون مفخرة يفتخر بها العلماء[4] وكان يتنازل للنقد النزيه ويأخذ به ويكتب على ظهر كتبه «أؤكد الرجاء ممن له انتقاد او اعتراض أو افادة أو بحث في مطالب هذا الكتاب أن يتلطف بالمكاتبة بما عنده ويعاون على العلم وطلب

---

(١) الحسيني، احمد، مصدر سابق، ص ١٢.
(٢) الفكيكي، توفيق، مصدر سابق، ص ١٠.
(٣) الخاقاني، علي، مصدر سابق، ص ٤٣٨.
(٤) الحسيني، احمد، مصدر سابق ص ١٢.

الحقيقة»[1].

أما زهده فقد تحدث عنه أحد تلامذته قائلاً: «كانت غرفته صغيرة متواضعة لم يكن فيها من الفرش سوى حصير وبساط يجلس عليه، وليس فيها ما يدفىء الغرفة في الشتاء أو يبردها في الصيف مع ضعف مزاجه وانحراف صحته، وكان مع ذلك لا يخرج من هذه الغرفة إلا للحوائج الضرورية التي لا بد منها[2]».

ولعل أشد ما يوجب الاعجاب بشخصيته الاخلاقية زهده فيما يدَون من مؤلفات شامخة، فلئن أمكن للانسان ان يتواضع في حياته المعيشية ويزهد في مأكله وملبسه ومسكنه فان الصعب جداً عليه بثمرات فكره ونتاجات عقله، خصوصاً في زمن سيطرت عليه الزخارف، وهيمنت عليه العناوين وتجاذبته الدعايات والالقاب على حساب الحقيقة.

فما أكثر المتعجبين بوريقات ليس لها في ميزان الفكر رصيد، وان كان لها ذلك فهي لا توجب لصاحبها المنزلة التي يدعيها، فضلاً عن أنّ المنزلة توهب ولا تطلب، وهذا هو المبدأ الذي عمل به الذهب المصفى ونوادر الرجال أمثال الحجة البلاغي «قدس سره».

يذكر السيد محسن الأمين العاملي حادثة وقعت بينه وبين الشيخ البلاغي، خلاصتها ان السيد العاملي وعد الشيخ البلاغي بتدبير نشر تفسير «آلاء الرحمن» ولكن بعد ان استلم السيد العاملي الكتاب تأخرت عملية النشر، فكتب الشيخ البلاغي الى السيد الأمين رسالة يقول فيها: «الى حضرة سيدنا ومولانا العلامة حجة الاسلام دام ظله وأدام الله به عز الدين ومجد الشريعة، وكنت أحب ان اعرف رأيك في تفسير «آلاء الرحمن» وهل يعد في

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٦.

التفاسير أولاً، وقد وعدت بالأمر ببيعه لأجل نشره، وأسأل الله ان لا يكون قد صدك عن وعدك سقوط الكتاب من نظرك، مولاي، أقدمت على كتابته راجياً من الله ان ينبه الأمة في غفلاتها فيكتبوا خيراً منه، ألا ترى أن أهل العلم قد اهملوا ما يعنيهم ويلزمهم في هذا العصر التعيس»[1] .

ان القلم ليعجز ـ دون مبالغة او تكلف ـ عن وصف هذه القطعة الاخلاقية الرائعة الخالية من الاصطناع والتكلف، فالرسالة كتبت قبل وفاة الشيخ بـ (١٣ يوماً) أي في نهاية السبعين من عمره الشريف، يوم كانت له منزلة فكرية مرموقة جداً ولكنه في هذه الرسالة بلغ نهاية الزهد فيما يكتب، فـ «آلاء الرحمن» الذي سمعنا كلمة علي الخاقاني من قبل بشأنه «بحر خضم لا ساحل له» يتشكك الشيخ البلاغي في انه يعد تفسيراً من التفاسير ام لا؟ ويلجأ الى رفع هذا الشك بالاحتكام الى السيد الأمين.

ثم يبدي اعتذاراً عما يظن من ضعف في الكتاب بانه كتبه رجاء ان ينبه «الله الأمة من غفلاتها فيكتبوا خيراً منه» وهكذا تفعل الرسالة بأهلها، وهكذا يصنع حب الله بذويه، زهد تواضع وعطاء ورسالية سعتها الوجود بأكمله والطاقات باجمعها.

---

(١) العاملي، محسن الأمين ـ أعيان الشيعة، ج ١٧ ص ٦٣.

أدبه وشعره

والى جانب تلك المزايا العالية كان العلامة البلاغي شاعراً من فحول الشعراء تزخر اشعاره كباقي آثاره بالحماسة للدين والعقيدة او العواطف الوجدانية والتأملات الروحية ولغلبة الهم العقائدي والرسالي على شخصيته لم يشأ الشيخ البلاغي ان يحرم العقيدة من هذا السلاح الفعال فجاء شعره رسالياً منتظماً في مساجلات فكرية ومطارحات علمية حول أصول الدين وحقائق العقيدة، ومن ذلك قصيدته المعارضة لقصيدة ابن سينا في النفس التي مطلعها:

هبطت اليك من المحل الأرفع   عنقاء ذات تعزز وتمنع

فقال الشيخ البلاغي:

نعمت بان جاءت بخلق المبدع   ثم السعادة ان يقول لها ارجعي
خلقت لأنفع غاية ياليتها   تبعت سبيل الرشد نحو الانفع

ثم يقول في نهاية قصيدته:

كم قائل فيها يقول وسائل   وجوابه في (يسألونك) ان يع

ونظم قصيدة اخرى في ٢٥ بيتاً، في رد احد شعراء بغداد كان قد نظم قصيدة شكك فيها بوجود الامام المهدي عليه السلام فقال الشيخ البلاغي في جوابه:

اطعت الهوى فعصاني الصبر   فها انا مالي فيه نهي ولا امر
انست بهم سهل القفار ووعرها   فما راعني منهن سهل ولا وعر

ثم أخذ يستعرض فصولاً من الاعتقادات الامامية الاساسية حتى قال حول الامام المهدي عليه السلام مخاطباً الشاعر المنكر له:

وكم قال في اعلامكم مثل قولنا   به عارف وبحر ذو خبرة حبر
فكم في يواقيت البيان كفاية   يقلد في فصل الخطاب بها النحر
وذي روضة الاحباب فيها مطالب الـ   سؤول وفي كل الفصول لها نشر
مناقب آل المصطفى لشواهد الـ   نبوة فيها وهي تذكرة ذكر

فذكر في هذه الابيات اسماء جملة من المصادر غير الامامية التي نصت على ذكر قضية الامام المهدي عليه السلام.

١

وفاته

وفي أواخر حياته ابتلى (رحمه الله) بداء السل ولكن المرض الذي قضى عليه مرض (ذات الجنب) وذلك ليلة ٢٢ شعبان ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م).

وقد ارتجت لوفاته الحوزات العلمية والمحافل الاسلامية، وأقيمت على روحه مجالس الفاتحة في مختلف ارجاء العالم الاسلامي، ورثاه الكثير من العلماء والشعراء ومنهم السيد رضا الهندي «خال الشيخ البلاغي» اذ قال في قصيدة له بالمناسبة:

ان تمسي في ظلم اللحود موسدا　فلقد اضأت بهن انوار الهدى
ولئن يفاجئك الردى فلطالما　حاولت انقاذ العباد من الردى

ورثاه الشيخ الحجة محمد رضا المظفر بقصيدة قال فيها:

يا طرف جد بسواد العين أو فذر　ماذا انتفاعك بعد الشمس بالنظر

اما السيد محمود الحبوبي فقد قال في وصف تراثه العلمي:

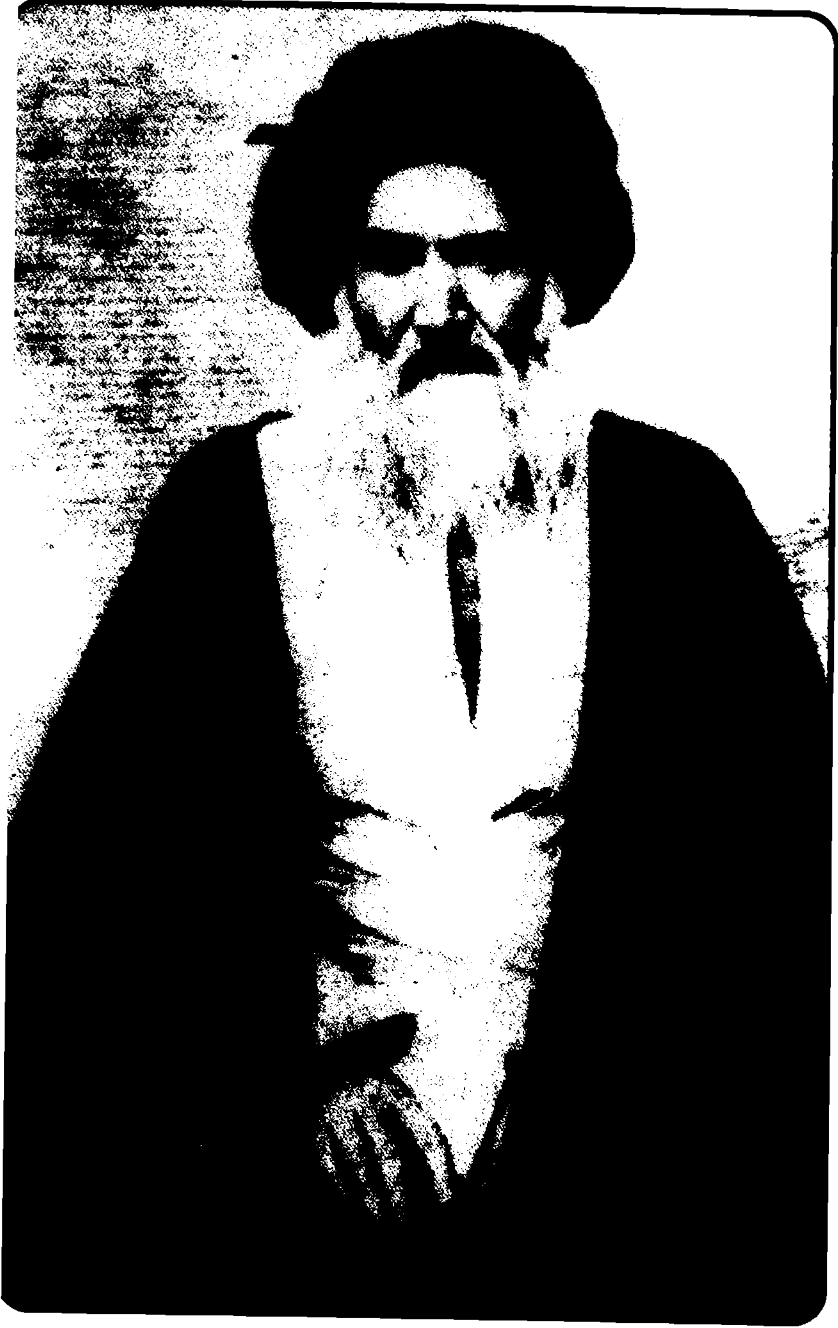
وابت نشر ما سميته كتبا　ودين الله سماها دروعا
فتى القلم الذي ان صر القى　صليل المشرفى له الخضوعا

وان رضع الرواة ترى شيوخ الضلالة تنفي ذاك الرضيعا

كما ترجمت حياته في أكثر من (٢٢) مصدراً من قبل علماء واساتذة دوّنوا تلك التراجم في موسوعاتهم الرجالية، أو صدر مؤلفات الشيخ البلاغي، وهكذا تكون عاقبة المحسنين وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

المرجع الأعلى

السيد ابو الحسن الاصفهاني



السيد ابو الحسن الاصفهاني

لعل اهم انتصار فكري حققه الاسلام على دعاة التغريب، يتمثل بافشال الفكرة العلمانية واثبات خطأها وسلبيتها فهي خاطئة لأن شمولية الاسلام دلّلت على العلاقة الصميمية بين الدين والسياسة، وهي سلبية لأن تجريد السياسة عن الاطار الديني يحوّلها الى رذيلة تسيء للانسان وتقوده الى الدمار.

وهذه النتيجة لم تتحقق من تلقاء نفسها، وانما تحققت بفضل العلماء الكبار الذين خاضوا غمار الحياة السياسية، وقادوا المعركة الحاسمة ضد التغريب، وحققوا انجازات عظيمة للمسلمين ما كان بالامكان تحققها لولا اسلامية القيادة، وليثبتوا في نهاية المطاف ان الربط - وليس الفصل - بين الدين والسياسة، ضرورة لا يمكن للحياة بدونها ان تأخذ زخمها وفاعليتها.

وتعتبر سيرة الامام السيد أبي الحسن الاصفهاني رحمه الله مثالاً بارزاً للقيادة الدينية التي ساهمت في تحقيق هذا الانجاز ومن هنا تنبع اهمية دراسة حياته من كافة جوانبها.

ولادته ونشأته

ولد السيد ابو الحسن بن السيد محمد الموسوي الاصفهاني سنة ١٢٨٤ هـ ـ ١٨٦٧ م، في قرية «مديس» من قرى اصفهان، وكان جده من العلماء الذين تتلمذوا على صاحب «الجواهر» الشيخ محمد حسن النجفي.

وقد دشن السيد الاصفهاني الحياة العلمية، منذ نعومة اظفاره حيث تلقى تعليماً اولياً في قريته، ثم رحل عنها في اوائل العقد الثاني من عمره الى اصفهان متابعاً رحلة العلم ومستجيباً لطموحات كبيرة كانت نفسه تحدثه بها وتستحثه على مزيد من الجد والاجتهاد، فدرس هناك عند ابرز علماء اصفهان آنذاك امثال الشيخ محمد الكاشي الشهير بتضلعه بالعلوم العقلية والرياضيات وواصل دراسته حتى اتم مرحلة السطوح، ومارس دروس البحث الخارج ايضاً غير انه لم يشعر بالاكتفاء بعد، وظلت حوافز النمو والارتقاء توظف همته العالية في اشواط دراسية جديدة، وتجعله يمد ببصره الى ما وراء ايران، الى النجف الاشرف قبلة العلم والعلماء، وفعلاً رحل اليها عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠)[١] وكانت الزعامة آنذاك للسيد المجدد محمد حسن

---

(١) هكذا ذكر السيد الأمين العاملي في أعيان الشيعة المجلد الثاني، صفحة ٣٣٢، بينما ذكر الاستاذ صالح الجعفري في كتابه «الامام السيد ابو الحسن الاصفهاني» ان=

الشيرازي المقيم في سامراء، فبدأ يدرس في النجف عند الشيخ حبيب الله الرشتي الى حين وفاته سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤ م) وبعده اختص بدروس الشيخ كاظم الخراساني في الفقه والاصول الى حين وفاته سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١) وبعد هذا التاريخ استقل بالتدريس واخذت الانظار تتوجه اليه كمجتهد كبير ومرشح بارز لمرجعية المستقبل، وقد تخرج من حلقة درسه عدد كبير من العلماء والمراجع الكبار امثال السيد محسن الحكيم والعلامة الطباطبائي والسيد حسن البجنوردي والسيد عبد الهادي الشيرازي.

سماحته هاجر الى العراق سنة ١٣١٠ هـ والاول اوثق لانه منقول عن السيد الاصفهاني نفسه، ومعلوم ان السيد العاملي صديق حميم للسيد الاصفهاني في مراحل التلمذة والمرجعية.

في معترك العمل السياسي

ينطلق العالم الديني في الحياة السياسية وفي ممارسته للعمل السياسي من مفهوم حيوي يعتبر هذا العمل جزءاً طبيعياً لا يتجزء من الوظيفة الدينية، وقد لا يعلم اكثر العلمانيين ان هذا المفهوم اكثر زخماً واخلاقية من المفهوم العلماني للعمل السياسي.

من هنا نجد آية الله السيد أبا الحسن الاصفهاني شأنه شأن باقي علماء الدين المسلمين يلتحم مع العمل السياسي بشكل تلقائي ويتعاطاه كجزء حساس من مسؤوليته الشرعية، وقد امتاز عن باقي العلماء الذين اسهموا في التغيير السياسي والاجتماعي بانه وقف الى جانب الاصلاح والاصلاحيين في المواقف كافة، خلافاً لعدد من اقرانه الذين دعوا الى الاصلاح في مواقع دون ـ او عارضوه في مواقع ـ اخرى فقد شارك السيد الاصفهاني في الحركة الدستورية التي انطلقت في ايران بقيادة الشيخ كاظم الخراساني منذ ظهورها، وكان احد معتمدي الشيخ الخراساني، كما شارك في ثورة العشرين ونشط في قيادة الحركة الاستقلالية في العراق وساند جمعية منتدى النشر الاصلاحية، وتبنى حركة السيد محسن الامين العاملي في مجال اصلاح الشعائر الحسينية، بل كان اسبق من السيد العاملي في هذا

المجال حيث اجاب على رسالة وردت اليه من ايران حول حكم الضرب بالسيوف والسلاسل على الرؤوس بان ذلك محرم كلياً، وذلك قبل قيام السيد محسن الامين بحركته المعروفة[1].

(١) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ٣ ص ٢٢٩.

مع الجهاد الإسلامي ضد الروس

عندما قام الجيش الروسي باحتلال شمال ايران استنجدت الأمة بما فيها الشاه القاجاري نفسه بالقيادة الطبيعية المتمثلة بالعلماء الذين اعلنوا الجهاد المقدس وهيأوا كتائب الدفاع وكان المرجع الاعلى الشيخ كاظم الخراساني قد افتى بذلك وهيأ نفسه لأن يكون في مقدمة المجاهدين الزاحفين نحو ايران، الا ان المنية شاءت اختطاف هذا القائد الفذ في اللحظة الحرجة، حيث توفي رحمه الله قبل الموعد المقرر لسفره الى الجهاد بيوم واحد، وذلك في عام ١٣٢٩ هـ ـ ١٩١١ م فتلكأت حركة الجهاد قليلاً لكنها ما لبثت ان اشتدت مرة اخرى بعد قرار العلماء في النجف الاشرف بتشكيل هيئة تتولى مهام الاعداد والتخطيط للعمل الجهادي، تتشكل من ثلاثة عشر عضواً من كبار العلماء كان السيد ابو الحسن الاصفهاني احد اعضائها البارزين.

مع الثوار في جبهات القتال

ومع ان مهام الدرس والتدريس والاعداد لمرجعية المستقبل نأخذ من الفقيه وقتاً كثيراً وجهوداً كبيرة، وتتطلب الانصراف الى البحث والتحقيق الا ان سيدنا الاصفهاني ظل يواصل نشاطه السياسي متنقلاً بين جبهة واخرى، فبعد جبهة «المشروطة» والدفاع عن آذربيجان دخل سماحته جبهة الصراع مع الانجليز دفاعاً عن استقلال العراق وهويته الاسلامية يحدوه الى ذلك شعور متواصل بضرورة نصرة قضايا الاسلام في المواقع كافة، فشارك في الاستفتاء على مصير العراق الذي أُجري في أواخر العام ١٩١٨، وفي منتصف احداث ثورة العشرين شاء القدر ان يختطف قائدها الكبير الشيخ محمد تقي الشيرازي في أواخر عام ١٣٣٨ هـ (١٧ ـ آب ـ ١٩٢٠ م) فبويع إثر ذلك الشيخ فتح الله الاصفهاني الملقب بشيخ الشريعة بالمرجعية والقيادة من بعده، وإثر ذلك القى سماحته خطاباً في الصحن العلوي الشريف تناول فيه اهم قضايا الساعة آنذاك واعتذر الى الثوار عن عدم قدرته البدنية على الحضور في جبهات القتال معهم فأخذ السيد الاصفهاني الراية وبعد ان ادى مراسيم الزيارة توجه الى جبهة الوند[١].

---

(١) الوردي، دكتور علي، لمحات اجتماعية في تاريخ العراق الحديث. ج ٥ القسم الاول ص ٣٠٩.

ويذكر المؤرخ فريق المزهر آل فرعون، ان السيد الاصفهاني لما وصل ساحة القتال وادى زعماء الثوار الصلاة بامامته طلبوا منه العودة الى النجف لانهم يحتاجون الى دعواته وإرشاداته اكثر من حاجتهم اليه في ساحة القتال[1].

---

(١) آل فرعون، فريق المزهر، الحقائق الناصعة، ص ٥٠٠.

قيادة الحركة الإستقلالية في العراق:

وستشكل هذه الانطلاقة الثورية بداية للحياة السياسية لآية الله الاصفهاني على صعيد العراق وسيبدي دوراً رئيسياً في قيادة الحركة الاستقلالية التي ظهرت في اعقاب ثورة العشرين.

ففي مطلع تشرين الأول من عام ١٩٢٠ وصل السيد برسي كوكس الى البصرة في طريقه الى استلام زمام الادارة السياسية في العراق بدلاً عن ويلسن الذي انتهت مهمته في هذا التاريخ وقد رافقت مجيئه دعاية حكومية لصالحه بهدف تحسين صورته في اذهان الشعب العراقي وجعله ينظر الى مستقبله في ظل الاحتلال على انه الحالة الافضل له، ولما وجدت القيادة الاسلامية ان هذه الدعاية قد فعلت فعلها السلبي في بعض القطاعات السياسية المحسوبة على الثورة، بادرت الى تشكيل لجنة مكونة من خمس شخصيات رئيسية تعمل تحت اشراف قائد الثورة شيخ الشريعة الاصفهاني ومهمتها التحذير من مخاطر الدعاية الحكومية وتوجيه الرأي العام نحو مواصلة المسيرة من أجل تحقيق الاهداف كاملة غير منقوصة، وكان السيد أبو الحسن الاصفهاني احد هؤلاء الخمسة البارزين[١] غير ان الوفاة المفاجئة

---

(١) النفيسي، عبد الله فهد. دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، ص ١٦٢.

لقائد الثورة شيخ الشريعة الاصفهاني في شهر كانون الاول من العام نفسه اي بعد اربعة اشهر من توليه الزعامة هيئت لكوكس اسباب النجاح في مهمته الرئيسية المتمثلة بتشكيل الحكومة المؤقتة وتهيئة الظروف المناسبة لتنصيب ملك لعرش العراق. فبعد تأليف الحكومة المؤقتة انصب جهد الانجليز على قضية العرش التي حُسمت فيما بعد في مؤتمر القاهرة الذي انعقد في ١٢ آذار ١٩٢١ وذلك بتسمية فيصل ملكاً على العراق.

وقد تفاعل الشارع العراقي مع هذا التطور الخطير خاصة عندما برزت قضية البيعة للملك في الايام الاولى لمجيء فيصل الى العراق، وأخذ العراقيون يتجاذبون الحديث حولها بين موال للملك ورافض له وثالث يقف في منتصف الطريق يشترط الولاء ويقنن الرفض.

وعلى صعيد القيادة الاسلامية ظهر خلاف فني بين اتجاهين، اتجاه يرفض مبايعة الملك ما لم يتحقق الاستقلال التام والناجز مسبقاً، ويتزعم هذا الاتجاه المرجعان البارزان الامام السيد ابو الحسن الاصفهاني والشيخ الميرزا محمد حسين النائيني، والاتجاه الآخر آمن بقضية الاستقلال وأولويتها على العرش لكنه اعتقد ان أخذ التعهدات والايمان من الملك فيصل على السعي لتحقيق الاستقلال كشرط لمبايعته اجراء يضمن الهدف المنشود، الا وهو الاستقلال، وتزعم هذا الاتجاه الشيخ مهدي الخالصي الكبير والسيد محمد الصدر، وواضح ان الاتجاه الاول يحظى بصفة تمثيلية اقوى لانه يمثل رأي مرجعية النجف الاشرف، وقد اثبتت الوقائع السياسية صحته فيما بعد، وانطلاقاً من قناعته بادر الشيخ الخالصي الى مبايعة الملك فيصل في ١٢ تموز ١٩٢١ اثناء زيارة الاخير له على ان يكون مقيداً بمجلس تمثيلي وان يكون الحكم دستورياً منقطعاً عن سلطة الاجنبي.

وبعد سلسلة من الاحداث تبين للشيخ عدم صحة الركون الى تعهدات الملك، واثر ضغوط السيد الاصفهاني والميرزا النائيني غيّر الشيخ الخالصي

رأيه وسحب بيعته للملك في العام التالي الذي شهدت فيه عدد من المدن الشيعية العراقية اعتداءات الوهابيين مما اعطى للحركة الاستقلالية زخماً اضافياً وساهم في وحدة الصف الاسلامي، حيث بعث السيد آية الله الاصفهاني والشيخ النائيني رسالة مشتركة الى الشيخ الخالصي يدعوانه فيها الى عدم الاتكال على وعود الملك والانجليز في دفع غائلة الوهابية والحضور الى مؤتمر شعبي عام يعقد في كربلاء في اوائل نيسان ١٩٢٢ وذلك ضمن فترة زيارة النصف من شعبان.

ولبى الشيخ الخالصي هذه الدعوة وعقد المؤتمر في موعده المحدد وكان السيد الاصفهاني في مقدمته، وقدر عدد الحشود التي وصلت كربلاء آنذاك بـ (٢٠٠ الف نسمة) وفي شهر آب في العام نفسه بلغت المعارضة الاسلامية اوجها، وأخذت اعداد المعارضين تتجمع وتتخذ من القيادة الاسلامية رمزاً لها، ففي ٢١ آب ١٩٢٢ تجمعت اعداد كبيرة من المعارضين للانتداب البريطاني، وذلك في النجف الاشرف للتظاهر ضد السلطة حتى بلغ عدد الزائرين ٣٠٠ الف زائر، وكانت المناسبة زيارة الغدير مما جعل برسي كوكس المندوب السامي الانجليزي يعبر عن قلقه الشديد بالقول «ان منطقة الفرات على وشك القيام بثورة كانت معالمها تدل على انها لن تكون اقل خطورة من تلك التي كانت هذه العناصر المتطرفة نفسها قد اثارتها سنة ١٩٢٠»[1] وكان المتظاهرون قد توجهوا بعد أداء الزيارة الى منزل السيد الاصفهاني وعقدوا هناك مؤتمراً أكدوا فيه على مطاليبهم الاسلامية والوطنية وذلك في مذكرة احتجاجية رفعوها الى الملك عن طريق متصرف كربلاء الذي استدعاه السيد الاصفهاني وابلغه قرارات المؤتمر[2]. وكانت المظاهرات قد انطلقت في ٤ آب ١٩٢٢ في مدينة النجف وعدد من مدن

---

(١) الوردي، علي، لمحات اجتماعية ج ٦ القسم الاول ص ١٧٩.

(٢) الرهيمي، عبد الرحيم، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، ص ٢٥٨.

الفرات تطالب بالاستقلال التام، وعقد اجتماع كبير في المشخاب حضره زعماء الفرات الاوسط وقرروا ارسال برقيتين واحدة الى الملك فيصل واخرى الى المندوب السامي والقيام بمظاهرة كبرى في النجف يوم الغدير.

وفي هذه الاثناء روج الانجليز لفكرة تشكيل حكومة من العلماء كمحاولة لاحتواء المعارضة الاسلامية واظهارها بمظهر انتهازي، فأبدى العلماء وفي مقدمتهم الامام السيد ابو الحسن الاصفهاني معارضتهم لها(١).

ومع اطلالة العام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣) حرّك الانجليز قضية جديدة على الساحة العراقية هي قضية الموصل التي لم تحسم آنذاك بين العراق وتركيا وأخذت الحكومة تظهر الأمر على انه قضية وطنية مقدسة يمتحن فيها الولاء الوطني وذلك لبلورة رأي عام عراقي مؤيد للحكومة ضد المعارضة الاسلامية التي سارعت وعلى لسان كبار العلماء وفي مقدمتهم السيد الاصفهاني الى اصدار فتوى مشتركة في ١٢ نيسان ١٩٢٣ تحرّم محاربة الاتراك اذا ما هاجموا العراق، وبذلك احبطت المؤامرة الامر الذي الجأ الحكومة الى اسلوب آخر هو محاولة التقرب من رؤساء العشائر واستمالتهم بتقديم بعض الاغراءات لهم مقابل التعهد للحكومة بالمشاركة في الانتخابات المقبلة، وهذا ما اشعل فتيل المواجهة الحاسمة بين الحكومة والمعارضة الاسلامية فقد تبنت المعارضة موقف المقاطعة للانتخابات ما لم تُلغ المعاهدة والانتداب واصدر الامام الاصفهاني الفتوى التالية:

«الى اخواننا المسلمين. . . ان هذه الانتخابات تميت الأمة الاسلامية فمن انتخب بعد علم بحرمة الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته ـ اي زيارة العتبات المقدسة ـ ولا يجوز رد السلام عليه ولا يدخل حمام المسلمين»(٢).

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٠.

ان قراءة متأنية لهذه الفتوى تدلنا على طبيعة الوعي الذي كان السيد الاصفهاني يتعامل من خلاله مع المعركة. فقد وصف المشاركة بالانتخابات بانها تميت الامة وهو من ادق التعبير واجمله في الاشارة الى الجذور الحضارية للصراع الدائر بين الاسلام والغرب، فان المشاركة في انتخابات تجري في ظل الانتداب يعني انتخاب الانجليز ـ اولاً وقبل كل شيء ـ اولياء على الشعب العراقي، وهذا ما لا يمكن ان يتم الا في امة انقطعت عن جذورها واصالتها وهي امة ميتة لا حياة فيها.

وبسبب هذه الفتوى ـ واجهت الحكومة صعوبة بالغة في تسيير الانتخابات، فقد استقالت اللجان الانتخابية في كربلاء والنجف والحلة والكوفة. وأعلن الموظفون في الكاظمية عن اخفاقهم في تأليف اللجان[١] فاضطرت الحكومة الى اشاعة ان العلماء لا يعارضون الانتخاب مما دفعهم الى اصدار فتوى مشتركة يؤكدون امر التحريم، وان المساعدة على الانتخاب تعني محاربة الله ورسوله واولياؤه[٢].

وهكذا اخفقت الانتخابات وسقطت الحكومة وقام عبد المحسن السعدون بتشكيل حكومة جديدة آخذا بنظر الاعتبار اولاً وقبل كل شيء كيفية التخلص من العلماء الذين يشكلون العقبة الرئيسية ضد نظام الانتداب والمعاهدة وكان التصعيد يسير بالمعركة الى نهاية اقرب، فقد قررت حكومة السعدون اعتقال الشيخ مهدي الخالصي ونجله وارسالهما الى البصرة ومن هناك الى الحجاز وطبقت ذلك في ليلة ٢٥ حزيران ١٩٢٣ م فعمت حركة اضرابات واسعة، وخرج خمسون عالماً من علماء النجف في تظاهرة احتجاجية، وهنا قررت السلطة اعتقال ابرز شخصيات هذه التظاهرة وفي

---

(١) الخليلي، جعفر، موسوعة العتبات المقدسة، قسم كربلاء، ج ٢ ص ٣٥٩.
(٢) الرهيمي، عبد الحليم، تاريخ الحركة الاسلامية في العراق، ص ٢٦١.

مقدمتهم الامام آية الله الاصفهاني وآية الله الشيخ النائيني، وبعد تنفيذ امر الاعتقال جرى تسفيرهم الى ايران في السنة نفسها (١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٣ م).

وفي ايران جرى استقبال منقطع النظير للعلماء حتى ان بعض الناس كانوا يرمون انفسهم امام السيارات[١] ومع ان حماس الناس وتعلقهم بالمرجعية امر مألوف الا ان ما جرى آنذاك كان له مغزى سياسي عميق حيث كان الاستقبال الجماهيري سياسي هذه المرة، حيث ابدت الجماهير من خلاله سخطها على الانجليز وتأييدها المطلق للمرجعية الثائرة ضد الاحتلال الاجنبي للبلدان الاسلامية، وشيئاً فشيئاً أخذت المظاهر المعادية للانجليز تستفحل لا سيما في العاصمة طهران، ومن جانبها قامت السفارة الروسية باستغلال الحادث، وأخذت تحرك الشيوعيين بهذا الاتجاه وكان الشيخ محمد الخالصي الذي تم نفيه الى ايران قبل ذلك يعد المهيج الرئيسي ضد الانجليز على حد تعبير المفوض البريطاني في طهران الذي كتب رسالة وجهها الى وزارة الخارجية البريطانية، بيّن لهم فيها دور الشيخ الخالصي في احداث طهران وحذرهم من ان الموظفين السوفيات في ايران بدأوا يستغلون حادثة تسفير العلماء لصالحهم، وتحت وطأة الشعور بالقلق من احتمالات انفجار الوضع في ايران قام المفوض البريطاني في طهران وهو السير برس لورين وعلى متن طائرة عسكرية بسفرة الى بغداد لاقناع سلطات الاحتلال البريطاني هناك بضرورة ارجاع العلماء الى العراق، وبعد مداولات مع الملك فيصل والمندوب السامي تم الاتفاق على ضرورة اعادة العلماء الى العراق، بعد اجراء الانتخابات والمصادقة على المعاهدة وملحقها، وذكر لورين انه حدث الشاه رضا بعد عودته من بغداد بان المشكلة واحدة في العراق وايران وان وجود المجتهدين كسلطة اعلى من السلطة الرسمية امر لا

---

(١) الوردي، علي، مصدر سابق، ص ٢٣٦.

يمكن القبول به[1].

وظل الامام الاصفهاني ورفيقه في ايران الى نيسان عام ١٩٢٤ حيث تمت عودتهما الى العراق بعد مداولات بين الطرفين واشتراط عدم تدخلهما في السياسة وبذلك بدأت مرحلة جديدة في الحياة السياسية للامام الاصفهاني، وللمرجعية الاسلامية بصورة عامة.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣٩.

معالم المرحلة الجديدة

لقد لاقت مسألة اشتراط عدم التدخل في السياسة من قبل الحكم الملكي وقبول السيد الاصفهاني به فهما سيئاً لدى الكثيرين، فقد اعتبرها البعض دليلاً على قلة الوعي السياسي وضمور القابليات القيادية، فيما اعتبرها آخرون اذعاناً بالفصل بين الدين والسياسة، غير ان الواقع لا هذا ولا ذاك ان التقييم الصحيح لموقف السيد الاصفهاني يتطلب منا تحليلاً لطبيعة المعركة التي كان يقودها فقد كان سماحته ورفيقاه الميرزا النائيني والشيخ الخالصي، يقود الفصل الاخير من المعركة الحاسمة بين المشروع الاستعماري التغريبي والمشروع الاسلامي الهادف الى حفظ هوية الامة واستقلالها وكانت هذه المعركة قد بدأت في عام (١٩١٤ م) وتواصلت باشكال مختلفة حتى عام (١٩٢٤ م) وطيلة هذا العقد جرت عدة معارك عسكرية وسياسية بين الطرفين كانت النتيجة الميدانية في جميعها لصالح المشروع الاستعماري الذي اخذ يتابع خطواته الواحدة تلو الاخرى، فبعد احكام السيطرة على العراق واحتلاله احتلالاً كاملاً والتغلب العسكري على حركة الجهاد عام ١٩١٤ وثورة النجف عام ١٩١٨ وثورة العشرين، تم تشكيل حكومة عملية مؤقتة ثم تنصيب فيصل ملكاً، وابرمت المعاهدة التي اقرّت نظام الانتداب.

بينما لم يحقق المشروع الاسلامي اياً من اهدافه على ارض الواقع،

فحركة الجهاد وثورة النجف وثورة العشرين لم تسفر عن عراق مستقل، وكانت قضية الانتخابات الفصل الاخير الذي عُلقت على تعويقه آمال الاسلاميين، وعندما لم يتسنَ لهم ما ارادوه وأجريت الانتخابات ولو بالصورة الزائفة المنسجمة مع طبيعة الحكم الملكي، اصبح المشروع الاسلامي في طور آخر واصبح ضرورياً على الاسلاميين ان يدرسوا مشروعهم بشكل مختلف ويدخلوا المعركة من ابواب جديدة لقد كانت السياسة ضرورة في حركة القيادة الاسلامية عندما لم يكن للاستعمار الا السياسة ميداناً ينطلق منه في مواجهة الاسلام ولم تعد كذلك عندما تحوّل الاستعمار البريطاني من تحدي خارجي الى دولة علمانية ذات مؤسسات واجهزة وخط فكري متميز ونخُب متغربة، أي الى تحدي حضاري داخلي يواجه الاسلام بمفردات الواقع المحلي الذي غدت تتراوح سلبيته بين نُخب متغربة علمانية تفهم التقدم على انه وصفة غربية يتم تناولها تحت اشراف طبيب غربي وبالتالي تمقت كل ما يمت الى الدين بصلة، وبين جماهير موالية للمرجعية ولكنها يسودها الجهل، واحياناً النزاعات القبلية بحيث ان السلطة القائمة استطاعت في الفصل الأخير من المعركة عزل هذه الجماهير عن قيادتها الاسلامية، فالعشائر التي واصلت وجودها المكثف في الفصول السابقة اختفت عن مسرح الاحداث عندما قامت السلطات بنفي الزعماء الدينيين الى ايران ولم تقف الموقف المناسب هذه المرة، من هنا فان موقف الامام الاصفهاني كان ينطلق من مراجعة شاملة لأسس المعركة وجذورها وخلفياتها، ولئن كانت المرحلة السابقة من حياته مشبعة بالسياسة انسجاماً مع طبيعة المعركة فان المرحلة التالية تتطلب تفرغاً تاماً لبناء القواعد التحتية للمجتمع المسلم الجديد في ضوء المعطيات الجديدة للحياة العصرية ومتطلبات الصراع مع الاستعمار الكافر، وهو ما يتطلب بدوره ابتعاداً عن السياسة التي فقدت اهميتها السابقة في المرحلة الجديدة.

ومن هنا وجدنا المرحلة التالية في حياة الامام الاصفهاني تتسم بالعمل

الثقافي والاجتماعي والتأكيد على الجانب العلمي الى حد بعيد، حيث قام بتأسيس العديد من المدارس الدينية في بغداد والنجف والبصرة وكربلاء، وكان يرعى ويساند مدارس ومؤسسات جمعية منتدى النشر التي أسست في عام ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م)، وشيد جهازاً مرجعياً واسعاً استوعب اربعة آلاف وكيل[١] توزعوا بين مناطق العراق ومدنه وقصباته، كما اهتمَّ بالتبليغ الاسلامي في أبعد المناطق فضلاً عن اقربها ومن ذلك اهتمامه بالمسلمين التركمان الشيعة في شمال العراق حيث ارسل اليهم المرشدين وكتب لهم رسالة عملية بلغتهم وبنى لهم المساجد والحسينيات[٢].

وتتكامل هذه الاعمال الثقافية مع اعمال الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء والسيد هبة الدين الشهرستاني والشيخ محمد جواد البلاغي وجهود جمعية منتدى النشر ومؤسسها الشيخ محمد رضا المظفر، لتكوّن بمجموعها مرحلة العمل الثقافي والفكري الاولى في الحركة الاسلامية المعاصرة في العراق.

ولقد نجح الاصفهاني الى حد بعيد في هذا المجال، مما انعكس على مرجعيته التي تميزت بخصائص فريدة كما سيأتي بعد قليل.

وانسجاماً مع هذا الاتجاه وجدنا السيد الاصفهاني يقف من الحركة التصحيحية التي تزعمها السيد محسن الامين العاملي بخصوص الشعائر الحسينية موقف التبني والدعم لما لهذه الحركة من اهمية خاصة في مجال اعادة بناء المجتمع الاسلامي المعاصر على أسس جديدة.

وإضافة الى هذا التحليل التاريخي الخاص بطبيعة الوضع العراقي آنذاك هناك عامل ايراني ساعد على عودة آية الله الاصفهاني الى العراق وقبوله شرط

---

(١) الجعفري، صالح، الامام الاصفهاني ص ٦٩.
(٢) العاملي، محسن الأمين، اعيان الشيعة، المجلد الثاني ص ٣٣٢.

عدم التدخل في السياسة ذلك ان العلاقة بين سماحته والشاه رضا بهلوي كانت سيئة جداً، وفي هذا المجال يذكر الشيخ محمد حرز الدين ان السيد آية الله الاصفهاني والميرزا حسين النائيني وعلماء كبار آخرين اجتمعوا مع رضا خان بهلوي وزير حربية شاه احمد القاجاري وتداولوا الحديث معه في وقت متأخر من الليل حول شؤون ايران وكانت هناك ظنون قوية ترجح سقوط الاسرة القاجارية وظهور الاسرة البهلوية كبديل عنها فاعطى رضا بهلوي العهود والمواثيق للعلماء على ان يسير برأيهم وان يكون مجلس الشورى تحت نظر خمسة من المراجع الكبار وينسب الشيخ حرز الدين قوله هذا الى شخصية موثوقة حضرت هذا الاجتماع ضمن حاشية العلماء المدعوين اليه[١] ولكن الشاه ما ان وصل سدة الحكم حتى قلب ظهر المجن للعلماء بل واعلن تمرده على قوانين الاسلام ودعوته الصريحة الى التغريب الكامل.

ومن الطبيعي ان لا يجد السيد الاصفهاني في مثل هذه الظروف فرصة كافية للتحرك في ايران لحساب أي من الساحتين الايرانية او العراقية في وقت تعيش الحوزة العلمية في النجف الاشرف جراحات عقد كامل من الصراع مع الانجليز وهموم البناء الجديد، وليس معقولاً اهمال مصير هذه الحوزة العريقة يتحكم به الزمن كيفما يشاء والبقاء في ايران حيث لا فرصة مؤاتية لعمل سياسي ولا حوزة علمية توازي في اهميتها اهمية حوزة النجف الاشرف، وقد ساءت العلاقة اكثر بين السيد الاصفهاني والشاه رضا بهلوي اثر قيام آية الله السيد حسين القمي بحركته المعروفة ضد الشاه في أواخر الثلاثينات وتبني السيد الاصفهاني لهذه الحركة الاسلامية ودعمه لها، بحيث اصدر الشاه أوامره بمنع ايصال الاموال الشرعية الى النجف الاشرف.

---

(١) حرز الدين، محمد، معارف الرجال، ج ١ ص ٤٩.

الإمام الإصفهاني وحركة مايس ١٩٤١

ولئن انقطع السيد الاصفهاني عن السياسة حيناً للاسباب التي ذكرناها، فانه ظل يتطلع الى الفرصة المناسبة التي يمكنه من خلالها تحقيق حلمه العتيد باستقلال العراق، حتى حلول عام ١٩٤١ وقيام رشيد عالي الكيلاني بمساندة عدد من الضباط العراقيين الكبار بحركة عسكرية كان هدفها تحقيق الاستقلال والقضاء على النفوذ الانجليزي في العراق، وهنا عاود سماحته النشاط السياسي فأصدر بياناً الى الشعب العراقي جاء فيه:

«ان الواجب الديني يقضي على كل مسلم بحفظ بيضة الاسلام وبلاد الاسلام بقدر استطاعته، وهذه البلاد العراقية المشتملة على مشاهد الأئمة ومعاهد الدين يجب علينا جميعاً محافظتها من تسلط الكافر والمدافعة عن نواميسها الدينية فالى هذا احتكم وادعوكم، وفقنا الله واياكم لخدمة الاسلام والمسلمين ان شاء الله تعالى»[1].

وتبدو على هذه الفتوى علامات الحذر واليقظة الشديدين فهي تدعو الى استقلال العراق من السلطة الكافرة وذلك باستثمار الظرف المناسب الذي

---

(١) الحسني، عبد الرزاق، الاسرار الخفية لحركة ١٩٤١ ص ٢٥٧.

وفرته حركة الكيلاني الا انها لا تعطي تأييداً ملموساً للحركة نفسها التي كانت هي الاخرى مشوبة بالولاء لالمانيا ولم تكن مستقلة.

خصائص مرجعيته

يذكر الاستاذ جعفر الخليلي ان ظهور السيد الاصفهاني على صعيد المرجعية والتقليد بدأ في أيام الميرزا محمد تقي الشيرازي حينما ضاق بعض التجار والاعيان ذرعاً باحتياطاته الكثيرة فطلبوا منه ان يعين لهم مجتهداً يرجعون اليه فيها، فاشار الميرزا الشيرازي عليهم بشيخ الشريعة والسيد الاصفهاني[1] وبعد وفاة شيخ الشريعة الاصفهاني برز سماحته الى المرجعية كأحد أبرز ثلاثة مجتهدين في النجف الاشرف الا ان الزعامة انحصرت به بعد وفاة الميرزا النائيني سنة (١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م) واصبح عليه ان ينهض باعباء المرجعية وحدَه، فاضافة الى التدريس وامامة الجماعة واستقبال الوفود كان عليه ان يجيب على البريد اليومي الذي كان يصله مباشرة ويجيب عليه بنفسه، وهو يشكل نصف بريد النجف وان يصدر الى العالم الاسلامي بريداً جوابياً هو نصف بريد النجف ايضاً[2].

وهذا ما كشف عنه مواهب ادارية وحنكة وقدرة عالية على الآداء الدقيق والواسع يندر نظيرها في نظرائه.

---

(١) الخليلي جعفر، هكذا عرفتهم ج ص ١٠١.
(٢) العاملي، محسن الامين، اعيان الشيعة، المجلد الثاني، ص ٣٣٢.

وقد ابتلى في عصره بالحرب العالمية الثانية وكان عليه ان يعالج انعكاساتها الاقتصادية السيئة على الشعب العراقي فأخذ ينفق على خبز الفقراء في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء بما.قيمته (٢٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ دينار) شهرياً، وهذا اضافة الى اعالة ما يقارب الفي عائلة وتسديد رواتب الوكلاء والمعوزين والعاجزين عن العمل حتى بلغت نفقاته في الشهر الواحد (٢٠ ـ ٣٠ الفا دينار عراقي)[١].

والى جانب ذلك شهد له معاصروه بالزهد فلم يكن يملك داراً وذات يوم بعث له الميرزا محمد تقي الشيرازي ٥٠٠ ليرة ذهبية ليشتري بها داراً له وهو في ايام حاجته فلم يمد يده الى المبلغ بل اودعه لدى بعض الخبازين وبدأ يحوله خبزاً للطلاب الفقراء.

وذات مرة منحه احد تجار ايران مبلغاً لشراء البيت المجاور للمسجد الهندي ليتخذ منه السيد الاصفهاني مقبرة يدفن فيها عند مماته فتسلم السيد المبلغ ثم انفقه في وجوه اخرى مبدياً امتعاضه من سذاجة الناس الذين يفكرون في القبور اكثر مما يفكرون في متطلبات العيش اليومي[٢].

كما عرف بورعه وتعلقه الشديد بالله تعالى ففي حادثة ذبح ابنه السيد حسن الاصفهاني حينما اقدم رجل مجنون على ذلك اثناء الصلاة خلف ابيه لم يتحرك السيد الاصفهاني من مكانه، وما علق بعد الانتهاء من الصلاة على الحادثة بشيء غير حوقلة ما سمعها احد منه اكثر من مرة واحدة، وفي اليوم التالي مشى خلف جنازة ابنه صابراً غير جازع ولا باك[٣].

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ١ ص ١١٦ هكذا ذكر المؤلف ولا بد ان يكون الباذل قد اعطى اذناً عاماً بالتصرف وتمنى على السيد شراء مقبرة له، لأن التصرف خلافاً لرغبة الباذل لا يصح كما هو معلوم.

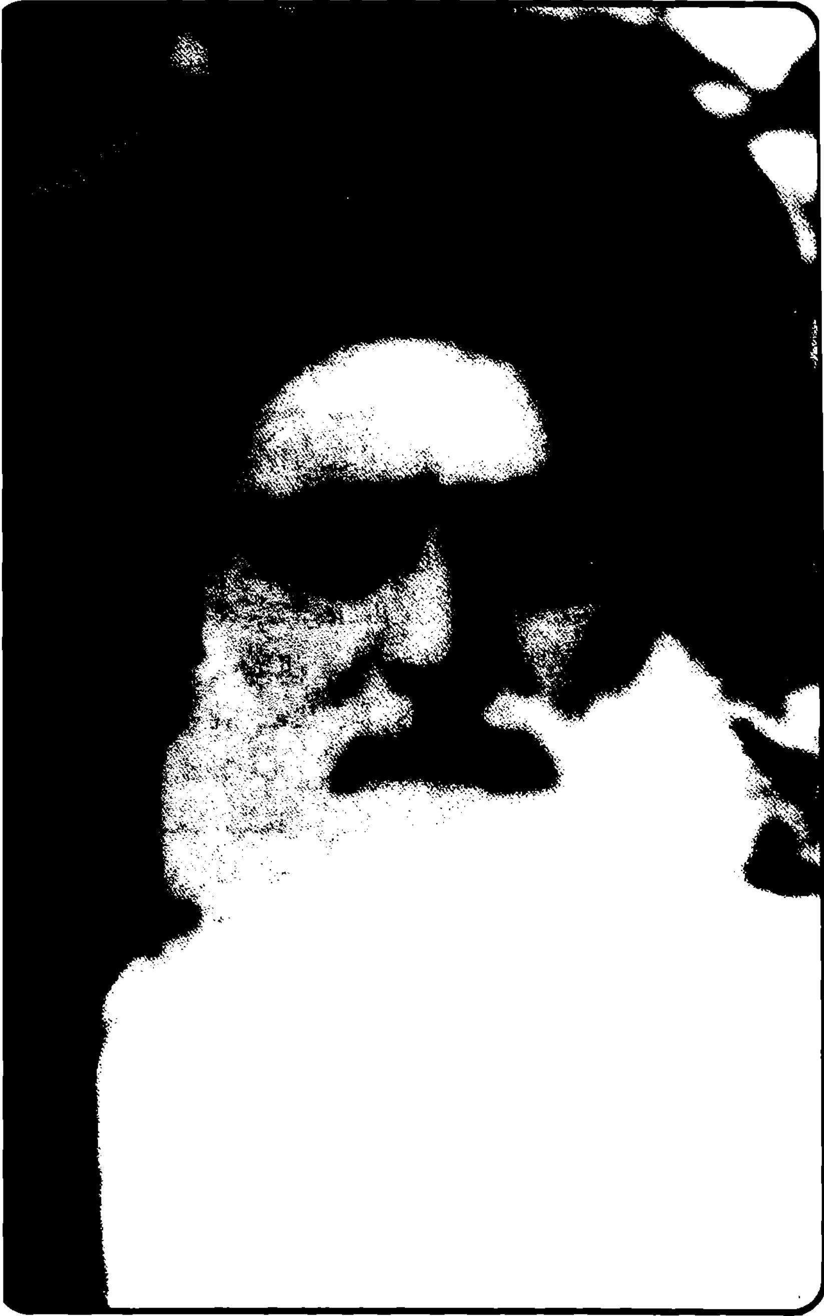
(٣) المصدر نفسه ص ١١١.

وفاته «قدس سره»

وفي السنوات الاخيرة من حياته، توالت عليه الامراض، حتى اشير عليه بضرورة الذهاب الى لبنان للاستجمام والراحة فذهب الى هناك وتحسنت حالته شيئاً ما، ثم رجع الى العراق، لكنه ما لبث ان انتقل الى بارئه في الكاظمية ليلة عيد الاضحى عام (١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٥ م) عن عمر يناهز الثمانين عاماً وشيع تشيعاً عظيماً لم يسبق له مثيل وعطلت اسواق طهران ثلاثة ايام كما أقيمت مجالس الفاتحة على روحه الطاهرة في أكثر انحاء العالم الاسلامي وحضرت مأتمه شخصيـات رسمية وشعبية ودينية رفيعة المستوى، ووفد من الزعماء الدينيين النصارى واليهود، ووقف الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء مؤبناً له بالقول: «هنيئـاً لك أبا الحسن عشت سعيداً ومت حميداً قد انسيت الماضين واتعبت الباقين كأنك ولدت مرتين».

داعية الاصلاح

السيد محسن الأمين العاملي



السيد محسن الأمين العاملي

اذا وضعت المجتمعات العقائدية موضع الدرس والتحليل والمقارنة، فلا شك ان المجتمع الاسلامي يمتاز عليها جميعاً بجملة من الخصائص الرئيسية، يأتي في مقدمتها قوة روافد الحس الاصلاحي، فالقرآن الكريم وحده يكرر مادة «صلح» بصيغ مختلفة اكثر من «١٨٠» مرة، ولا توجد مفردة اجتماعية اخرى حظيت باهتمام الى هذا الحد كما ان فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر التي يُعبر عنها الامام الصادق عليه السلام بانها اشرف الفرائض هي في الحقيقة فريضة الاصلاح الاجتماعي والسياسي، واضافة الى ذلك يلعب التاريخ الاسلامي دوره كرافد قوي آخر للحس الاصلاحي في المجتمع الاسلامي، حيث تنتظم فيه سلسلة كبيرة من الحركات الاصلاحية، وفي مقدمتها ثورة الامام الحسين عليه السلام التي رفعت شعار الاصلاح عبر قوله عليه السلام «انما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي» والتي لعبت على مر التاريخ دوراً مشهوداً في ايجاد وتقوية الوعي الاصلاحي قديماً وحديثاً عبر الشعائر الحسينية.

ومما لا شك فيه ان اقتران هذه الشعائر بعدد من المظاهر السلبية، جاء على حساب دورها التغييري المنشود، ومن هنا انتفض عدد من العلماء الكبار لازالة هذه المظاهر، وتنقية الشعائر الحسينية منها، وكان المصلح الكبير السيد محسن الامين العاملي رحمه الله الرمز البارز الذي تعنونت حركة اصلاح الشعائر الحسينية باسمه.

نشأته وتحصيله العلمي

ولد السيد محسن الامين في قرية شقرا من جبل عامل سنة (١٢٨٤ هـ ـ ١٨٦٧ م)[١] ابوه السيد علي ابن السيد محمد الامين، يرجع نسبه الى الحسين ذي الدمعة ابن زيد الشهيد ويتصل بالامام السجاد عليه السلام ٢٤ واسطة، وقد توارثت سلالته منذ القدم الزعامة الدينية والزمنية في جبل عامل، وذكر السيد العاملي ان اصل عشيرته من الحلة في العراق وهي نفس عشيرة السيد حيدر الحلي[٢] ولا شك ان لهذا النسب الرفيع اثر كبير في المكانة السامية التي احتلها العلامة السيد محسن الامين، فان الانتساب الى تاريخ عائلي مشرق بالزعامة والتقوى، والمرتبط في بدايته بسلالة العصمة والطهارة عليه السلام يسبغ على صاحبه خصائص رفيعة، ويحمل اليه ايجابيات ذلك التاريخ والنسب، اضافة الى الشعور بالثقة العالية بالنفس وقوة الشخصية، وهذا ما سنتبينه واضحاً عند مطالعتنا لشخصيته.

نشأ وحيداً لابويه، وكان لهما الفضل الكبير في تنشئته تنشئة علمية

---

(١) العاملي محسن الامين، اعيان الشيعة، مجلد ١٠ ص ٣٣٤ وهذا التاريخ ارجح مما ذكره السيد نفسه في خاتمة ديوانه «الرحيق المختوم» من ان ولادته كانت في سنة ١٢٨٢ هـ وذلك نظراً الى ان كتاب الاعيان احدث تأليفاً من ديوانه وهناك احتمال ان لا يكون السيد متأكد من تاريخ ولادته.

(٢) العاملي، الرحيق المختوم ص ١٤٢.

وأدبية اذ كانا يحثانه على طلب العلم والتزود من المعرفة، ففي السابعة من عمره جاءت به أمه الى معلم القرآن في القرية، ولكن ارعبه ما رآه في اليوم الاول من ذلك المعلم من الاساليب البشعة التي كان يستعملها في تعليم الطلاب وتأديبهم والتي كانت اقرب الى اساليب تعامل الشرطي مع المجرم او السيد مع العبد من تعامل المربي مع الجيل الناشيء المنفتح توا على الحياة، ومع ان ذلك كان امراً متّبعاً وتقليداً مستساغاً في عرف ذلك الزمان بصورة عامة، الا ان الصبي محسن كان يحس في نفسه تلك الروح الكبيرة والشخصية القوية التي تتوثب الى المعالي وتحدق بالآفاق العالية فأبت له نفسه ان يعود في اليوم الثاني، واصر على الرفض، لا خوفاً من تعزيرات المعلم التي لا يحدها قانون ولا شريعة، ولا فراراً من طلب العلم الذي لا يلتئم مع شخصية الصبي الساعية الى المرح والعبث، وانما ترفعا عن هذه الاساليب التي تهين كرامة الانسان العزيز النفس، وطلباً للاستعاضة عنها باساليب اكثر انسجاماً مع كبريائه وطموحه المبكر، فتولت والدته بنفسها تعليمه القرآن الكريم، كما تولى بعض افراد عائلته تعليمه الخط والكتابة وستترك هذه الحادثة اثراً كبيراً في سلوكه وتوجهاته الفكرية، فنجده عندما يذكر اساتذته يُفرد لاستاذه الشيخ آقا رضا الهمداني تمجيداً خاصاً ويعبر عن اعتزاز يتميز به، فيركز على حضوره لدرسه ويشيد بخصيصة انفرد بها هذا الاستاذ الجليل عن غيره، هي انه كان يقوم للقادم عليه من طلبته حتى اثناء الدرس، ولم ينهر احد من طلابه طيلة حياته قط. وانه عندما سئل عن بعض الاساتذة الذين يوبخون طلابهم اجاب: «هم ادرى بتكليفهم ولكن نحن لا نفعل ذلك»[1]، كما سيتكرر الموقف الذي وقفه في صباه من اساليب التعليم القديمة التي كانت رائجة آنذاك عندما سيبلغ موقعاً متقدماً في السُلّم الاجتماعي والديني فقد رفض الأخذ بطريقة القدامى في تأليف الكتب الدراسية وتدريس المناهج على انها طريقة مقدسة لا يمكن المساس بها

---

(١) العاملي، محسن الامين، الرفيق المختوم ص ٣٤٩ طبع دمشق سنة ١٣٣٢ هـ.

وينقل الشيخ محمد رضا الشبيبي عنه في هذا المجال انه «ثار مرة امامي على احد الاساتذة الجامدين الذين يقدسون طريقة القدامى ويحرصون على ان لا تمس وأن تبقى كتبهم على ما هي، قائلاً لماذا نحذو حذو الاقدمين؟ هم رجال ونحن رجال»[1].

وسنجد انه اول زعيم اسلامي انتبه الى ضرورة تأسيس مدارس حديثة للجيل المسلم، وقد اسس عدداً منها بالفعل وفي ايام صباه ايضاً تعلم السباحة وركوب الخيل.

كما قرأ على صغره ديوان ابي فراس الحمداني وبعد ختمه للقرآن وتعلمه القراءة والكتابة، بدأ بدراسة النحو والصرف ثم تفرغ لطلب العلم، فانتقل في سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٢) الى بلدة اخرى في جبل عامل لدراسة البيان والمنطق وبعد سنة واحدة انتقل الى مدينة بنت جبيل لمواصلة الدراسة عند السيد نجيب فضل الله، وبعد فترة عاد الى شقرا، غير مكتف بما ناله وهناك دلائل تشير الى عدم قناعته بالذين كان يدرس عندهم لضعفهم او لقوة النزوع العلمي لديه الأمر الذي دفعه الى ان ينتقل بين الاساتذة والمدن بحثاً عن ضالته المنشودة، ولما لم يجد في جبل عامل وضعاً دراسياً يشبع طموحه وجه نظره نحو النجف الاشرف وعلق آماله على الرحيل اليها، ولكن العوائق كانت تمنعه من ذلك وبقي ينتظر نحوا من خمس سنين مع الاستمرار في طلب العلم اثناء هذه المدة حتى غلب اليأس عليه واخيراً وفقه الله تعالى الى ذلك باسباب لم تكن تخطر بباله، فسافر الى النجف ام ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠ م) مع الشيخ حسين مغنية واستقر فيها متتلمذاً على أيدي كبار العلماء حتى عام ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) وكانت تلك الفترة من حياته فترة حضور مركز في الدرس والتصنيف مستبعداً عنه المشاغل الاخرى، وكان شديد الحرص على ان يحضر الدرس مهما كانت الموانع قوية وذات مرة اقام مع عياله قرب الكوفة، فكان يأتي من محل اقامته الى النجف مشياً على الاقدام ويحضر

---

(١) العاملي، محسن الامين، اعيان الشيعة، المجلد العاشر ص ٣٣٤.

الدرس دون تأخير وكأنه اقرب الناس اليه ثم يعود الى بيته[1].

وكان من اساتذته في النجف الاشرف الشيخ محمد طه نجف والشيخ كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني والشيخ اقا رضا الهمداني، وقد واصل الدراسة عندهم حتى بلغ رتبة الاجتهاد.

---

(١) العاملي، محسن الامين، الرحيق المختوم ص ٣٤٨.

العودة الى الشام

كان السيد الأمين (رَحِمَهُ اللهُ) مثال العالم العامل بعلمه، فلم يكن العلم بالنسبة له غاية، بل وسيلة يتخذها لخدمة الاسلام والأمة. ولذلك ما ان اكمل المراحل التي كان يراها كافية وضرورية له في التحصيل العلمي، حتى عاد الى الشام ليقوم بالادوار الاجتماعية والسياسية التي تنتظره والتي قد اهلّ نفسه من اجلها فترك النجف استجابة لدعوة وجهت اليه من اهالي دمشق يطلبون فيها حضوره اليهم كمرشد وزعيم ديني، وذلك في أواخر جمادى الثانية سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١ م) متوجهاً الى الشام. وفي دمشق استبدت به نزعة الاصلاح التي كانت قد استولت على شخصيته وظهرت معالمها عنده منذ صغره، فرفض ان يجعل وظيفته في دمشق تقليدية تقتصر على أداء الشعائر والافتاء وحل مسائل الزواج والطلاق بل حدد لنفسه وظيفة كبيرة، وندبها لمهام رفيعة لما اوتي من وعي وبصيرة وحس تغييري وشعور بالمسؤولية الاسلامية تجاه المجتمع المكبل بقيود التخلف والفقر والتمزق، وما كاد يستقر به المقام هناك حتى شخّص وبصورة مبكرة امراض المجتمع الشامي وعلله وهي كما جاء على لسانه:

١ ـ الامية والجهل المطبق فقد وجدنا معظم الاطفال يبقون اميين بدون تعليم وبعضهم يتعلمون القراءة والكتابة في بعض الكتاتيب على الطراز القديم.

٢ ـ وجدنا اخواننا في دمشق متشاكسين منقسمين الى حزبين بل احزاب وقد اخذت منهم هذه الحزبية مأخذها.

٣ ـ مجالس العزاء وما يتلى فيها من احاديث غير صحيحة وما يصنع في المشهد المنسوب الى زينب الصغرى المكناة بأم كلثوم في قرية راوية من ضرب الرؤوس بالسيوف والقامات وبعض الافعال المستنكرة، وقد صار ذلك كالعادة التي يعسر استئصالها لا سيما انها ملبسة بلباس الدين»[١].

وراح السيد العاملي رحمه الله يعالج هذه الامراض الثلاثة بصبر واناة وتجشم في هذا السبيل اعباء كثيرة كما هو شأن المصلحين في التاريخ.

فالأمر الاول عالجه بانشاء المدارس للبنين والبنات، والقى على عاتقها مهمة تعليم الناشئة تعليماً دينياً كما ادخل فيها العلوم الحديثة، وكان للجد وحس النية وما اوتي سماحته من نفوذ في قلوب الناس ما هيأ له من اسباب النجاح في اعماله، فتمت هذه المشاريع التي بدأت من الصفر واطردت اعمالها حتى اصبحت تضاهي المشاريع التعليمية الحكومية في المجالات كافة، من حسن في النظام وسعة في البناء وأصبح الناس يفضلونها على ما سواها من المدارس فكانت تتوسع عاماً بعد آخر، وهي مع ذلك لا تكاد تشبع الاقبال المتزايد عليها، وبلغت من الشهرة في مجال التربية والتعليم والنظم ما دعا احد الوزراء السوريين الى ان يبعث بابنته الى مدرسة البنات التي أسَّسها السيد الأمين رحمه الله قائلاً: «افضل الكمال الخلقي بهذه المدرسة على أي مدرسة اخرى».

ولاجل ان تتكامل اعماله ويتواصل عطاؤها انتبه السيد العاملي الى ضرورة تأسيس جمعيات خيرية تقوم بمهمة الدعم الاقتصادي لتلك المدارس والطلاب الفقراء الذين يدرسون فيها، فأسس «الجمعية المحسنية» و «جمعية رعاية الفقراء والايتام» ومهمتها تدبير المال اللازم لتعليم الطلاب الفقراء

---

(١) العاملي، محسن الأمين، اعيان الشيعة، المجلد العاشر، ص ٣٦١.

وكسوتهم، فيما كانت وظيفة «جمعية الاحسان» مساعدة عموم الفقراء، اما جمعية «المؤاساة» فقد كانت تهدف الى التأمين الصحي المجاني للفقراء[1]

ولعل نجاح هذه المشاريع التي كانت في يومها الاولى من نوعها حافزاً لظهور تجارب جديدة اكثر تطوراً منها كما حصل في النجف الاشرف عندما قام الشيخ محمد رضا المظفر بمساندة عدد من العلماء بتأسيس جمعية منتدى النشر والمدارس التابعة لها، ولم يكتف السيد العاملي رحمه الله بدور التأسيس واعبائه، فقد كان يمارس التوجيه الديني وتدريس بعض العلوم بنفسه لعموم الطبقات كما وفُق في جانب آخر من اهتماماته الى مكافحة الرذيلة والفساد الاخلاقي ونجح في ارجاع عدد من المبتذلات الى العفة وتزويجهن بازواج صالحين[2].

اما الأمر الثاني فقد سلك السيد العاملي بمعالجته طريقاً حاسماً، وهو ما عبّر عنه بالنظر الى الناس بعين المساواة وعدم التحيز لفريق دون آخر واذا كان للمساواة من أثر حاسم في رفع التشاكس والاختلاف بين الناس فان النجاح في ذلك لا يعود الى التشخيص النظري بقدر ما يعود الى القدرة العلمية على اقرار المساواة كواقع ملموس، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على عمق التأثير الذي كانت شخصية السيد الامين العاملي تحظى به في قلوب الناس.

اما الأمر الثالث ـ اصلاح الشعائر الحسينية ـ فقد عالجه السيد العاملي رحمه الله بقدر كبير من الجرأة والصبر حتى عاد عنواناً يلازمه اينما ذكر ومع انه كان مثاراً لاختلاف شديد بين الناس وانقسام حاد في صفوف اهل العلم، الا ان ذلك امرٌ لا يمكن تجنبه في كل حركة اصلاحية تسعى الى تخليص الدين مما علق به من غبار الماضي في زمن اشتداد الهجمة عليه.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٢٥.

(٢) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ١ ص ٢١٩.

السيد الأمين وحركته الإصلاحية

منذ زمن بعيد والمجتمع الاسلامي الشيعي يتطلع الى الاصلاح ويتشوق الى التغيير يحثه الى ذلك عاملان الاول نظري ويتمثل بالحس الاصلاحي الذي يعززه الاسلام ويكرسه التاريخ الاسلامي في اتباعه والمنتمين اليه، والثاني موضوعي ويتمثل بالواقع المؤلم الذي كان هذا المجتمع يعيش فيه على مختلف الصعد، ومع ان ذلك التطلع كان مشروعاً ومنطقياً الا ان محاولات الاصلاح في اغلب الاحوال لم تصل الى نتيجة سعيدة، بل جوبهت بردود فعل سلبية ادت بها الى الانكفاء والضعف والى ـ في احسن الاحوال ـ بطء عملية الاصلاح وعدم ظهور ثمارها الا بعد زمن طويل يتجاوز اعمار روادها الذين لا بد لهم من التضحية والاستعداد للاحتمالات الصعبة، وهذا يعني ان معركة الاصلاح تبقى مؤجلة الى حين ظهور رجل فريد وقائد من طراز خاص يقذف به الزمن في رحم الامة لتسعد به بعد حين.

وقد كان السيد العاملي رجلاً من هذا النمط تتوفر فيه كل مؤهلات الاصلاح الاجتماعي والسياسي، وقد شخص برؤية ثاقبة ان الشعائر الحسينية هي محور الاصلاح الاجتماعي كما ان الآداء السلبي لها يعتبر في الوقت نفسه من اسوأ مظاهر التخلف ذلك بان الشعائر الحسينية هي من اسمى ما يملكه المجتمع من وسائل التأثير والتغيير غير ان عامل التخلف يلعب دوره

السلبي في تحويل اثرها من الايجاب الى السلب، الامر الذي يلقي على كواهل المصلحين مهمة ازاحة هذا العامل واعطاء الشعائر الحسينية الفرصة الكافية والمناسبة لأن تؤدي وظيفتها الايجابية في رفد المجتمع بالحس الاصلاحي والوعي التغييري الذي تختزنه وتستمده من مصدر لا يكاد ينضب الا وهو واقعة كربلاء.

انطلاقاً من هذه الرؤية عمل السيد الأمين على اصلاح الشعائر الحسينية والتأكيد عليها وكان احد المؤسسين لها في دمشق ولنستمع اليه وهو يلخص لنا حركته بقوله: «اما الأمر الثالث وهو اصلاح اقامة العزاء لسيد الشهداء عليه السلام فكان فيه خلل من عدة جهات، منها ما يتلو الذاكرون من الاخبار المكذوبة والانماط الشائنة وبعض الاعمال التي تجري في المجالس.. وقرأ قارىء يوماً في الكاظمية فلم يذكر في ذلك المجلس حرفاً واحداً صادقاً، وكان الى جانبي السيد مهدي آل السيد حيدر فقلت له: اقسمت عليك بالله هل فيما ذكره هذا الرجل حرف صادق؟ قال: لا، قلت: فلماذا لا تنهون؟ قال: لا نستطيع، فجهدت في تنزيه هذه الذكرى المباركة عن مثل ذلك ونهيت القراء عن قراءة مثلها والّفت كتاب «لواعج الاشجان» في مقتل الحسين عليه السلام وانتقيته من الكتب المعتمدة ورتبته بأحسن ترتيب واردفته بكتاب «أصدق الاخبار في قصة الأخذ بالثأر» وبكتاب «الدر النضيد في مراثي السبط الشهيد» وبالنعي للشيخ محمد بن نصار، فراج ذلك رواجاً تاماً، ورأيت ان تدريب القرآء على قراءة الصحيح لا يتم الا بوضع كتاب، فألفنا كتاب «المجالس السنية في مناقب ومصائب النبي والعترة النبوية» في خمسة اجزاء، ومن جهات الخلل في اقامة العزاء جرح الرؤوس بالمدى والسيوف ولبس الاكفان وضرب الطبول والنفخ في البوقات وغير ذلك من الاعمال، وكل هذا محرم بنص الشرع وحكم العقل بل يترتب عليه زيادة على انه ايذاء للنفس الضرر الديني وهو ابراز شيعة اهل البيت بصورة

الوحشية والسخرية»[1] والف في اثبات حرمة ذلك رسالة خاصة سماها «التنزيه» ومضى الى اكثر من ذلك حينما طالب الخطباء بآداء القراءة الحسينية بالفصحى لاظهار المجلس الحسيني بمنظر يجذب اليه الطبقات المثقفة من الشعب وليتمكن الخطيب من آداء رسالته على وجه أكمل يقول سماحته في احد كتبه:

«وعندنا ان من اهم الامور ايجاد مدارس لقراء التعزية يتعلمون فيها النحو والصرف بما يستطيعون به حفظ السنتهم من الغلط، وكيفية الرجوع الى كتب اللغة لضبط الالفاظ العربية والخطابة ويتمرنون على القاء الكلام في المجتمعات على معرفة المقامات المناسبة لانواع الكلام ويحفظون الاحاديث والاخبار الصحيحة والقصائد الجيدة ما يمكنهم قراءتها في المكان المناسب له ـ ويعرفون ما يجب تجنبه من الاحاديث المكذوبة والتي لا يوافق قراءتها او القصائد الركيكة وبهذه الوسيلة تخلص القراءة مما يحتويها من العيوب والمفاسد»[2].

لقد احدثت هذه الحركة التي اطلقها السيد العاملي في دمشق في أواخر العشرينات انقساماً حاداً في المجتمع والحوزة العلمية، فقد ايده فيها المرجع الديني السيد أبو الحسن الاصفهاني الذي كان قد افتى قبل ذلك بحرمة استعمال السيوف والسلاسل والطبول والابواق وما يجري من امثال ذلك في موكب العزاء باسم الحزن على الامام الحسين عليه السلام [3] الا انها لم تثر ضجة في الاوساط الحوزوية لأن سماحته اكتفى بطرحها كفتوى ولم يعمل على تحويلها الى حركة اصلاحية كما فعل السيد العاملي، كما ايده فيها الشيخ عبد الكريم الجزائري والسيد هبة الدين الشهرستاني بينما خالفه الشيخ

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) الامين العاملي، محسن، رحلات السيد محسن الامين ص ٦٢.

(٣) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ١ ص ٢٠٧، هكذا اورد مضمون فتوى السيد الاصفهاني في رسالته باللغة الفارسية انظر كذلك الجزء الثالث ص ٢٢٩.

محمد الحسين آل كاشف الغطاء والميرزا حسين النائيني اللذان افتيا بجواز هذه الاعمال الأمر الذي يفتح امام الباحث مجالاً واسعاً للتحقيق في الخلفيات الاجتماعية والثقافية والفقهية لهذا الاختلاف الحاد بين علماء كبار ساهموا جميعاً في عمليات الاصلاح ويمثل كل منهم صفحة مشرقة في تطور الحركة الاصلاحية بالنسبة للمجتمع الشيعي المعاصر.

فالميرزا النائيني الذي يُعد من رموز الاصلاح السياسي المعاصر حيث كان المنظّر الفقهي للحركة الدستورية الايرانية عبر كتابه الشهير «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء المصلح الاجتماعي والسياسي الكبير والشيخ محمد رضا المظفر المصلح الكبير على صعيد الحوزة والمناهج الدارسية فيها، والشيخ محمد جواد البلاغي اسطورة المواجهة مع التبشير والتغريب والسيد عبد الحسين شرف الدين رائد الاصلاح والتقريب بين المذاهب الاسلامية، يعارضون حركة السيد العاملي ولا يرون في عنوان الاصلاح قاعدة مشتركة تجمعهم واياه على صعيد واحد.

ترى ما السبب في هذه المفارقة الغريبة؟

هل هو الاختلاف الفقهي المحض؟ ام الاجتماعي؟ ام الثقافي؟

ومهما يكن الجواب، فان هذه المفارقة تسجل على رواد الحركة الاصلاحية في المجتمع الشيعي المعاصر نقطة مهمة هي عدم تكامل المشاريع الاصلاحية فيما بينها وانطلاق كل منها بشكل منفصل عن الآخر الأمر الذي اربك العاملين في حقول الاصلاح وجعلهم عرضة لهجوم السذج والبسطاء من الناس، فعندما افتى السيد هبة الدين الشهرستاني بعدم جواز نقل الجنائز من الاماكن البعيدة الى النجف الاشرف والفت رسائل فقهية ضده منها رسالة للسيد عبد الحسين شرف الدين بعنوان «بغية الفائز في جواز نقل الجنائز» انتهى الامر الى موجة عارمة بوجه السيد الشهرستاني، وعندما

انتكست حركة الدستور الايرانية عاش العلماء المؤيدون لها محنة قاسية من قبل المجتمع الاسلامي نفسه حتى اضطر الميرزا النائيني الى شراء كل نسخ كتابه «تنبيه الملة وتنزيه الامة» واتلافها وكأنه يعلن بذلك براءته من الحركة.

وعندما قام الشيخ محمد رضا المظفر بمحاولة لتنظيم الدراسة الحوزوية تعرض لمعاناة شديدة أدت به الى اعتزال المجتمع اما جزاء السيد العاملي من حركته الاصلاحية فقد كان أشد حيث اعتبر اموياً وأخذ البسطاء والسذج يلعنونه عند توزيع الماء على المشاركين في المجالس الحسينية وفي محرم سنة الفتوى ازداد عدد الضاربين بالسيوف والسلاسل الا ان موقف التأييد والتبني الذي التزمه آية الله السيد الاصفهاني للحركة ورائدها ساهم الى حد كبير في تغيير اتجاه الرأي العام، وقد كان اثره واضحاً في الزيارة التي قام بها السيد العاملي الى العراق سنة (١٣٥٢ هـ ـ ١٩٣٣ م) حيث اشار السيد الاصفهاني الى اهمية استقبال سماحته بشكل لائق مما الهب شعور الناس وجعلهم يتقدمون لاستقباله وينزلون على يديه يقبلونها ويطلبون منه العفو عن ما مضى[١].

(١) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ١ ص ٢١٧.

دوره السياسي

والى جانب الدور الاصلاحي الذي قام به السيد العاملي على الصعيد الديني، قاد سماحته في سوريا حركة سياسية كبيرة كان لها الأثر البالغ في توطيد عرى الوحدة الوطنية وطرد الاحتلال الفرنسي، وقد استطاع من خلال ذلك ان يجسد صورة القائد الاسلامي الذي يحمل هموم الأمة ويدافع عن قضاياها ويعيش مضحياً من اجلها، فغدا رمزاً من رموز التحرير في العالم الاسلامي مؤكداً بذلك فضيحة العلمانيين الداعين الى فصل الدين عن السياسة، فشعار التحرير الوطني ما كان يوماً حالة واقعية على صعيد العالم الاسلامي الا عندما كان العلماء رواده، وما عاد خالياً من محتواه الا عندما اقصي هؤلاء العلماء عن الميدان وقام العلمانيون بشؤون السياسة ليجعلوها لصيقة بالغرب والغربيين.

ففي عهد الاحتلال الفرنسي في سوريا عرض الفرنسيون على سماحته منصب رئاسة العلماء والإفتاء بمعاش كبير ودار وسيارة فارهة وارسلوا احد الضباط من بيروت الى دمشق كي يعرض عليه الأمر، هنا يقول وجيه بيضون الذي كان مترجماً بين الطرفين «فلما ان مثل بين يديه في صومعته الصغيرة وكنت ترجمانه قال الضابط: انه قدم لزيارته ثلاث مرات حتى اسعده الحظ بلقياه، فما كان من سماحته، الا ان امرني ان اكذبه لانه لم يحاول الزيارة اكثر من مرتين، فتلطفت بنقل تكذيبه الى الضابط الذي اعتذر عن خطئه ثم

ادلى بالغاية التي قدم من اجلها وكان يترقب كل جواب الا الجواب السلبي الذي جابهه به سيدنا الامين اذ قال: «انني موظف عند الخالق العظيم وسيد الاكوان ومن كان كذلك لا يمكن ان يكون موظفاً عند المفوض السامي فاشكره بالنيابة عني على ثقته بي واحمل اليه ان المعاش الكبير والمركز الخطير والدار المنيعة والسيارة الرفيهة كل اولئك قد اغناني الله عنه بالقناعة، فبهت الضابط الفرنسي وقام متحاملاً على نفسه منصرفاً بين العجب والاعجاب»[1].

وفي مرة اخرى قال السيد العاملي لاحد القادة الفرنسيين الذي حضر عنده وتعرض بكلامه لاحدى الشخصيات الوطنية «انك ضيف في منزلي وحرمة الضيافة وحدها تمسكني عن اهانتك ولكن تأكدوا ان التاريخ لم يسجل ان القوة استطاعت الانتصار على الحق انتصاراً ابدياً»[2].

ولا شك ان هذه المواقف كانت تبث في الشعب السوري روح المقاومة والصلابة والتحدي تجاه الاحتلال الفرنسي، وهذا ما ذكره بالفعل لطفي الحفار احد رؤساء الوزارات السورية سابقاً فقد قال: «كنا نستمد قوة روحية ورعاية واسعة ودعوة صالحة من الامام المجتهد السيد محسن الأمين، وما عدنا من منفى او سجن والمعارك سجال بيننا وبين هؤلاء اذناب المستعمر الذين يخدعون الناس ويضللونهم بالباطل إلا وكان الامام السيد يدعو للثبات والتضحية والاخلاص في العمل ويبارك جهود العاملين ويدعو لهم بالقوة والتأييد وكم كنا نأنس بزيارته من حين الى آخر في سبيل الله والوطن»[3].

وكان مما يدعم تلك الروح ايضاً حرصه الشديد على حفظ الوحدة الاسلامية والوطنية بين فئات الشعب، وقد اشتهر عنه قوله: «لم نزل نتخاصم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩٢.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي الفرنسي هو خليفتنا[1].
وجاءه رجل يوما وقال له: «اريد ان اكون جعفرياً» فبين له السيد العاملي وجوه الوحدة والاشتراك بين المذهبين السني والشيعي، ولما لم يقنع الرجل بكلامه قال له سماحته: «قل لا اله الا الله محمد رسول الله» فقالها، فقال له السيد: «اصبحت جعفرياً»[2] وتأكيداً منه على نهج الوحدة وقف سماحته بشدة ضد قانون الطوائف الذي اصدره الفرنسيون، وقد وجه احتجاجاً للمفوضية الفرنسية باللغتين العربية والفرنسية قال فيه: «... فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الاسلامية الشيعية في سوريا ولبنان ارجو فخامتكم ان تحيطوا علماً باستنكار المسلمين الشيعيين عامة لهذا القرار وهذه التفرقة المصطنعة بين المسلمين»[3] وهو النهج الذي يتواصل عند سماحته الى ما بعد الجلاء وقيام الحكم الوطني في سوريا، فعندما اصدر هذا الحكم قراراً بالانتخابات النيابية وعين مقاعد للسنة واخرى للشيعة، قدم السيد العاملي كتاباً الى الحكومة اوضح فيه ان الشيعة يعتبرون المسلمين طائفة واحدة ولا يريدون الافتراق عن اخوانهم السنة، فكان لذلك وقعاً حسناً لدى الحكومة.
لقد كان قائداً سياسياً تلتقي عنده مختلف الطبقات فيحثها نحو واجبها الاسمى في الدفاع عن كيان الوطن والدين، وكان يستشهد لزواره في احاديثه بـ«ثورة التنباك» الشهيرة في ايران، وكيف ان تضامن الشعب الايراني مع قيادته الاسلامية انتهى الى احراز النصر المؤزر على شركة التبغ الانجليزية الاحتكارية ومن ورائها الدوائر الاستعمارية في ايران.

ويبدو من سيرته السياسية انه تأثر في وعيه السياسي تأثراً عميقاً بتلك الثورة الفريدة، فكانت مثلاً يسعى للاقتداء به وتجربة يؤمن بامكانية تكرارها.

---

(١) مجلة المنطلق ـ العدد الخامس عشر، رمضان ١٤٠١ هـ.
(٢) العاملي، محسن الامين، اعيان الشيعة، المجلد العاشر، ص ٣٨٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

فعندما اختلفت شركة الجر والتنوير مع الاهالي في دمشق قال لزعماء الكتلة الوطنية الذين حضروا عنده «ما بالنا لا نقاطع هذه الشركة الاجنبية؟» واخذ يفصل الكلام حول هذا الاقتراح وفي اليوم الثاني بلغ الناس ما قاله السيد رحمه الله فقاطعوا الشركة مقاطعة تامة وأحرقوا بعض عرباتها، ولم يعد يركب فيها احد ثم تحول الأمر الى مواجهة عامة مع الانتداب انتهت الى الاضراب المشهور الذي اجبر المفوض السامي الكونت دي مارتيل على النزول عند مطاليب الشعب[١]

من هنا يذكر منح الصلح دور السيد العاملي في مقاومة الانتداب قائلاً: «في بيته اعلنت الحركة الوطنية في سوريا سنة ١٩٣٦ اضراب الستة اشهر الشهير».

ولم يقتصر دوره السياسي على معالجة قضايا الساحة السورية فحسب فقد كانت تهمه قضايا المسلمين كافة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية، ففي اليوم الذي حددته الحكومة السورية يوماً خاصاً لدعم فلسطين اصدر سماحته نداءً الى المسلمين نشرته الصحافة العربية يدعو فيه الى مساندة القضية الفلسطينية ودعم الشعب الفلسطيني بالغالي والنفيس[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٧٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

رحلاته واسفاره

عرف السيد الأمين بكثرة اسفاره ورحلاته، وأولىٰ هذه الرحلات الرحلة الحجازية الاولى التي قصد بها حج بيت الله الحرام وذلك في عام ١٣٢١ هـ (١٩٠٤ م) ومر اثناءها بمصر واطلع على احوالها، والتقى اثناء ذلك عبد المحسن الكاظمي الذي كان يقيم هناك، كما قام بزيارة حجازية ثانية في عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٢ م) بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى واثناء وجوده في البقاع المقدسة جاء اليه من له علاقة بالشريف حسين يعرض عليه موعداً للقاء الشريف حسين، فقال له السيد الأمين: «نحن جئنا لزيارة ملك الملوك في بيته فلا نريد ان نخلط بها زيارة ملك من عبيده»، كما قام برحلتين الى البيت المقدس، الاولى في سنة رحلته الحجازية الاولى والثانية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى. وفي سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) عزم على السفر من جبل عامل الى العراق لأداء الزيارة ومن هناك الى ايران، وقد حمل معه في هذه الرحلة مسوّدات موسوعة (أعيان الشيعة) بغية اكمالها واستمرت هذه الرحلة حوالي السنة، قضى نصفها في العراق ونصفها الآخر في ايران حيث حظى في ايران بحفاوة وتكريم بالغين، ففي احد مساجد طهران قال الخطيب مرحباً بالسيد الأمين مخاطباً جمهوره: «ايها الايرانيون ما نعمتم بزيارة زائر لبلادكم بعد زيارة الامام علي الرضا كما نعمتم بزيارة هذا الزائر العظيم».

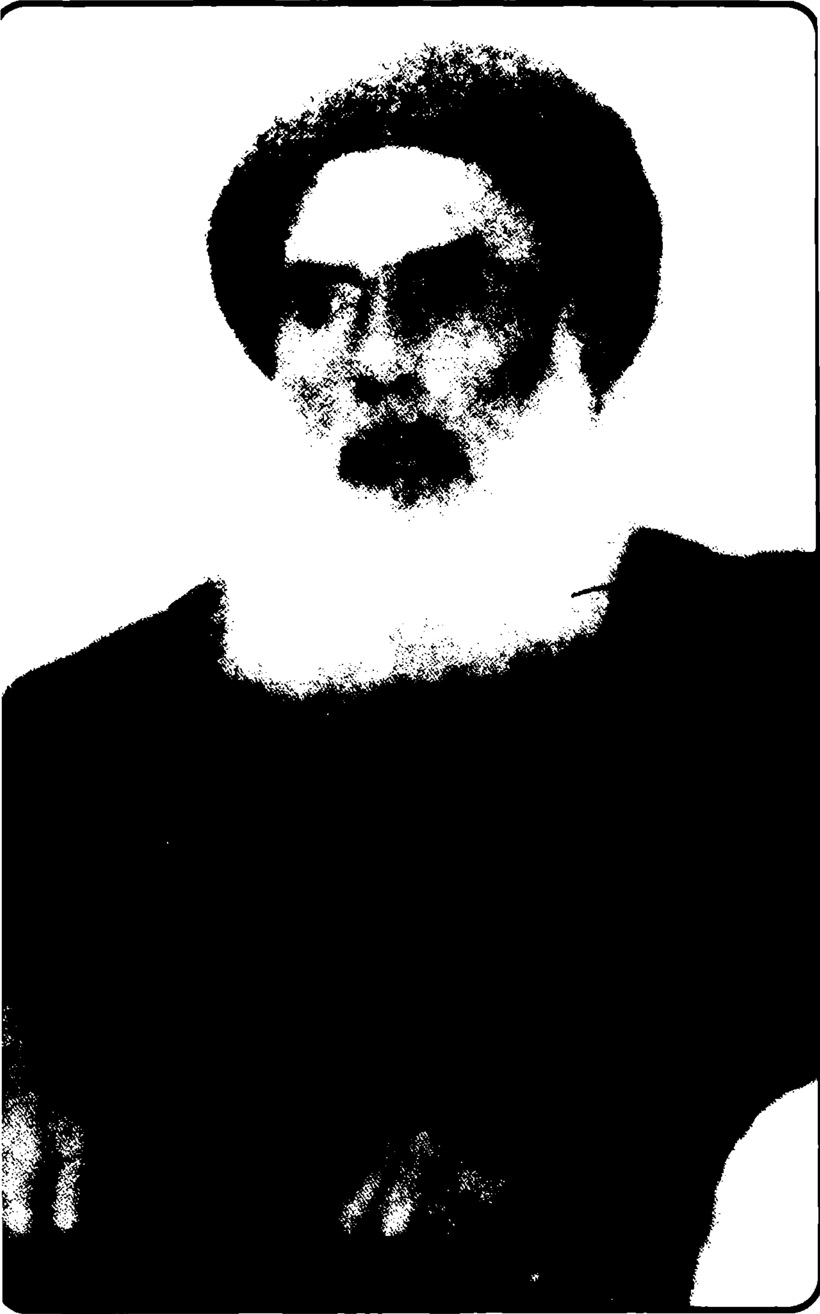
وفاته قدس سره

في ليلة الرابع من رجب ١٣٧١ هـ (٣٠ آذار ١٩٥٢) انهى القدر المحتوم حياة ذلك الرجل الكبير الذي ملأ الحياة الاسلامية عطاءً واصلاحاً وتغييراً ومنتهياً بوفاته ذلك الحفل البهيج الذي كان يعيش فيه المجتمع الاسلامي أيام حياته فنعته الاذاعة اللبنانية أولاً وتجاوبت بنعيه سائر اذاعات العالم الاسلامي وسيطر الحزن على اجواء المسلمين وعمّت موجة الالم، وتحدثت العديد من الصحف والاذاعات والخطباء باسهاب عن مزايا الفقيد السعيد ومآثره وخدماته واصبح الحديث عنه، حديث الساعة في الاوساط الاجتماعية والسياسية والدينية كافة، وظلت شخصيته محور النشاط الخاص لهذه الاوساط اياماً معدودة وقد جرى له تشييع مهيب لم تشهد سوريا ولبنان مثيلاً له من قبل.

شارك فيه علماء الدين من المذاهب والاديان المختلفة ورجال السلك الدبلوماسي والوفود الاجنبية والقوات المسلحة اضافة الى الجماهير الغفيرة التي غصّت بها الشوارع والمحلات المحيطة بموكب التشييع ودفن في دمشق وأقيمت المآتم على روحه الطاهرة في معظم البلدان الاسلامية وحيثما وجد المسلمون بحيث لم تخل واحدة من قارات العالم الخمس من تلك المآتم.

رائد الوحدة الاسلامية

السيد عبد الحسين شرف الدين



السيد عبد الحسين شرف الدين

مهما كانت نتائج تقويم النظرية القائلة بان الحياة العقلية للامم تنتعش في ظل انحطاط سياسي وان الفكر يكسب على حساب السياسة، وسواء صدقت بالنسبة للتاريخ البشري ككل ام لا فانها تصدق ـ وبلا شك ـ بالنسبة للتاريخ الاسلامي المعاصر، فالمأزق الذي عاشت فيه الأمة الاسلامية طيلة القرن الماضي من عمرها، بكل ابعاده السياسية والاجتماعية، اقترن على الدوام بمصلحين وعلماء من الرعيل الاول، ملأوا دنيا المسلمين فكراً وجهاداً واصلاحاً وكأن المقادير اقتضت ان تسعد الأمة بهؤلاء الرجال بقدر ما شقيت بما تعانيه من جهل وتخلف وتبعية فمما لا شك فيه ان الحركة العلمية في النجف الاشرف حققت ازدهاراً واسعاً عندما كانت الحياة السياسية للمسلمين في منتصف القرن العشرين تنحدر من سيء الى اسوأ فظهر في دنيا العقل الاسلامي على حين غرة الشيخ مرتضى الانصاري والشيخ الاخوند الخراساني والشيخ الميرزا النائيني والسيد جمال الدين الاسد آبادي والشيخ محمد جواد البلاغي والسيد هبة الدين الشهرستاني وغيرهم من الذين ادخلوا الفكر الاسلامي المعاصر في طور جديد وملأوا الساحة الاسلامية نظريات تجديدية في مختلف ميادين المعرفة الاسلامية وحين نمر بذكر هذا النفر من العلماء الكبار الذين انتشلوا الأمة من واقعها الراكد، وحملوها على اكتافهم الى قمة عصر جديد، لا بد ان نذكر الرجل الكبير الذي كان في الطليعة منهم، الا وهو الامام آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين العاملي فانه كان في مقدمة الركب الذي قاد الامة فكرياً وسياسياً نحو الرفعة والمجد في زمن ازدحمت فيه الموانع وقلت عنده الاسباب.

وليس لوناً من الكتابة او نوعاً من تقاليد التحرير ان يعتذر الكاتب عن ايفاء هذا الرجل حقه، بعد ان حار الرجال الافذاذ في وصفه، امثال الحجة الشيخ اقا بزرك الطهراني اذ كتب عنه يقول:

«ماذا يقول الواصف في راحلنا العظيم، فقيد الاسلام والمسلمين، فقيد العلم والدين، فقيد القلم والمنبر، أكان مجتهداً بارعاً أم خطيباً مصقعاً، ام باحثاً ناقداً ام مجاهداً دائب المناضلة عن الدين، دائم المكافحة عن المذهب الحق؟» ولا يخلص من حيرته الا بالقول: «نعم، هو كل ذلك تشهد له المحابر والمزابر والكتب والدفاتر»[1].

وعذرنا في كتابة القليل الذي نقدر عليه ان الكتابة عنه ليست حقاً له، وهو الغنى عن المدح والثناء وانما هي حق للامة الظمآى لامثاله، عذرنا قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان اقل منه».

---

(١) قبيسي، احمد، حياة الامام شرف الدين، ص ١٣٠.

ولادته ونشأته

في وسط زمني كانت تيارات السياسة والفكر الغربية قد عصفت به وجعلته من أشد فترات حياة الأمة ظلاماً وعتمة، ولد السيد عبد الحسين شرف الدين من أبوين كريمين، في سنة (١٢٩٠ هـ ـ ١٨٧٣ م) عندما كان والده السيد يوسف يقيم في الكاظمية مهاجراً اليها من لبنان طلباً للعلم، وانتقل مع ابيه الى النجف الاشرف، فأدرك من أيام ابيه هناك قدراً من التعلم ثم عاد الى بلدة «شحور» في لبنان وهو في الثامنة من عمره، بعد ان تقدم اهالي هذه البلدة الى ابيه طالبين اليه الاقامة بين ظهرانيهم مرشداً دينياً لهم.

هناك اخذ الصبي عبد الحسين شرف الدين يشق طريقه الى مجد اثيل ومستقبل زاهر تحثه الى ذلك عوامل الوراثة، حيث النسب المتصل بالعلماء والتربية الاسلامية الصالحة والتنشئة النقية الصافية التي بدأت في بيت كان محور الفضل المشهود والذكر المحمود، وانتهت بعد ذلك بمحافل العلم والأدب والتقوى التي كانت تزدحم بها مساجد النجف الاشرف وبيوتات المراجع الكبار، ونوادي المناظرة بما مهد به من سبل الزعامة والرفعة.

في بلدته «شحور» اكمل دراسة العلوم العربية من الصرف والنحو والمعاني الى بدايات الفقه، أي المرحلة التي تسمى في اوساط الحوزة بـ «المقدمات» وذلك على يد والده الذي لمس في ابنه ذكاء مفرطاً ونباهة مبكرة لا تشبعها بلدته، فبعثه الى العراق.

وفي ٩ ربيع الاول ١٣١٠ هـ (٣٠ ايلول ١٨٩٢ م) ترك السيد عبد الحسين شرف الدين بلدته متوجهاً الى العراق، فوصل الى الكاظمية اولاً بعدما توجه الى سامراء حيث كان الامام السيد محمد حسن الشيرازي يقيم هناك، فانكب على تحصيل العلوم الاسلامية كالفقه والاصول والاخلاق يحفزه الى ذلك حرصه الشديد لا على مواكبة الزمن فحسب، وانما على استباقه ايضاً، كما هو ديدن العظماء الذين يحرصون دائماً على التعويض عن تخلف أممهم، بما عندهم من رقي وتقدم. ومنذ الايام الاولى لولوجه ابواب الدرس والمناظرة تكشَّفت مواهبه وتجلت كفاءته العلمية التي حددت له بصورة مبكرة موقعاً متميزاً في الوسط الحوزوي، فصار في وقت قليل محور اقرانه ومحطاً لآمال اساتذته.

وبعد برهة من الزمن انتقل من سامراء الى النجف الاشرف ليواصل شوطه العلمي بعد الحوادث الطائفية التي شهدتها سامراء، ومن هناك خاض الجولة الاخيرة له من التحصيل العلمي، حيث تتلمذ على ايدي جهابذة النجف وكبار علمائها، كالأخوند الخراساني في الاصول، والشيخ رضا الهمداني والشيخ محمد طه نجف في الفقه، والشيخ حسين النوري في الحديث، ولقد ذكر انه كان يحضر ابحاث هؤلاء العلماء مع اساتذته الذين درس عندهم في مرحلة السطوح[(١)] وقبل ان يتم السنة الحادية عشر من اقامته في العراق حاز على مرتبة الاجتهاد بشهادة الأخوند الخراساني، وشيخ الشريعة الاصفهاني، والشيخ محمد طه نجف والشيخ عبد الله المازندراني، والشيخ رضا الهمداني، وآخر اجازة اجتهاد حصل عليها في عام (١٣٢٠ هـ ـ ١٩٠٢ م) من الشيخ رضا الهمَداني، وآخر اجازة حصل عليها في نهاية صفر (١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م) من الشيخ عبد الله المازندراني.

---

(١) قبيسي، احمد، حياة الامام شرف الدين، ص ٢٤.

الإمام في مفترق طرق

في سلك الدراسة الحوزوية يمر طالب العلم بمفترق طرق، الاول حينما يكمل مرحلة السطوح ويمارس اوائل مرحلة البحث الخارج، فانه عندئذ يكون مخيراً بين الاستمرار في الدرس حتى بلوغ مرتبة الاجتهاد، والانصراف الى التبليغ الاسلامي كعالم ديني في مدينة معينة والثاني حينما يبلغ مرتبة الاجتهاد فانه يكون مخيراً ايضاً بين الاستمرار في ممارسة ادوار اجتماعية او فكرية اخرى، وعملية الاختيار هذه يحددها عامل المواهب والقدرات الذاتية وعامل الوعي الرسالي ايضاً.

ولو ان سيدنا شرف الدين كان قد اختار بلوغ المرجعية العامة حينما وصل الى المفترق الثاني لكانت مواهبه قد اسرعت به الى غايته قبل غيره ولكن وعيه الرسالي دفعه الى الخيار الثاني بعد ان أحس من نفسه القدرة على معالجة شؤون الرسالة وشجون الأمة بالصورة التي لا يحسنها غيره من جهة وشعوره بعدم الحاجة الى رقم جديد في المرجعية الدينية التي كان يملؤها عدد كاف من المراجع الكبار وقتئذ.

لقد جذبته التحديات الخطيرة التي كان المسلمون يعانون منها ليكون احد ابطال المواجهة لها يوم كان التمزق الداخلي ابرز ما يفتك بهم من امراض ويمتد الى مختلف جوانب حياتهم السياسية والاجتماعية والثقافية وكانت جبل عامل موطن الامام شرف الدين قد عانت طويلاً من التناحر

الطائفي ففي القرن الثامن الهجري قتل بسلاح الطائفية الشهيد الاول وفي القرن العاشر الهجري قتل الشهيد الثاني، وهما من ابرز فقهاء الامامية في عصرهما.

وكان الحكم العثماني طيلة عهوده يتبنى سياسة تمييز طائفية بغيضة فلم يكن للشيعة حقوق متساوية مع حقوق أهل السنة وجاء الاستعمار الفرنسي من بعده وسار على هذا النهج نفسه.

ومن الراجح ان مشاهد التمييز والتناحر الطائفي التي كانت تمر امام سمعه وبصره وما كان لها من الاعماق التاريخية السحيقة التي سبر غورها بما كانت له من كفاءة متميزة في هذا الميدان قد حفزته الى مواجهتها، فوجد ان الواجب الاسلامي يقتضيه ان يجند طاقته الفكرية المتوهجة لمكافحة هذا المرض الخطير.

من هنا قرر الامام شرف الدين العودة الى لبنان، فترك النجف في (٩) ربيع الاول (١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م) وكان عمره آنذاك (٣٢) سنة بعد ان امضى في سامراء والنجف مدة اثني عشر عاماً وكانت شهرته قد سبقته الى موطنه، فكانت مواكب استقباله في دمشق ولبنان حاشدة تليق بشموخه العلمي، يتقدمها كبار العلماء والوجهاء والشعراء وكأن الأمة أحست انها على موعد مع رجل تاريخي فذ عاد الى بلده بعد ان صقلت مواهبه الحياة العقلية الزاخرة في النجف الاشرف واطلقت العنان لملكاته وزادتها بما اختصت به من العمق والرسوخ، وهناك شارك والده مهام التبليغ والارشاد، حتى قدم اليه اهالي صور يطلبون منه القدوم اليهم كمرشد ديني والحّوا في الطلب حتى اجابهم الى بغيتهم ومن هذا الموقع الجديد بدأ انطلاقته كمجتهد من طراز جديد فلم يكن ليروي ظمأه الشديد الى خدمة الاسلام ما قام به من تأسيس المساجد والحسينيات في صور وما حولها وما اشاع فيها من المعارف الاسلامية بل عقد العزم على تنفيذ مشروعه الاصلاحي الكبير الذي شاءت العناية ان تيسره له، وكأنه قد خُلق من اجله وظلت جهوده على هذا السبيل تتلاحق حتى آخر عمره الشريف، والنجاح يحالفها باستمرار.

خلفية الإتجاه الوحدوي عند الإمام شرف الدين

بين لبنان والنجف الاشرف قضى السيد شرف الدين الثلث الاول من حياته في وسط زمني كانت تيارات السياسة والفكر المتصارعة قد عصفت به وحولته الى سيل من التحولات التاريخية الكبرى ومن ابرز معالم تلك الفترة ان العالم الاسلامي فيها كان يموج باعمق اسباب الفرقة والاختلاف من جهة ويمتلىء باقوى صيحات الوحدة والاصلاح من جهة ثانية ولا شك انه «قدس سره» حينما باشر بتحمل مسؤولية الحياة كطالب للعلوم الاسلامية في سامراء قد امتلأ وعياً وتأثراً بهذه الحالة بجانبيها السلبي والايجابي، فمن سامراء والكاظمية والنجف بحجم صفتها الدينية والفكرية والاجتماعية كانت مراكز تنعكس عليها كل سلبيات الاختلاف المذهبي والسياسي من جهة وتساهم ايجابياً في اطروحة الوحدة الاسلامية التي استغلظ عودها آنذاك من جهة ثانية وكانت مشاهد ذلك تملأ سمع وبصر العبقرية المتزعمة في شخص الطالب عبد الحسين شرف الدين ولا يكاد يشك الباحث ان حادثة رمي المرجع الديني الاعلى السيد محمد حسن الشيرازي بالحجارة من قبل احد اهالي سامراء التي يحتمل ان تكون بتحريك مباشر من قبل الدوائر البريطانية في العراق آنذاك والتي حاول القنصل البريطاني في بغداد استغلالها لاحداث فتنة طائفية بين السنة والشيعة ان هذه الحادثة والموقف التأديبي الحكيم الذي وقفه السيد الشيرازي أزاء المسؤول البريطاني لفتت نظر السيد شرف الدين

ـ الذي كان آنذاك تلميذاً للسيد الشيرازي ـ الى قضية مصيرية في حياة الامة ألا وهي الوحدة وأوضحت له عظم المسؤولية التي عليه ان يتحملها كما ان دعوة الجامعة الاسلامية التي اطلقها السيد جمال الدين الاسد آبادي واستجاب لها السلطان عبد الحميد الثاني في الاستانة كانت اصداؤها تتردد بقوة في محافل النجف وسامراء والكاظمية.

هذا من الناحية الزمنية ومن الناحية الثقافية والمذهبية وهي الاهم فان الاتجاه الوحدوي في شخصية العالم الديني الشيعي يعتبر طبيعياً وذلك نظراً لعمق هذا الاتجاه في الفكر الامامي وقوة ممارسة ائمة اهل البيت عليهم السلام له ومن هنا يجد الباحث في تاريخ علماء الامامية اصراراً متواصلاً وصادقاً في مجال الوحدة الاسلامية بما لا نظير له في تاريخ بقية علماء المسلمين وليس السيد شرف الدين إلا مثالاً لعالم الدين الامامي فيما قدمه من خدمات لقضية الوحدة خاصة وهو الضليع بما لا مزيد عليه في كل مجالات الفكر الامامي.

الوحدة الإسلامية بين مفهومين

واذا كان «مؤرخو الفكر اليوم يجمعون على ان آثار الامام شرف الدين يمتد تعريفها الى مفهوم المدرسة»[1] فان هذه المدرسة قد اوقفها مؤسسها لخدمة الوحدة الاسلامية اولاً وقبل كل شيء فلا تكاد تجد اثراً له من كتاب او خطاب او رسالة الا وقد تراوح الهدف منه بين الانطلاق من الوحدة والانتهاء اليها مما يكشف عن شعور وحدوي عميق كان يمتلك الامام شرف الدين ويملأ عليه ابعاد وجوده.

لقد أُعتبر السيد جمال الدين الاسد آبادي (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) من قبل مؤرخي الفكر الاسلامي المعاصر الرمز التاريخي للوحدة الاسلامية في التاريخ الاسلامي الحديث بما قدم لها من خدمات جلى وما ضحى به من اجلها طيلة حياته فلم تأخذ زخمها وفاعليتها على الساحة الاسلامية الا بفضل حماسه واصراره الشديدين عليها، وبعد السيد جمال الدين تواصلت صيحة الوحدة وأخذت تتبلور في اتجاه فكري سياسي يصر عليه علماء ومصلحو العالم الاسلامي، ومع ان اطروحة الوحدة الاسلامية يمكن بل يجب اثارتها على ثلاثة مستويات المستوى السياسي والقومي والمذهبي الا ان المستوى الثالث كاد ان ينفرد باهتمام المعنيين بهذه القضية في مرحلة ما بعد السيد

---

(١) علي، عباس، الامام شرف الدين، ص ٦٠.

جمال الدين، من هنا يمكننا اعتبار ان الوحدة الاسلامية في مستواها المذهبي مرّت بمرحليتين اساسيتين تتمثل كل واحدة منها بمفهوم خاص وهما:

١ ـ مرحلة السيد جمال الدين الذي اقام دعوته الى الجامعة الاسلامية على أساس مفهوم سياسي يدعو المسلمين فيه الى تجميد الخلافات المذهبية والقومية والانصهار في وحدة سياسية تهدف الى الدفاع عن الكيان السياسي الاسلامي ومواجهة الغزو الكافر.

٢ ـ مرحلة السيد شرف الدين الذي أقام دعوته الى الوحدة الاسلامية على أساس مفهوم عقائدي وسياسي شامل يدعو الى دراسة الخلافات المذهبية بين المسلمين بعمق ورصانة وبروح تسامحية واخوية صادقة وهو مفهوم ينطلق من عمق القضية المذهبية وينتهي بالسياسة.

ويعتبر السيد شرف الدين المؤسس لهذا المفهوم، وبالتالي هذه المرحلة وبعد تواصل السير من قبل مصلحي المسلمين على هذا الاتجاه ظهرت دار التقريب بين المذاهب الاسلامية مستلهمة اسسها من روح المفهوم العقائدي الذي طرحه السيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

ان المفهوم السياسي يبدأ من السياسة وينتهي بتجميد القضية المذهبية بينما على العكس من ذلك ينطلق المفهوم العقائدي من أصل القضية المذهبية وينتهي بالسياسة ومع ان المفهوم السياسي كان يشكل خطوة كبيرة الى الامام إلا انه يعتبر سطحياً يربط الوحدة بمعطيات الواقع السياسي العيني حيث لاثبات للسياسة ومعطياتها لذا تبقى الوحدة في مهب الريح، بينما يتجاوز المفهوم العقائدي هذه السلبية لانه يحرك الوحدة ويركز عليها كقضية مقدسة في المركز الاجتماعي والسياسي الطبيعي في المجتمع الاسلامي وهو المركز المتمثل بالعلماء مثيراً فيهم وباستمرار روح المسؤولية تجاه قضية الوحدة، وقد يدافع البعض عن المفهوم السياسي للوحدة على اساس ان الخلافات المذهبية لا طائل من مناقشتها وان تراكماتها النفسية والتاريخية تجعل إمكانية التغلب عليها متعذرة وبالتالي فلا بد من تجميد الخلافات

المذهبية والاكتفاء بالوحدة السياسية، ولكننا عندما نخضع الأمر لنظرة فاحصة نجد ان المفهوم العقائدي يتجاوز هذا الاشكال بالوسائل التالية:

١ ـ ان المفهوم العقائدي لا يلغي ضرورة المفهوم السياسي بل يراه غير كاف.

٢ ـ ان المفهوم العقائدي لا يهدف الى الغاء المذاهب او دمج بعضها ببعض ولا الى تحويل السنة الى شيعة او بالعكس وانما يهدف الى دراسة الخلافات المذهبية من قبل ارقى وسط نوعي في الأمة وهم العلماء بعيداً عن التراكمات النفسية والتاريخية وبروح مشبعة بالموضوعية والاخلاص والاخوة الاسلامية.

٣ ـ ان تجميد الخلافات المذهبية امر لا يمكن التحفظ عليه طويلاً ويمكن للجهلاء والاعداء بين فترة واخرى اثارة ثائرة الخلاف في المجتمع.

مفهوم الوحدة عند الإمام شرف الدين

يبقى ان نقول ان المفهوم العقائدي للوحدة يعتمد على قوة الفكر ونبذ التعصب والقابلية على الحوار الموضوعي وهي خصائص فريدة اجتمعت في شخصية الامام شرف الدين الذي قادته مؤهلاته الى الكشف عن هذا المفهوم وممارسته بكفاءة بالغة ويمثل كتابه «الفصول المهمة في تأليف الأمة» الذي ألفه في عام «١٩٠٩ م» باكورة جهده الفكري مما يكشف عن عميق اهتمامه بقضية الوحدة وكونها الشاغل الاول له، وقد كان من قوة هذا الكتاب واهميته حداً جعل الحجة الشيخ مرتضى آل يس يصفه بانه «من اجل الكتب الاسلامية وانه يغنيك عن مكتبة كاملة في موضوعه حيث بحث فيه مسائل الخلاف بين السنة والشيعة على ضوء الكلام والعقل والاستنتاج والتحليل»[١]

وقد حدد المصنف في هذا الكتاب اهدافه منه بل مفهومه عن الوحدة الاسلامية بالقول «لا تتسق امور العمران ولا تتسبب اسباب الارتقاء ولا تنبعث روح المدنية ولا تبزغ شمس الدعة من ابراج السعادة ولا نرفع عن اعناقنا نير العبودية بيد الحرية الآ باتفاق الكلمة واجتماع الافئدة وترادف القلوب واتحاد العزائم والاجتماع على النهضة بنواميس الأمة ورفع كيان

---

(١) شرف الدين، عبد الحسين، المراجعات، من مقدمة الشيخ مرتضى آل يس.

الملة، اما اذا كانت الامة أوزاعاً متباينة وشيعاً متباغضة لاهية بعبثها غافلة عن رقيها لتكونن حيث منابت الشيح ومهافي الريح ارذل الامم داراً وأجدبها قراراً مذقة الشارب ونهزة الطامع وهدف السهام وقبسة العجلان في باحة ذل وحلقة ضيق وعرصة موت وحومة بلاء»[١].

ثم يصرخ بالمسلمين قائلاً: «فهلا شرعوا خطي اقلامهم وجردوا صوارمهم ووتروا قسي افكارهم وناضلوا بثواقبها فأزهقوا نفس العصبية واعتنوا باتحاد التشيع والتسنن واني صادع بهذه المقالة شارع بعون الله تعالى في تصنيف رسالة سميتها (الفصول المهمة في تأليف الأمة) ان اريد إلاّ الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه انيب»[٢].

ويكشف النص الأول عن عمق الآلام التي كان الامام شرف الدين يتحسسها ويعانيها من حالة الاختلاف والتشتت التي تسود الأمة بينما يبين النص الثاني المفهوم العقائدي الذي يتبناه في مجال الوحدة الاسلامية.

ان كتاب «الفصول المهمة» هو التصنيف الاول في حياة المؤلف ويصل الى القمة بين مؤلفاته بياناً وتحليلاً واستدلالاً ورصانة مما يوضح ان المؤلف قد عقد العزم القوي منذ الايام الاولى لتوليه المسؤولية الدينية على ان يكون جندي الوحدة الاسلامية ورائدها الحقيقي.

ولنستمع اليه يؤرخ لأيام شبابه الاولى بالقول: «وكنت احب فيما احب ان ازور مصر وأقف على اعلامها لا للنزهة والاستجمام وانما لهدف رسالي كبير جعله في قمة التواضع والفكر الحر المستنير البعيد عن التعصب وهو «لأخذ العلم عنهم ولأبلو ما يبلغني عن الجامع الأزهر»[٣].

وهذه هي النزعة التي حملته اخيراً الى مصر ليرسي الدعائم

---

(١) المصدر المذكور، ص ٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٤.
(٣) قبيسي، احمد، مصدر سابق، ص ١٠٣.

الاولى لمشروعه الوحدوي باللقاء المباشر مع علماء الازهر والتحاور معهم في حقيقة الخلافات بين المذاهب الاسلامية، كان ذلك في عام ١٩١٢ حيث التقى شيخ الازهر سليم البشري ودارت بينهما محاورات مطولة رائعة انهاها المنطلق العقلي البعيد عن التعصب الى تطابق وجهات النظر بينهما حول كل ما أثير من نقاط بحث كانت خلاصة الخلاف السني ـ الشيعي وهي المحاورات التي دونت وطبعت في عام ١٩٣٦ باسم المراجعات لتكون قمة الفكر الامامي المعاصر ورمز الحوار الاخوي السني ـ الشيعي الذي يحمل آداب الاسلام وخلقه واهدافه.

ولنستمع اليه يؤرخ لهذا الكتاب قائلاً:

«هذه صحف لم تكتب اليوم وفكر لم يتولد حديثاً وانما هو صحف انتظمت منذ زمن يربو على ربع قرن وكادت يومئذ ان تبرز بروزها اليوم... اما فكرة الكتاب فقد سبقت مراجعاته سبقاً بعيداً، اذ كانت تلتمع في صدري منذ شرخ الشباب التماع البرق في طيات السحاب، وتغلي في دمي غليان الغيرة تتطلع الى سبيل سوي يوقف المسلمين على حد يقطع دابر الشغب بينهم، ويكشف هذه الغشاوة عن ابصارهم لينظروا الى الحياة من ناحيتها الجديدة، لكن مشهد هؤلاء الاخوة المتصلين بمبدأ واحد وعقيدة واحدة كان وا أسفاه مشهد خصومة عنيفة تغلو في الجدال غلو الجهال، حتى كأن التجالد في مناهج البحث العلمي من آداب المناظرة او انه من واقع الادلة وهذه مصائب محدقة بنا من الامام الى الوراء وعن الشمال وعن اليمين وذاك قلم يلتوي به العقم احياناً وتجور به الاطماع احياناً اخرى وتدور به الحزبية تارة وتسخره العاطفة تارة اخرى ضقت ذرعاً بهذا وامتلأت بحمله هما فهبطت مصر اواخر سنة ١٣٢٩ هـ مؤملاً في نيله نيل الامنية التي انشدها وكنت الهمت اني موفق لبعض ما اريد ومتصل بالذي أداور معه الرأي، شكوت اليه وجدي وشكا الى مثل ذلك وجداً ضيقاً وكانت ساعة موفقة أوحت الينا التفكير فيما يجمع الله به الكلمة ويلم

به شعث الأمة»[1].

ولا يحسب الباحث ان احد من الكتاب المرموقين يسهل عليه تلخيص الاتجاه الوحدوي في فكر وشخصية الامام شرف الدين بالشكل الذي قدمه هذا النص والذي جاء حاشداً بعناصر مختلفة كثيرة لصور كبيرة اتقنت ريشة رسامها اختيار مواقعها والتنسيق فيما بينها وضغطها بأصغر حجم ممكن حيث اشار هذا النص بسرعة خاطفة وبصورة مترابطة الى قدم الفكرة الوحدوية عند السيد شرف الدين وانها تلتمع في صدره التماع البرق في طيات السحاب لقطع دابر الشغب بين المسلمين وينظروا الى الناحية الجديدة في الحياة ثم يحدد التجالد في البحث والتواء الفكر بعوامل العاطفة والحزبية والعقم والاطماع كأسباب لهذه الخصومة مشيراً من طرف بعيد الى ان الحل يكمن في نبذ هذه العوامل وبالتالي طرح المفهوم العقائدي للوحدة، موضحاً في النهاية الاهداف الوحدوية التي ساقته لزيارة مصر واللقاء مع علماء الأزهر فيها.

وعلى هذا الاتجاه سار شرف الدين في باقي مؤلفاته النفيسة امثال «النص والاجتهاد» و «اجوبة مسائل جار الله». وحينما كان يسعى حثيثاً نحو اهدافه وهو ينشد الوحدة لم يكن شيء اكثر ايلاماً له من مثيرات الخصومة والتناحر، فكان يشد عليها كما يشد المحارب على عدوه في ميدان القتال، فنراه يبعث جماعة التقريب بين المذاهب التي تحمل مفهوماً قريباً من المفهوم الذي يحمله نداءً يحذرها فيه من بغض الغوغائيين الذين يثيرون الاحقاد ويعملون للفتنة، كما يبعث برسالة الى المجمع العلمي العربي بدمشق يضمنها رداً على رئيسه محمد كرد الذي أخذ يملأ مجلة المجمع اكاذيب وافتراءات على الشيعة، يؤكد السيد فيها له: ان «الشيعة اخوانكم في الدين واشد المسلمين دفاعاً عنه ورعاية له واحتياطاً عليه رضيتم أم كرهتم

---

(١) المصدر المذكور ص، ٣١ ـ ٣٢.

أنصفتم ام اجحفتم وقد ملأوا الدنيا الاسلامية عدداً نامياً وعلوماً زاخرة»[١].

وعندما كان في لبنان عمل على رفع الحساسيات المذهبية بين السنة والشيعة وقدم للسنة احد مسجدين هما للشيعة ولا يزال بأيديهم حتى الآن وسيبقى التاريخ يذكر المكانة الرفيعة التي حازها الامام شرف الدين لدى السنة والشيعة معاً فجماهير المصلين بالمسجد الحرام لم تأتم بعالم شيعي قبله ولا بعده حتى الآن، كما احتفى به الشريف حسين ملك الحجاز وغسلا معاً الكعبة في أول حادثة من نوعها، اما الشيخ محمد المدني عميد كلية الشريعة في الأزهر سابقاً فقد اعلن ان منهاج تاريخ الفقه الاسلامي في كلية الشريعة تضمن دراسة عن حياة السيد شرف الدين[٢].

---

(١) قبيسي، احمد، مصدر سابق، ص ٧٢.

(٢) علي، عباس، مصدر سابق، ص ١٦٩.

مشاريعه وخدماته

نهض سماحته (قدس سره) في جانب آخر من الحياة الاسلامية خير نهوض وهو الجانب الاجتماعي والثقافي فكانت له اياد بيضاء مشكورة فيهما.

اولاً: مشاريعه الاجتماعية:

وفي مقدمتها الحملة التي شنها لدى عودته من النجف الى لبنان على النظام الاقطاعي الظالم الذي كان يحيل المجتمع الى اقلية مترفة ظالمة واكثرية مسحوقة مظلومة وكان ذلك من جملة النهج الذي اتبعه السيد «رحمه الله» في نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم، واعانة الضعيف واغاثة الملهوف، وفي عام ١٩٤٥ أسس جمعية «البر والاحسان» التي أخذت على عاتقها مسؤولية حماية الضعفاء ومساعدتهم وقضاء الممكن من حوائجهم وبذلك استطاعت ان تقطع دابر التسول في صور وان تقدم خدماتها الى القرى المجاورة لها ايضاً، وشيدت سوراً لمقبرة المسلمين في البلد، كما سعى رحمه رحمه الله الى تأسيس ميتم يَضُمُّ ايتام الشيعة في لبنان ولكن بعد فترة توقف العمل به.

ثانياً: مشاريعه الثقافية:

وأوله «الحسينية» التي اتخذها في صور مركزاً لنشاطه حيث كان يجمع فيها الناس ويوطد وحدتهم ويزودهم بمواعظه وارشاداته ودروسه ولم يكن للشيعة في صور آنذاك مسجداً فانشأ فيها مسجداً ضخماً وأسس الى جنبه مدرسة ونادياً اسماه «نادي الامام الصادق عليه السلام» اعده للاحتفالات والمراسيم، وكان مبدأه في العمل الثقافي قولته الشهيرة: «لا يُنشر الهدى الا من حيث ينتشر الضلال» وهي تعكس وعيه العميق لواقع الصراع الصليبي ـ الاسلامي الذي كان يتخذ من لبنان مركزاً له ومن المشاريع التعليمية والصحية والاجتماعية وسائل للتبشير والتغريب فكان لا بد من مواجهة هذه المشاريع بمشاريع دفاعية مضادة تحافظ على سلامة المجتمع الاسلامي من الانحراف وفي هذا يقول السيد شرف الدين «قدس سره»: «من بعيد فكرت في انشاء معهد يضمن تربية ابنائنا تربية صالحة، مبناها مثلنا العليا ومنهجها الأخذ بحظوظ وافرة من الدراسات العصرية على ضوء المعارف المحمدية وذلك لانني ارى ان لا معدّى لنا عن هذه الخطة الحكيمة في سبيل بناء مستقبل افضل»[١].

ويقول: «وكنا في تعليم ابنائنا هذه المعارف المسمومة كالباحث عن حتفه بظلفه... وكنا نشهد المتخرجين في تلك المعاهد المسمومة فنضيق ذرعاً وينزلَ بنا منهم هم مقضٍ والم مسهد»[٢].

ويبقى هذا المحور الاصلاحي والتغييري الرسالي همّاً يملأ قلوب الاصلاحيين عزماً وهمة يعقبهما الحزن والالم، اذ تبقى عجلة الاصلاح تتعثر بالعقبات التي يضعها بعضهم امامها ففي سوريا عمل السيد محسن الامين العاملي رحمه الله لمثل هذه الفكرة وفي العراق سعى ثلة من العلماء المخلصين

---

(١) المصدر السابق، ص ١٣٢،

(٢)

الى تنفيذها، فظهرت في صورة «جمعية منتدى النشر» التي أسست في اوائل الثلاثينات.

غير ان مثل هذه العقبات لم تكن يوماً تثني المخلصين عن عزمهم ففي عام (١٣٥٧ هـ ـ ١٩٣٨ م) فتحت (المدرسة الجعفرية) التي أسَّسها السيد شرف الدين في جبل عامل ابوابها للتعليم المجاني ثم تطورت بعد ذلك لتصبح معهداً باسم «الكلية الجعفرية» وكان السيد رحمه الله ينوى تأسيس كلية شرعية تأخذ على عاتقها اعداد طلاب في العلوم الاسلامية وغيرها يلتحقون بعد ذلك بجامعة النجف الاشرف وعلى غرار كلية الفقه في النجف ولكن العوائق حالت دون ظهور هذا المشروع والاكتفاء بمعهد الكلية الجعفرية، وبعد نجاح هذا المشروع ـ الذي بني على اساس مسايرة العلوم الحديثة للاسلام وعدم المنافاة بينهما ـ عزم السيد على تأسيس فرع علمي اسلامي يهيء الطالب المتخرج للالتحاق بجامعة النجف غير ان هذه الفكرة واجهت الاخفاق هي الاخرى، لتبقى حلماً يراود السيد شرف الدين ولينتقل الى بارئه وهو يحمل هذا الهم الكبير كما هي حالة الذين جاؤوا من بعده وسلكوا هذا الطريق.

جهاده السياسي

انتهت الحرب العالمية الاولى بتوقيع «معاهدة فرساي» التي تنص بوقوع لبنان تحت الاحتلال الفرنسي، فثارت ثائرة جبل عامل، وبعد ذلك قام العلماء بقيادة الامام شرف الدين الموسوي بمطالبة الحكومة الفرنسية بتسوية حقوق الطائفة الجعفرية مع غيرها من الطوائف الاسلامية الاخرى ولما رأت الحكومة الفرنسية من الامام نشاطاً متزايداً، ارسلت احد قادة الجيش المعروف بابن الحلاج ـ وهو من النصارى العملاء للاستعمار في صور ـ لاعتقاله، ولكنه ما ان اصبح على مقربة منه حتى ركله الامام في صدره فوقع على ظهره وسقط المسدس من يده وتابع الامام الركلات والضربات على رأسه ووجهه بالحذاء وهُزم مرافقا ابن الحلاج وولّى هو بعد ذلك وراءهما[1] وأعقب ذلك هياج اهالي صور، وكادت ان تقع الواقعة غير ان السيد سعى الى تهدئة الموقف بنفسه، بعد ذلك مهدت الحكومة الفرنسية لاغتياله، فلما جاؤوا اليه وجدوا داره خالية لأنه كان قد انتقل الى «شحور» فنهبوا داره وأحرقوا مكتبته.

بعد ذلك تطورت حركة المقاومة الى المطالبة بالاستقلال والالتحاق بسوريا التي كان الملك فيصل بن حسين يتزعمها فلجأت الحكومة الى تهدئة الموقف بتسوية حقوق الطائفة الجعفرية بسواها من الطوائف، ولم يكن ذلك

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٢.

يكفي حاجة الحركة الوطنية فاستمرت تطالب بالاستقلال حتى عام ١٩١٩، حيث عقد مؤتمر وطني لتحديد مناهج الوصول الى الاستقلال وذلك في «وادي الحرير» ولما علمت الحكومة الفرنسية بالأمر طاردت اعضاء المؤتمر فاعتقلت من اعتقلت منهم وفر الباقون واستطاع الامام شرف الدين الخروج من لبنان باعجوبة وفي ايام اقامته في دمشق كانت له لقاءات مع الملك فيصل في سوريا وذات يوم بعث اليه الملك ـ مع احد المقربين اليه ـ خمسة آلاف دينار هدية له فرفض السيد قبولها قائلاً: «نحن لم نثر على القوم من اجل المال، ولكنها عقيدة دينية نستجيب لها كلما خشينا على تراث محمد ان يصاب»[١] وفي رواية اخرى انه تقبلها ثم ارجعها الى مبعوث الملك لتقدم باسم السيد هدية الى الجيش العربي في سوريا ثم قال: تمنيت ان أكون درهماً لاضع نفسي في صندوق الجيش العربي لادافع عن الاسلام والعرب[٢].

ولما هاجم الفرنسيون دمشق خرج السيد (قدس سره) منها متوجهاً الى فلسطين وهناك التقى الملك فيصل الذي طلب اليه الذهاب معه الى الحجاز فرفض وفي سنة ١٩٣٥ توجه الى مصر في زيارة ثانية لها وبقي هناك مدة سجل فيها مواقف رائعة مع ارباب العلم والادب، ويروى انه قصد احد الاحتفالات في مصر وكان حاشداً بالناس فارتقى المنبر بزيه العربي التنكري وانشد قائلاً:

إن لم اقف حيث جيش الموت مزدحم   فلا مشت بي في طرق العلى قدمُ»

فعلى الهتاف والتصفيق والاستحسان من الجمهور فظن ان الجمهور ربما فهم خطأ ان البيت الشعري له، فكرر قائلاً رحم الله شاعر اهل البيت السيد حيدر الحلي حيث يقول وكرر البيت فدوت القاعة مرة ثانية

---

(١) قبيسي، احمد، مصدر سابق، ص ١١٣.
(٢) علي، عباس، مصدر سابق ١٩٢.

بالاستحسان والتصفيق ويقال ان الكاتبة المصرية «مي زيادة» كانت ممن حضر الاجتماع ولمحت ان الامام كان يكثر من مداعبة خاتمه، فقالت معقبة: «لا ادري، هل الخاتم اطوع الى بنانه ام البيان اطوع الى لسانه»[١]، وبعد مدة وجيزة رجع الى فلسطين ليكون اقرب الى موطنه، وليستقر في بلدة على الحدود اللبنانية من جهة جبل عامل، فهناك اتفق مع كامل الاسعد على السعي لتحصيل عفو من الفرنسيين عن المعتقلين، ولما يئس من مطلبه عزم على التوجه الى العراق حيث الملك فيصل قد حل ملكاً هناك، فهال الفرنسيين الأمر فأصدروا عفوا عنه فانتقل الى بيروت ثم سعى لتحصيل عفو عن الفارين والمعتقلين وواصل سعيه حتى اذعنت الحكومة الفرنسية لطلبه وحينما اعلن الفرنسيون قانون الاحوال الشخصية في عام (١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م) وهو قانون يخالف احكام الاسلام انتفض السيد مرة اخرى ضده وانتفض المسلمون معه وكتب احتجاجاً شديد اللهجة الى المفوض الفرنسي في بيروت فغير الفرنسيون موقفهم الى الحالة التي هم عليها الآن من الطائفة الجعفرية في لبنان[٢].

والى جانب ذلك كانت له مواقف مشرفة من القضية الفلسطينية وقد سجل ذلك في رسالة بعثها الى السيد محمد صادق الصدر يقول فيها: «علمتم بوصول اللجنة الفنية الانجليزية الى القدس الشريف لتقضي على معنويات الاسلام والعرب باقتسام فلسطين ووضع الحدود فيها بين المملكتين المملكة الصهيونية والمستعمرة الانكليزية العربية. . وهذا ما اقام العرب واقعدهم وأثار حفيظتنا، فاضربنا عن كل عمل احتجاجاً على استخفاف هذه اللجنة بأمر الاسلام والعرب» ثم يواصل رسالته قائلاً: «وقد احتجت الجماهير علينا فخرجت معهم بين الهتاف الى الجامع، فألقيت عليهم خطاباً

---

(١) علي، عباس، مصدر سابق، ص ١١٧.
(٢) قبيسي، احمد، مصدر سابق، ص ١١١.

على ما تقتضيه الحال... ثم ابرقت باسم جبل عامل لكل من المفوض السامي في القدس واللجنة التنفيذية الانجليزية بما يلي: العرب يثورون، جبل عامل يستميت، البلاد مضربة احتجاجاً، ارواحنا فداء ارضنا المقدسة»[1].

(١) علي، عباس، مصدر سابق، ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

مكانته في العالم الإسلامي

لقد أوجبت له الادوار الكبيرة التي لعبها على الساحة الاسلامية والخدمات الجليلة التي قدمها للمسلمين والفكر الاسلامي مكانة قلما حظي بها احد من علماء المسلمين، يقول عنه الشيخ الحجة اقا بزرك الطهراني: «قد أدى رسالة عظيمة قد يعجز عن تأديتها جيل بكامله وامة بمجموعها، وقد يرى البعداء من القراء مبالغة في هذا القول او اغراقاً في الاطراء، ولكن الذين عرفوا المترجم له وقرأوا كتبه يعلمون ما نقول جيداً ويعترفون باذعان، وقد لا اكون مبالغاً اذا قلت بان المذهب الجعفري، على ما هو عليه من حق وظهور ووضوح مدين للمترجم له، فقد نشره من جديد باسلوب العصر، وخدمه بكل ما أوتي من براعة وعبقرية فأظهر الحق وأزهق الباطل»[1].

ويقول الشيخ مرتضى آل يس عنه في مقدمة كتاب «المراجعات» لا اكون مبالغاً حين استبيح لقلمي ان يسجل ان السيد المؤلف يتقدم بما انتج الى الطليعة من علماء الشيعة الذين كرسوا حياتهم طوال اعمارهم لخدمة

(١) المصدر نفسه، ص ٣٥.

الدين والمذهب وبهذا استحق ان يتصدر مجلس الخاصة في العالم الاسلامي اليوم، ويقول ايضاً: «كان اماماً في اللغة وعلوم العربية وآدابها والمنطق والتاريخ والحديث والتفسير والرجال والرواية والانساب والفقه والاصول والكلام وما يتصل بهذه العلوم من روافد»[1].

(1) المصدر المذكور، ص ١٩ ـ ٢٤.

وفاته

توفي الامام شرف الدين في صباح الاثنين (٨ جمادى الثانية ١٣٧٧هـ ـ ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٧ م) عن عمر ناهز السابعة والثمانين سنة وتم تشييعه من المستشفى الذي توفي فيه الى مطار بيروت الدولي وسط حشد من الجماهير المؤمنة يتقدمها جمع من العلماء والزعماء السياسيين ورجال السلك الدبلوماسي ونقلت الطائرة بعد ذلك جثمانه الشريف الى بغداد وهناك احتشدت الجماهير المؤمنة المفجوعة بوفاة احد ابرز علمائها الذين قلما يُشفعها الزمان بنظير له وما ان وصل موكب التشييع الى النجف الاشرف حتى تقدم فقيه عصره السيد محسن الحكيم (قدس سره) لاداء الصلاة عليه، ليوارى جثمانه الثرى بعد ذلك (رحمه الله) رحمة وافرة.

المؤسس الثاني للحوزة العلمية في قم

السيد حسين البروجردي



السيد حسين البروجردي

تميزت الحوزة العلمية في قم المقدسة بانجازاتها النوعية الكبيرة التي حققتها في عمر، ففي عام ١٩٢١ انتقل آية الله الشيخ عبد الكريم الحائري من أراك الى قم ليؤسس فيها هذه الحوزة المباركة، وما كادت تتصرم عقود ثلاثة على هذا التاريخ حتى اصبحت قم موطن المرجعية الدينية العليا لاتباع اهل البيت عليهم السلام في العالم، وذلك في عهد مرجعية الامام السيد حسين البروجردي «قدس سره» التي دامت ستة عشر عاماً، وقبل ان ينقضي عقدان آخران فجرت هذه الحوزة بقيادة الامام الخميني اكبر ثورة اجتماعية وسياسية في التاريخ الانساني المعاصر.

وهاتان القفزتان النوعيتان الكبيرتان والمتلاحقتان تشكلان ظاهرة فريدة تنبىء عن زعامة فريدة للادوار الرئيسية الثلاثة، التأسيس ـ المرجعية ـ والثورة، ومن بين هذه الادوار الثلاثة يتميز دور المرجعية بالمشاركة في دور التأسيس ايضاً، فمع ان السيد حسين البرجوردي قام بدور المرجعية الا انه وفي الوقت نفسه شارك في دور التأسيس ايضاً ولذا عُدَّ المؤسس الثاني للحوزة العلمية في قم المقدسة.

دور الولادة وارهاصات الظهور

في مدينة بروجرد وفي اسرة علوية عريقة ولد السيد حسين ابن السيد علي البروجردي في أواخر شهر صفر من عام (١٢٩٢ هـ ـ ١٨٧٥ م) ويتصل نسبه عبر ٣١ واسطة بالامام الحسن عليه السلام ومن جهة اخرى يتصل من طرف ابيه بالسيد مهدي بحر العلوم الكبير (ت ١٢١٢ هـ ـ ١٧٩٧ م) عم جده الثاني، وبالسيد محمد البروجردى ـ احد كبار علماء القرن الحادي عشر الهجري حيث يعتبر الجد الخامس له ـ ومن جهة امه، يتصل نسبه بالعلامة محمد تقي المجلسي الاول (١٠٧٠ هـ ـ ١٦٥٩ م) والد العلامة محمد باقر المجلسي الثاني (ت ١١١٠ هـ ـ ١٦٩٨ م) صاحب موسوعة بحار الانوار.

في احضان هذه العائلة العلمية تلقى السيد حسين تربية اسلامية عالية، وأخذ عنها ما كانت تتميز به من روح علمية رفيعة وكان والده السيد علي يخصه بعناية فائقة ويتعهده باهتمام شديد، وكأنه يعده لمستقبل زاهر كان قد تنبأ به مسبقاً، وفي السابعة من عمره، سلّمه لمعلم خاص يقوم بتعليمه وتربيته، وبعد فترة نقله الى مدرسة دينية وخصص له فيها غرفة، وأوصى معلمه السابق بمواصلة تدريسه، فأخذ يدرس العلوم العربية والمنطق، والفقه والاصول، وعندما بلغ السنة الثامنة عشرة من عمره أخذت آفاق المعرفة تتفتح امامه واشتدت رغبته في الدراسة والتحصيل، ولكنه وجد ان الامكانات

التدريسية في مدينته تضيق بطموحاته العلمية، الامر الذي حدا به الى الانتقال الى اصفهان، وكانت يومها حاضرة علمية معروفة، فاستقر هناك في «مدرسة الصدر» الدينية، وانكب على الدراسة ينهل منها على قدر ما أوتي من استعدادات ومواهب ذهنية، حتى امتاز على اقرانه، وصار يشار اليه بالبنان في المحافل العلمية والاجتماعية.

وبعد ان قضى اربع سنوات في اصفهان، وصلت اليه رسالة من والده يطلب فيها منه المجيء الى بروجرد، ومن فرط شغفه بالعلم ظن الطالب السيد حسين ان والده يريد ان يبعثه الى النجف الاشرف لاكمال دراساته العالية هناك ولكنه ما ان وصل الى مسقط رأسه حتى وجد ان اباه قد اعد له مقدمات الزواج، ونتيجة لاصرار الأب تزوج السيد حسين واقام في بروجرد فترة يسيرة ثم عاد الى اصفهان لاكمال الشوط العلمي الطويل، لكنه وصلها هذه المرة وهو استاذ قدير بحيث حضر عنده في درس القوانين «١٠٠ طالب»[١] وفي هذه الفترة درس الفقه والاصول والفلسفة والرياضيات، عند اساتذة كبار كالسيد محمد تقي المدرس والسيد محمد باقر «درجة اي» والشيخ محمد الكاشاني والشيخ جهانگير القشقائي، وما ان بلغ السابعة والعشرين من عمره حتى بلغ رتبة الاجتهاد[٢] وأصبحت له مبان خاصة في الفقه والاصول، بحيث انه عندما ذهب الى النجف الاشرف بعد ذلك كان من همومه العلمية ان يعرف ما اذا سيحتاج الى تغيير هذه المباني اولاً فدرس هناك تسع سنوات اخرى عند فطاحل العلماء ولم تحصل لديه قناعة جديدة بشأنها كما يحدثنا السيد البروجردي نفسه عن ذلك[٣]، وفي عام (١٣١٩ هـ ـ ١٩٠١ م) استقدمه والده ثانية الى بروجرد بعد ان احس بان

---

(١) روائي، علي، زندكاني حضره آية الله بروجردي ص ٥٣.
(٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.
(٣) المصدر نفسه، ص ٥٤.

اصفهان استنفذت اغراضها العلمية بالنسبة لابنه فاوفده الى النجف الاشرف للحضور عند كبار علمائها، فارتحل السيد البروجردى اليها وحضر دروس الشيخ كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني وفي بعض الاحيان درس عند السيد كاظم اليزدى ايضاً.

وفي درس الشيخ كاظم الخراساني كان حضور السيد البروجردى متميزاً وله مكانة خاصة لم ينلها من بين ما يزيد على الف مجتهد وفاضل كانوا يحضرون ذلك الدرس المهم، الا افراد قلائل يعدون بالاصابع، ولم تكن الهيبة العلمية والروحية للاستاذ الكبير، ولا نوعية الطلبة الحضور وعددهم الكبير، ولا صغر السن بالنسبة لعموم الحاضرين، اسباباً تمنع البروجردى من طرح اشكالاته على الاستاذ الخراساني الذي لم يكن يستمع ويجيب إلا على اشكالات الطلبة الممتازين في درسه وفي مقدمتهم السيد البروجردى الذي كتب في ايام اقامته في النجف حاشية على كتاب استاذه «كفاية الاصول» ولا شك ان الخصائص العلمية التي امتاز بها السيد البروجردى دفعت به الى الصدارة في المحافل والمجالس، وجعلته ممن يشار اليه في كل طريق يمر به او زقاق يجتازه، حتى اصبح من خاصة استاذه الخراساني، الذي كان يكلفه بحل الكثير من المعضلات العلمية.

العودة الى بروجرد

بعد اقامة استمرت تسع سنوات حاز في نهايتها على اجازتي اجتهاد من الشيخ كاظم الخراساني وشيخ الشريعة الاصفهاني ترك السيد البروجردي النجف الاشرف عائداً الى بروجرد مجتهداً بارزاً وفقيهاً كبيراً وذلك في سنة (١٣٢٨ هـ ـ ١٩١٠ م) فاستقبل من جميع الطبقات استقبالاً حافلاً، وفي اوائل عودته توفي والده، وبعث استاذه الخراساني اليه يطلب منه العودة الى النجف الا ان انشغالاته الاجتماعية الجديدة، حيث اصبح زعيماً للاسرة الطباطبائية في بروجرد منعته من الاستجابة لطلب استاذه الذي توفي هو الآخر بعد أشهر من وفاة والده، وهكذا قرر البقاء في بروجرد لفترة ستكون طويلة نسبياً تستغرق (٣٣) سنة نهض اثناءها بمهام التدريس والزعامة الروحية ليس لبروجرد فقط وانما على مستوى الاقاليم الغربية من ايران بصورة عامة واكمل بعض مصنفاته التي كان قد بدأها في النجف الاشرف، كما كتب حاشية على العروة الوثقى لاستاذه السيد كاظم اليزدي وكانت له حلقة دراسية تضم «٢٠٠» طالب استطاع ان يخرج منهم اساتذة وفضلاء نال بعضهم درجة الاجتهاد.

وفي عام ١٩٢٥ قصد السيد البروجردي بيت الله الحرام عن طريق العراق، وبعد اتمام المناسك في الحجاز ومراسيم الزيارة للعتبات المقدسة

قفل راجعاً الى الوطن فلما وصل الحدود العراقية ـ الايرانية فوجيء بقرار السلطان القاضي بمنعه عن العودة الى بروجرد ونقله قسراً الى طهران، فنقل الى هناك وتم الابقاء عليه مائة يوم للتحقيق بشأن تهمة سياسية وجهت اليه سيأتي بيانها بعد ذلك سمحت له بمغادرة طهران فتوجه الى مشهد ثم عاد الى بروجرد مستأنفاً نشاطه السابق فيها حيث قام بتأسيس عدد من المدارس والمساجد كما كتب رسالته العملية التي انتشرت بسرعة ممهدة له دور المرجعية.

دور المرجعية العامة

في عام ١٩٤٣ اصيب سماحته بمرض دعاه الى الشخوص الى طهران لاجراء عملية جراحية، فسافر الى هناك للعلاج، واثناء اقامته في المستشفى توافدت عليه الوفود العلمية من قم المقدسة طالبة منه المجيء الى المدينة، كما وصلت اليه رسائل من علماء قم يدعونه فيها الى تولى زعامة الحوزة العلمية التي أسست حديثاً وواجهت بعد وفاة مؤسسها آية الله الحائري صعوبات كثيرة.

وكان سماحته قبل ذلك قد انقدح في ذهنه فكرة ضرورة دعم الحوزة العلمية في قم المقدسة بوصفها الكيان العلمي للمذهب والقيادي للمجتمع، فجاءت تلك الطلبات متوافقة مع ما كان يحس به من شعور بالمسؤولية إزاء الحوزة العلمية. فتفاءل بالقرآن الكريم فظهر له قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾[1]، وهكذا تأكدت لديه فكرة الانتقال الى قم المقدسة، وقد تحقق ذلك في عام ١٩٤٤ ليبدأ من هناك عهد الزعامة والمرجعية العامة التي كادت تنحصر به بعد وفاة الامام الاصفهاني في العام التالي.

---

(١) سورة المؤمنون، آية (٢٠).

لقد جاء السيد البروجردى الى قم المقدسة يوم كانت الحوزة العلمية الفتية فيها تعيش غياب مؤسسها الكبير الذي لم يخلفه فيها من يستطيع القيام بدور الزعامة ويؤدي مهام التوجيه والتطوير، وكان السيد البروجردي الرجل المؤهل لهذا الدور نظراً لجملة من الامتيازات التي كانت تحظى بها شخصيته والتي تتيح له قدرة عالية على التحرك في الوسطين الاجتماعي والسياسي معاً فقام بتقوية الحوزة وتطويرها وتوسيعها حتى عُد المؤسس الثاني لها ويمكن اجمال دوره على هذا الصعيد بالنقاط التالية:

١ - دعم الحركة الفكرية:

لقد وجه آية الله البروجردي اهتمامه البالغ الى الحركة الفكرية في الحوزة العلمية وكان من نتائج هذا الاهتمام ان ازدهرت حركة الطباعة والنشر في قم المقدسة بحيث احصيت الكتب التي ألّفت في عهد مرجعيته فكانت اكثر من ٣٠٠ كتاب ودورة في مختلف مجالات المعرفة الاسلامية أي بمعدل ١٨ كتاباً في كل سنة من سني زعامته وهو رقم كبير اذا ما قيس بالظروف السياسية الحرجة التي كانت تعيشها حوزة قم آنذاك، اضافة الى كونها لا زالت حوزة ناشئة، كما ازداد عدد الطلاب من الفي طالب الى ستة آلاف طالب[١] وعُد الذين يحضرون درس سماحته فقط بالف طالب.

والى جانب ذلك اهتم السيد البروجردى بتنظيم الحوزة واجرى نظام الامتحانات فيها، وعنى عناية خاصة بالسيرة الاخلاقية للطلبة، وعين هيئة عليا تشرف على سير الحوزة من الجهات المختلفة، وكان يباشر بنفسه توجيه الطلبة المتخلفين عن بعض الالتزامات، فيبدأ بالنصح ويكرره وفي حالة عدم

---

(١) الشهرستاني، صالح، المجتهد الاكبر الامام البروجردي، ص ٨.

التأثير كان يتخذ اجراءات رادعة منها اخراج المتخلف من قم المقدسة[1] وفي مجال آخر حرص سماحته على توجيه الحياة الفكرية في الحوزة العلمية واقامتها على قاعدة متينة فعارض تدريس بعض المؤلفات الفلسفية التي تُسبب لاكثر الدارسين ارباكاً في تصوراتهم الاسلامية ولا يستفيد منها الا الخاصة من الطلبة المؤهلين تأهيلاً جيداً لها.

وفي ذلك الوقت كان العلامة الطباطبائي قد بدأ اقامته في قم المقدسة وشرع بتدريس الاسفار الاربعة لطلابه، فأرسل السيد البروجردى اليه من يخبره بمعارضته لهذا الدرس، وانه أي ـ السيد البروجردى ـ كان يدرس الاسفار في اصفهان بشكل خفي جداً، في اشارة واضحة منه الى العلامة الطباطبائي بان درس الاسفار يجب ان يكون خفياً لكي لا يحضره الا من تأكد الاستاذ من اهليته لهذا الدرس الخاص.

ويذكر آية الله المنتظري أنَّ السيد البروجردى استدعاه يوماً وابلغه رأيه في ضرورة ان يترك العلامة الطباطبائي درس الاسفار واجاب الشيخ المنتظري استاذه ان الفلسفة علوم عقلية تُدرس في كل الجامعات والمراكز الدينية وغير الدينية، وان تحريم هذا الدرس سيجعل الطلبة الجامعيين يتحدثون عن المرجعية الاسلامية على انها تعارض العلوم العقلية فرد عليه السيد البروجردى انه لا يعارض الفلسفة وانما يعارض تدريس المنظومة والاسفار لما فيهما من جوانب يمكن ان تؤدي الى الدروشة بالنسبة الى عدد من الدارسين، ثم ذكر له انه وجد طالباً في اصفهان يقول له «ليس في جبتي الا الله» بعد ذلك سأله الشيخ المنتظري عن رأيه في فلسفة ابن سينا فأجابه بالايجاب[2].

---

(١) مجلة حوزة، العدد ٤٣ ـ ٤٤، ص ٦٦ ـ نقلاً عن آية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

(٢) مجلة ياد. العدد الاول، ص ١٤٨.

وربما كان موقف السيد البروجردى من فلسفة ملا صدرا والملا هادي السبزواري ناظراً الى المرحلة الخاصة التي كانت تعيشها الحوزة العلمية آنذاك وهي مرحلة التبلور والظهور فاراد من هذا الموقف الاحتياط البالغ من اجل ضمان اعلى درجات المتانة في القاعدة التي ينبغي ان تقام عليها الحوزة العلمية.

٢ ـ بناء المدارس والمساجد والمكتبات والحسينيات:

واهتم سماحته اهتماماً واسعاً بهذه المؤسسات احداثاً وتوسعة، ولم يقتصر اهتمامه على مدينة قم بل اتسع ليشمل النجف وكرمانشاه وهمدان، وشاهرود وسامراء وغيرها، ومن اثاره الخالدة في هذا المجال المسجد الاعظم في قم المقدسة. والمكتبة العامة التي شيدها الى جنبه والمدرسة الدينية المسماة باسمه في قم، كما شيد مدرسة اخرى في النجف وثالثة في كرمانشاه وغيرها كما أسس حسينية في سامراء ومسجداً في ايرانشهر، بل ان اثاره تتعدى حدود ايران حيث اسس في هامبورغ وهي المدينة التجارية المهمة في المانيا مركزاً اسلامياً ومسجداً فخما بلغت المساحة التي خصصت له ٤ آلاف متر مربع[١]، وقد بوشر ببنائه في ايام حياة سماحته لكن العمل به تعثر بعد وفاته، كما قام ببناء اربعة مساجد كبيرة في افريقيا عن طريق ممثله هناك، اضافة الى مسجد آخر بناه في طرابلس ـ لبنان.

---

(١) علوي محمد حسين، خاطران زنديكاني آية الله البروجردي ص ١١١ هكذا ورد تحديد المساحة المخصصة للمسجد في اكثر من مصدر، لكنه رقم كبير لا يعقله بوجه من الوجوه.

٣ ـ دعم حركة التبليغ:

ومن انجازات مرجعيته المشهودة ايضاً دعم حركة التبليغ وارسال المبلغين الى مختلف مناطق المسلمين، حيث بعث وكيلاً عنه الى المانيا وآخر الى امريكا، واوفد السيد محمد تقي الطالقاني وكيلاً عنه في المدينة المنورة والسيد زين العابدين الكاشاني ممثلاً عنه في الكويت، والسيد محمد حسين ناشر الاسلام الى السودان والشيخ شريعة زادة اصفهاني الى باكستان وكان من المقرر ان يبعث ثلاثة آخرين الى اليابان واندونيسيا والنمسا إلا ان وفاته المفاجئة حالت دون تحقق ذلك.

نشاطه السياسي

على الرغم من مشاغله الكثيرة ونهوضه باعباء الحوزة الفتية والمرجعية التي تظهر لأول مرة في قم المقدسة، جاءت حياة السيد البروجردى حافلة بالسياسة والعمل السياسي، وكان يؤمن بوحدة الدين والسياسة، ويتساءل كيف يمكننا الفصل بين الدين والسياسة، ونحن نجد الحج وهو اعمق العبادات الاسلامية يحمل بعداً سياسياً بحيث يكون احد اركان السياسة الاسلامية في الوقت نفسه[1]، ولكي نحيط بهذا النشاط الواسع بالقدر المتاح لنا نجد ضرورة اجماله في النقاط التالية:

١ ـ اعتقاله من قبل السلطات:

بعد ان ادى السيد البروجردى مناسك الحج توجه نحو العراق لآداء مراسيم الزيارة للعتبات المقدسة هناك وفي ايام في النجف الاشرف التقى مع آية الله السيد ابو الحسن الاصفهاني وآية الله الميرزا النائيني ودار البحث بينهم حول ظروف ايران السياسية ويذكر السيد البروجردى نفسه ان المرجعين

---

(١) حوزة، العدد ٤٣ ـ ٤٤ ص ٢٦٨ نقلاً عن آية الله شيخ ناصر مكارم الشيرازي.

المذكورين سألاه عن اوضاع ايران وما اذا كان بالامكان القيام بعمل ما ضد الشاه[1]، ويبدو ان السفير الايراني في بغداد قد حصل على معلومات معينة حول هذا الاجتماع وما دار فيه فنقل الامر الى حكومته عبر تقرير مفصل ذكر فيه اجتماع الزعماء الثلاثة الذين صمموا على ضرب حكومة الشاه وان السيد البروجردى جاء الى لرستان وخوزستان لغرض إثارة الرأي العام ضد السلطة، فما ان وصل السيد البروجردى الحدود الايرانية بعد انتهاء سفرته الى العراق حتى قامت السلطات باعتقاله بتهمة المشاركة في احداث اصفهان التي كانت قد حدثت بقيادة جملة من علماء هذه المدينة، وتم نقل السيد الى طهران والتحقيق معه مدة دامت مئة يوم وافرج عنه بعد ذلك.

٢ ـ معارضة الكتابة بالخط اللاتيني:

ووقف سماحته موقفاً مضاداً من قرار حكومة الشاه باستعمال الخط اللاتيني في الكتابة بدلاً عن الخط العربي والحروف العربية، وكان يقول «ان هدف هؤلاء من تغيير الخط ابعاد مجتمعنا عن الثقافة الاسلامية وما دمت موجوداً لا اسمح بتحقيق ذلك»[2].

٣ ـ كان السيد البروجردى احد العلماء الذي عاصروا الحركة الدستورية وذاقوا مرارة المصير الذي آلت اليه، ولذا فانه ومع ايمانه الشديد بالعمل السياسي ووحدة الدين والسياسة كان يتردد في الدخول الى جانب

---

(١) مجلة، حوزة، العدد ٤٣ ـ ٤٤ ص ١١٥ نقلاً عن الشيخ علي صافي الكلبايكاني، يذكر ان هذه الحادثة وقعت بعد عودة المرجعين المذكورين من ايران الى العراق وهي تؤكد الرؤية السياسية الناضجة التي يتحليان بها آزاء الاحداث وان توقيعهما على عدم التدخل في السياسة جاء عن وعي للساحة والظروف المحيطة بها.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

حركات مشابهة للحركة الدستورية من حيث تعدد الجهات المرتبطة بها، وعدم وضوح مدخلية هذه الجهات بشكل كاف، ومن هنا وقف السيد البروجردی من قضية تأميم النفط موقفاً متوسطاً بين التأييد والتحفظ، فهو يؤيد شخصية السيد ابو القاسم الكاشاني وقد دافع عنه بقوة عندما سُجن وواجه عقوبة الاعدام بتهمة اصدار فتوى بقتل رئيس الوزراء (رزم آرا) حتى نجح في تبرئة ساحته رغم اقرار السيد الكاشاني بصدور هذه الفتوى منه، وكان دفاع السيد البروجردی عنه بان السيد الكاشاني فقيه ومن واجبه ابراز ما يعتقده وما يتوصل اليه من احكام عبر اجتهاده واستنباطه الخاص وليس لأحد الحق في محاكمة الفقيه على ابراز استنباطه[1]، ولكنه في موقفه من الحركة نفسها كان يقول: «ان القضايا التي ليس لي يد فيها ولا اعرف بدايتها ونهايتها ولا استطيع ادراكها لا ادخل فيها، وقضية تأميم النفط لا اعرف عنها ما هي؟ وما يراد منها؟ وبأي يد سيكون المستقبل؟ ومع ذلك العلماء يجب ان لا يخالفوا هذه الحركة لانهم اذا خالفوا هذه الحركة الشعبية واجهضت سجل تاريخ ايران ان العلماء كانوا السبب في هذه النتيجة لذا فاني كتبت الى السيد البهبهاني وعلماء طهران ان لا يخالفوا هذه الحركة»[2].

٤ ـ الوقوف ضد البهائية:

اعتاد الاستعمار على ان يقف خلف الاقليات الشاذة في البلدان الاسلامية بهدف احداث خلخلة سياسية فيها وازالة حالة التوازن عنها، وفي ايران وقف الاستعمار الى جانب الفئة البهائية الضالة، وعمد الى تسليمها

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٢٩ نقلاً عن الشيخ علي الصافي الكلبايكاني.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٦ نقلاً عن السيد محمد باقر السلطاني.

ارفع المناصب في الدولة واجهزتها المختلفة، الامر الذي حفز العلماء الى الوقوف ضد هذه السياسة الاستعمارية، وكان السيد حسين البروجردى في طليعتهم، حيث استطاع ان يطهر مدينة بروجرد من هذه الفئة الضالة التي اصبح العديد من افرادها يأتون اليه بعد ذلك ويتوبون على يديه.

وفي ايام مرجعيته كان يحث الشاه باستمرار على ضرورة الوقوف بوجه هذه الفئة، وكان الشاه يعطي للسيد وعوداً ايجابية الا انه لا ينفذها وفي احدى المرات اكد السيد البروجردى على الشاه في هذه المسألة، فطلب الشاه من السيد المساعدة فقال له سماحته: انت صاحب السلطة وليس انا «فأجابه الشاه: اضغطوا على الناس كي يقدموا شكوى ضد البهائية لتكون وثيقة لدى السلطة عندما تقوم بعمل شيء ضدهم فوافق السيد البروجردى على الطلب، وأخذ بتنفيذه حيث أوصى الخطيب المعروف الشيخ محمد تقي فلسفي ان يتحدث في مجالس شهر رمضان عن انحراف البهائيين واستجاب الشيخ الفلسفي لهذا التوجيه، واخذت الاصوات الشعبية تتأجج في كل مكان ضد البهائيين فأرادت السلطات تخريب المركز البهائي المسمى بـ «حضيرة القدس»، وبعد ثلاث ليال جاء شخص الى منزل السيد البروجردى يطلب التقاء بسماحته فالتقى به وابلغه ان سفارة امريكا طلبت من الشاه حماية الاقليات وانها ستقوم بذلك بنفسها ان وجدته عاجزاً عنه وان الحكومة رأت ان الاستمرار في هذا الموضوع يتنافى مع سيادتها، فأجابه السيد البروجردى لا بد ان تكون للقضية خاتمة مشرفة تتناسب وعزة المسلمين، وفي النهاية تقرر تحويل المركز المذكور الى مكتبة حكومية بدلاً عن تخريبه[١].

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨.

٥ ـ احداث قم عام ١٩٥٣:

في أوائل كانون الثاني ١٩٥٣ قامت مجموعة تعمل لصالح السلطة بالتجوال في مدينة قم والهتاف ضد الاسلام والسيد البروجردى والحاق نعت الرجعيّة بهما، فقامت حركة «فدائيان اسلام» بتحشيد مظاهرة جماهيرية ضدهم، والتقى الطرفان في مواجهة عنيفة سقط فيها عدد من الجرحى، وفي هذه الاحداث وقف السيد البروجردى ضد هذه المجموعة المنحرفة وندد باعمالها وشجب موقف السلطة منها.

٦ ـ موقفه من حركة فدائيان اسلام:

تعتبر حركة «فدائيان اسلام» من الحركات الاسلامية التي بكّرت في الايمان بالقوة وسيلة الى اصلاح المجتمع وتغيير السلطة، ويبدو ان هذه استراتيجية لم تتوافق مع المرجعية في الاتجاه السياسي العام وفي بعض المفردات الفقهية فان السيد البروجردى كان يهتم بواقع المرجعية والحوزة اكثر من أي شيء آخر، ولذا فانه لم يؤيد الاتجاه الذي سارت فيه فدائيان اسلام وكان يحرص على تغيير هذا الاتجاه وان وقف الى جنب هذه الحركة في اللحظات الحرجة ودافع عن زعامة الحركة وسعى الى تخفيف الاحكام الصادرة من قبل السلطات ضدهم وتأثر بشدة عندما سمع بخبر استشهادهم وتكفل عوائلهم.

٧ ـ مع حركة السيد حسين القمي:

في منتصف الاربعينات قدم السيد حسين القمي احد المراجع الكبار

آنذاك طلب الى السلطات يتكون من خمسة بنود منها منع المشروبات الروحية والغاء قانون منع الحجاب والغاء قانون تغيير الزي الشعبي، لكن الدولة لم تصغ لهذه الطلبات فبعث السيد البروجردى وفداً من قم لتأييد السيد القمي وفكر في الذهاب الى طهران ومتابعة الأمر بنفسه الا انه قرر الابقاء على هذه الفكرة كخطوة اخيرة، وفضّل ارسال رسالة الى رئيس الوزراء يطلب منه فيها النزول على مشروع السيد القمي ويهدده فيها بالمجيء الى طهران اذا لزم الأمر، مما احدث بلبلة في اروقة الدولة التي تردد فيها ان السيد البروجردي اذا جاء الى طهران فستضطرب الاوضاع في لرستان مما جعلها تقتنع في النهاية، بالموافقة على مشروع السيد القمي وامضاء طلباته[1].

٨ ـ يوم حرية المرأة:

في زمن حكومة رئيس الوزراء اقبال صدر أمر الى مدارس البنات في انحاء ايران باجراء استعراض نسوي تشترك فيه كل طالبات المدارس على ان يخرجن بملابس قصيرة جداً، وذلك احتفالاً باليوم الذي اعتبر يوماً لحرية المرأة، مما اثار غضب الناس واحتجاجهم وتوجهت الانظار الى السيد البروجردى كملجأ وحيد يمكنه انقاذ الشعب من هذه المحنة وفي يوم من الايام كان قائمقام مدينة قم قد توجه الى السيد البروجردى ليشرح له بعض الامور ذات العلاقة باهالي المدينة واوضاعهم، وبعد اكمال القائمقام كلامه اجابه السيد البروجردى بانه ليس لديه ما يقوله للحكومة، فقال له القائمقام: وجه كلامك للشاه، وهنا سجل اعتراضه الشديد على مشروع الاستعراض

(١) المصدر نفسه، ص ٥٤.

النسوي وما ينوي رئيس الوزراء اقبال اقامته من الاعمال المخلة بكرامة الشعب وحرمته ونتيجة لهذا الاعتراض الشديد الغي الاستعراض[1].

٩ ـ قضية زواج الشاه:

في احدى السنين اراد الشاه ان يتزوج من فتاة ايطالية فطلب من السيد البروجردى بيان فتوى تجيز له ذلك، وكان رأي السيد البروجردي في مسألة جواز الزواج من الكتابية خلافاً للمشهور، ولكنه رأى في الوقت نفسه ان تسليم هذه الفتوى الى الشاه يضر بكيان المسلمين فكتب إليه: «ان علماء الامامية لا يرون جواز زواج المسلم من الكتابية» يقصد غيره من العلماء.

١٠ ـ معارضة اعطاء ولاية العهد لاخت الشاه:

كما عارض اعطاء ولاية العهد لاخت الشاه التي رشحت لهذا المنصب وبسبب موقف السيد البروجردي من هاتين القضيتين الاخيرتين لم يجرؤ الشاه على تنفيذهما.

١١ ـ القضية الفلسطينية:

كما وقف الى جانب الشعب الفلسطيني في محنة الاحتلال الاسرائيلي لارضه وأصدر بياناً شجب فيه تأسيس دولة اسرائيل وما يقوم به الصهاينة من

---

(١) مجلة، ياد، العدد السادس، ص ١٨ ـ ١٩.

اعمال وحشية ضد المسلمين الفلسطينيين.

١٢ ـ الاعتراض على مراسيم عبادة النار:

في احد الايام وصلت رسالة الى سماحته من اذربيجان، ذكر فيها المرسل ان الفرقة العسكرية هناك تريد هذه السنة اقامة مراسيم عبادة النار، فكتب السيد البروجردي الى الشاه رسالة شديدة اللهجة يعترض فيها على ممارسات القوات المسلحة في هذا المجال، واثر وصول الرسالة الى الشاه اصدر الشاه اوامره بإيقاف هذه المراسيم»[١].

(١) مجلة الحوزة، عدد ٤٣ ـ ٤٤. ص ١٠٠ نقلاً عن السيد حسين بدلا.

دوره في الوحدة الإسلامية

لقد سيطر الحس الوحدوي على علماء مذهب اهل البيت عليهم السلام منذ القدم وظل يتواصل بوتيرة متصاعدة حتى يومنا هذا وقد نعتبر ذلك ظاهرة ينفرد بها علماء مذهب اهل البيت اذا لاحظنا ان علماء المذاهب الاخرى لم يقابلوا هذا الانفتاح بانفتاح مماثل إلا من بعضهم في الفترة المتأخرة، وعلى سبيل المثال نشير الى ان الشهيد الثاني والمحقق الكركي والشيخ حسين والد الشيخ البهائي والشيخ علي بن زهرة وغيرهم هاجروا الى الازهر في فترة من حياتهم للتعرف على علماء السنة بينما لا نعرف احد من علماء السنة من هاجر الى النجف للغاية ذاتها، وبين علماء الامامية من تعرض لفقه المذاهب كالعلامة الحلي ومنهم من درّسه كالسيد مهدي بحر العلوم بينما يندر لدى فقهاء اهل السنة التعرض لفقه الامامية وآرائهم[1].

ويعتبر آية الله السيد حسين البروجردي في طليعة العلماء الذين اهتموا بقضية الوحدة الاسلامية وأولوها عناية خاصة وآية ذلك اهتمامه بدار التقريب بين المذاهب التي أُسست بمصر وانتخب الشيخ محمد تقي القمي احد علماء الامامية المقربين من آية الله السيد البروجردي سكرتيراً عاماً لها وكان من

---

(١) مغنية محمد جواد. مع علماء النجف الاشرف، هامش ص ٤٤.

نتائج دعم السيد البروجردي لدار التقريب ان توثقت العلاقة بين المرجعية الشيعية والازهر، وكان شيخ الازهر الشيخ عبد المجيد سليم كلما تلقى رسالة من السيد البروجردي عبر الشيخ محمد تقي القمي يقف ويقبل الرسالة ثم يجلس[١]، ومن المعروف ان فتوى الشيخ شلتوت بجواز التعبد بمذهب اهل البيت كانت من نتائج التقارب بين المذاهب الاسلامية، وقد بلغ حرص السيد البروجردي على دعم الوحدة الاسلامية ودار التقريب بين المذاهب انه عندما كان على فراش المرض الذي توفي بسببه قال لمن حوله قولوا للشيخ القمي ان يوصل رسالتي الى الشيخ شلتوت وان يصلح ما بين ايران ومصر لاني اخشى ان تذهب جهودي لعدة سنوات سدى وفي اللحظات الاخيرة من حياته كان يسأل هل ذهب الشيخ القمي الى مصر ام لا؟ لماذا تأخر؟[٢]، وعندما رجع الوفد العلمائي الايراني المشارك في مؤتمر القدس الى ايران وقدم لسماحته تقريراً عن لقاءاته مع شيخ الازهر وباقي علماء المسلمين استقبلهم بالقول، آمل ان يصل اليوم الذي يتحول فيه التقريب الى وحدة واتحاد[٣].

ومن معالم اهتمامه بالوحدة ان احد العلماء في قم وضع منظومة شعرية في مدح اهل البيت وجاء بها الى السيد البروجردي ليطلعه عليها، فلما قرأها سماحته وجد في بعض ابياتها توهيناً بالخلفاء، فانكر السيد البروجردي على الناظم ذلك وطلب منه حذف هذه الابيات فحذفها.

وفي منهجه الفقهي كان السيد البروجردي يعتقد ان الفقه والاستنباط يتطلب المعرفة بنظرات وفقه اهل السنة، ويبدو ان هذا الاتجاه قد انتقل الى بعض علماء الازهر ممن ارتبط بعلاقة وثيقة بسماحته كالشيخ عبد المجيد

---

(١) مجلة حوزة، العدد ٤٣ ـ ٤٤، ص ١٠.
(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢، ص ١٨١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢٦٩.

سليم الذي ارسل له السيد البروجردي نسخة من المبسوط فكان كلما تعرض له مسألة في الفقه ويريد الافتاء يطالع رأي الشيخ الطوسي في المبسوط قبل ذلك[1].

وقد زاره الشيخ ابو المجد ـ احد علماء الازهر ـ عام ١٩٥٨ م والقى امامه قصيدة قال فيها:

شدوا الرحال الى الامام الاكبر تُسقوا بحضرته رحيق الكوثر
تسعون مليونا لرأيك تابع من عالم او باحث او مخبر
قالوا البروجردي قلت امامنا وامامكم في الورد او في المصدر

ان التسنن والتشيع دوحة تسقى بماء واحد لم يكدر

وعلى صعيد آخر يذكر السيد صالح الشهرستاني ان السفارة الاردنية في طهران انتدبته في عام ١٩٥٩ م ليقوم بتقديم هدية للملك حسين الى السيد البروجردي ولم يكن السيد ـ كسائر المراجع ـ يقبل هدايا الملوك، ولكنه تقبلها هذه المرة لانها كانت عبارة عن نسخة من المصحف الشريف، وعقب في حديثه على ضرورة الوحدة والتآلف بين المسلمين[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٢٣ نقلاً عن الشيخ واعظ زاده الخراساني.
(٢) الشهرستاني، صالح، المجتهد الاكبر الامام البروجردي، ص ١٣.

اثاره العلمية

كان آية الله البروجردي متقناً لجملة من العلوم كالفلسفة والهيئة والرياضيات وضليعاً في الفقه والرجال والاصول، وله افكار تأسيسية واسعة فيها وله منهج متين في الفقه والرجال ولا زالت بصماته موجودة في الحوزات العلمية ومن ابرز ابداعاته ما تركه في حقل الرجال من تقسيم الرواة الى طبقات تمتد من زمن النبي ﷺ وحتى عهد سماحته، فكان مجموع الطبقات ٣٦ طبقة.

وملاك الطبقة الاستاذ والطلبة، ومدة الطبقة ٣٠ سنة هي مدة استفادة التلاميذ من الاستاذ، فجعل الشيخ الطوسي مثلاً في الطبقة الثانية عشرة والشهيد الثاني على رأس الطبقة الرابعة والعشرين، وجعل نفسه في الطبقة السادسة والثلاثين[1].

وقد ترك ٥٠ كتاباً ورسالة في الفقه والحديث والاصول والرجال بضمنها تقريرات بحثه، ولعل من اهم ما خلفه من الآثار العلمية مشروعه الحديثي الكبير «جامع احاديث الشيعة» الذي اراد منه ان يكون محوراً للبحث الفقهي بدلاً عن (الوسائل) وذلك لما في الاخير من خصائص لا تستجيب

---

(١) مجلة حوزة، العدد ٤٣ ـ ٤٤، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢.

لمتطلبات البحث الفقهي، وكان يقول عنه انه «اشبه بالفقه منه بالحديث لانه جاء بالاخبار الدالة على حكم فرعي فقهي ولم يكن رأي صاحب الوسائل قاصداً الاتيان بدورة حديثية متكاملة» وبعد ان استعرض الموانع التي تفرض عدم الأخذ بهذا الكتاب كمحور روائي في البحث الفقهي يعقب قائلاً: «واني كلما ذكرت ما فيه من المذكورات يخطر ببالي ويقع في قلبي ان ساعدني الزمان ورزقني التوفيق الرحمن ان اؤلف جامعاً حاوياً لجميع الفوائد وافياً بجميع المقاصد، خالياً من التكرار والتقطيع والفضول»[1]، وظلت هذه الفكرة تراوده حتى استقر رأيه على تنفيذها، فجمع عدّة من الفضلاء المختصين وابان لهم مراده وأوضح لهم خطة العمل فباشروا به تحت نظره وارشاداته وواصلوا العمل عشر سنوات حتى انجز المشروع في عشر مجلدات ووضع تحت اسم «جامع احاديث الشيعة» ولا زال العمل متواصلاً لانجازه وقد تجاوز اخيراً العشرين مجلداً.

---

(١) البروجردي، محمد حسن، جامع أحاديث الشيعة ج ١ من المقدمة.

مزايا شخصيته

كان آية الله السيد البروجردي موفور الوقار مهاباً كثير الاناة لا تأخذه في الله لومة لائم، محباً للعبادة حتى انه نذر مرة لغرض معين صيام سنة كاملة فلما تحقق غرضه وفي بنذره وصام سنة كاملة، وكان زاهداً تذّكر سيرته بالأولياء، ومما يذكر عنه انه قال يوماً لأحد المقربين اليه ان الخبز الذي يأتيه ليس جيداً، فذهب ذلك الشخص الى الخباز واخبره بالأمر فقال الخباز لسنا مقصرين، ان الحنطة التي نخبز منها لسماحة السيد تُرسل الينا من بيته وهي ليست جيدة واذا يريد سماحته خبزاً افضل فليجيز لنا ان نخبز له من حنطة جيدة، فرجع ذلك الشخص الى السيد البروجردي واخبره بالأمر واقتراح الخباز فأجاب السيد ان هذه الحنطة ملك شخصي لي واني اكتفى بها ولا اعوضها[1].

ومن سخائه انه باع احد املاكه الخاصة في بروجرد ووضع الثمن في كيس خاص، وفي احد الايام جاء محتاج الى سماحته وطلب منه المساعدة فمنحه كيساً فيه مال فذهب المحتاج الى البيت وفتح الكيس فوجد فيه مبلغاً كبيراً وتيقن ان السيد قد اشتبه عليه الامر، فرجع الى سماحته واخبره بالأمر

---

(١) مجلة حوزة، العدد ٤٣ ـ ٤٤، ص ١٤٧ نقلاً عن آية الله الشيخ فاضل اللنكراني والشخص المذكور في الخبر هو والده.

وتبين ان ذلك الكيس هو الذي كان فيه ثمن الملك وان السيد اراد اعطاءه غيره فسبقت يده اليه، وردّ المحتاج الكيس الى سماحته لكنه رفض استلام الكيس واصر على المحتاج ان يأخذه فأخذه(١).

وعندما كان في بروجرد ارتفعت الاسعار في احدى السنين وعم المدينة غلاء فاحش فقام السيد ببيع داره وتوزيع ثمنها على الفقراء، وقد عرف عنه اهتمامه الشديد بمصالح الناس وحوائجهم، ومن اثاره الباقية في هذا المجال تأسيس مستشفى في قم ومحطة للطاقة الكهربائية وسايلو للحبوب في بروجرد.

ولم يعتمد في مصرفه الشخصي على موارد الحوزة المالية، بل كان يصرف على نفسه وعياله من ملك له في بروجرد.

وعرف عنه ايضاً العزوف عن الزعامة، وكان يقول لم اخط الى الوضع الذي صرت فيه خطوة واحدة، وقد جاءه يوماً رجل وهو في بروجرد وقال له: ان عدداً من مقلدي السيد ابو الحسن الاصفهاني يريدون العدول اليك بالتقليد، فاجابه: ان علم الاسلام اليوم بيد السيد الاصفهاني وان الرجوع اليّ يوجب فرقة المسلمين.

وفي احد الايام قدم شخص اليه من كرمانشاه وطلب اللقاء به، ولما التقاه عرّفه نفسه انه احد المقربين من الشاه، فقال له السيد: مالي وذاك؟ انت رفيق الشاه، ما مقصودك؟ فقال: ان لي ارتباطاً مع البابا وبامكاني ان ارتب لقاءً له بكم وأأتي به اليكم، فقال له السيد البروجردي: انا لا ارغب بمثل هذه اللقاءات التي ليس فيها رضا الله ولا نفع للاسلام ثم نقل له قصة من طلب منه العدول بالتقليد من السيد الاصفهاني اليه لكي يفهمه انه لا

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٦٥ نقلاً عن الشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

يحب الشهرة والجاه[١].

ومن جهة اخرى عرف السيد البروجردي بعدم اعتداده بالملوك والحكام وينقل الشيخ علي الصافي والگلبايگاني، انه كان حاضراً في لقاء جرى للشاه مع السيد البروجردي وانه لمس عدم اكتراث السيد بالشاه وانه تعامل معه كتعامله مع بقية الناس، وانه أي الشيخ الصافي قال للسيد البروجردي مره، ان هذا الأمر يجعلنا اكثر ارتباطاً بكم فقال السيد، انا مع ابيه الذي كانت له قدرة اكبر منه كنت اتعامل بهذه الطريقة، وذكر قصة اعتقاله في طهران بعد عودته من العراق وكيف ان الشاه رضا جاء لمقابلته فواجهه السيد البروجردي بعدم الاهتمام والاكتراث[٢] وقد خاطب اقبال رئيس الوزراء مرة في حديث له عن الشاه قائلاً: «ابوه كان امياً، ولكن كان لديه مقدار من الشعور، اما هذا ـ يقصد محمد رضا بهلوي ـ فليس له شعور ولا يلتفت لشيء[٣].

---

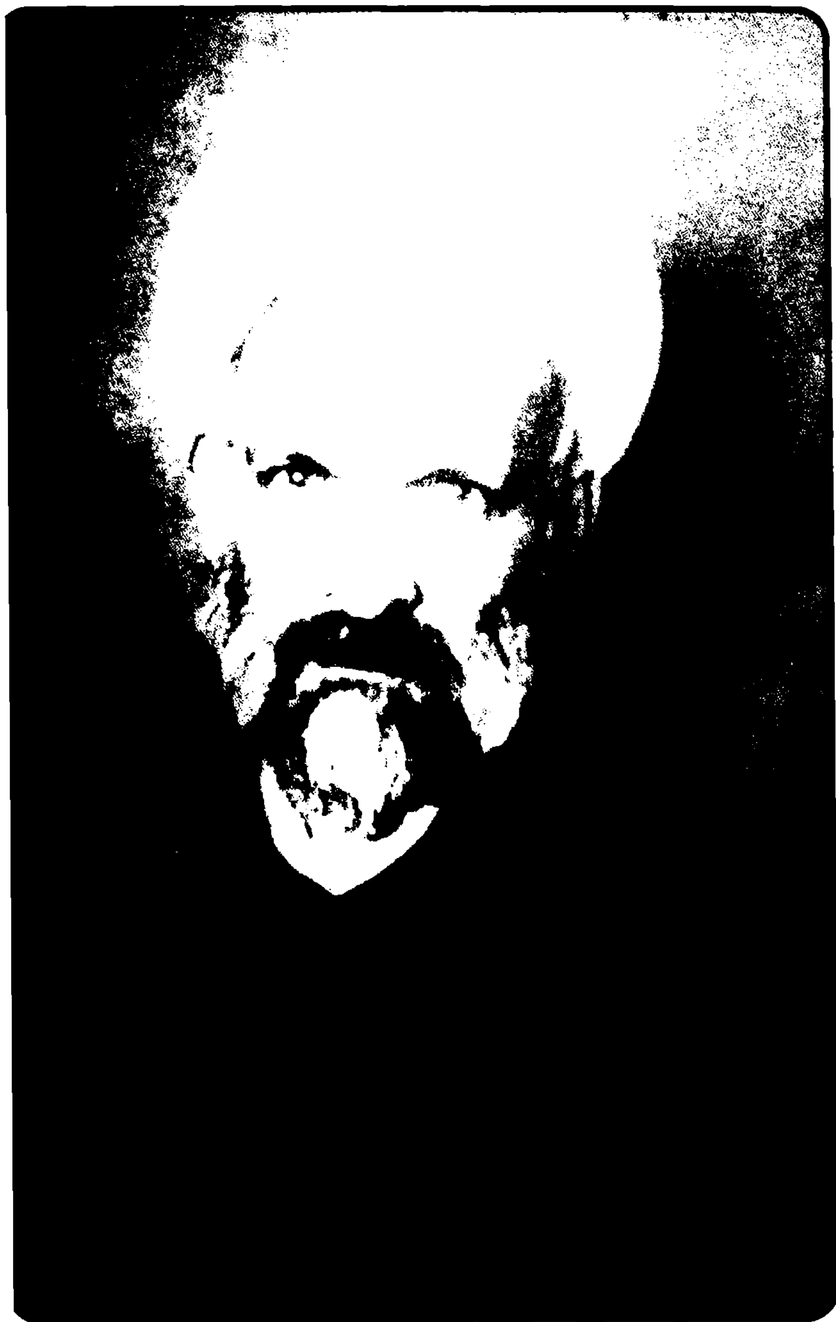
(١) المصدر السابق، ص ١٨٩ ـ ١٨٠.
(٢) المصدر السابق، ص ١١٥.
(٣) المصدر نفسه.

وفاته «قدس سره»

وبعد اربعة عشر عاماً من المرجعية العامة توفي الامام البروجردي في عام ١٩٦١ اثر نوبة قلبية وشيع تشييعاً عظيماً لم ير مثله في ايران آنذاك وحضر جنازته مائتا الف نسمة وأقيمت مجالس الفاتحة على روحه الطاهرة في مختلف انحاء العالم الاسلامي، كما بادر الارمن واليهود في ايران الى عقد مراسيم العزاء على روح الفقيد الكبير.

المجتهد المجدد

الشيخ محمد رضا المظفر



الشيخ محمد رضا المظفر

الاصلاح والتجديد عنوانان عميقا الجذور في التاريخ والفكر الاسلاميين، ولهما زخم وفاعلية شديدان في شخصية الفرد المسلم، غير ان الاتصاف باحدهما يَتَطَّلب شروطاً ومؤهلات عالية، تجعل ذلك حالة استثنائية يجود بها الزمان على نحو نادر، او تكون فلتات يستغفل من خلالها البطل والتاريخ، ويتمرد على حساباته العادية ليفرض طابعه الاستثنائي عليه. اذا امكن لهذه المعاني ان تكون بطاقة تعريف بشخصية ما فالقدر المتيقن انها بطاقة مختصرة للتعريف بشخصية العلامة المصلح الشيخ محمد رضا المظفر الذي فَخَر الامتياز به عندما وجده يحمل عنوانين كبيرين قلّما تشرّف كبار الرجال باحدهما فهو المجدد بلا نكير، والمصلح الذي اعطى للامة اصلاحه، وتحمّل عنها آلامها فسعُدت به، ولم يسعد بها.

دور النشأة

في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، ظهرت في النجف الاشرف اسرة علمية تنتسب من حيث الاصل الى المدينة المنورة وتنتمي قبلياً الى قبيلة «الصيامرة»، وعندما حلت في النجف سرعان ما احتلت مكانة مرموقة في الاوساط العلمية هناك فيما توجه بعض رجالها جنوباً ليقطنوا مدينة البصرة، وقد عُرفت هذه الاسرة باسم جدها الأعلى مظفر بن احمد[1] وفي الفترة المتأخرة لمعت فيها عدة اسماء، كما نالت من خلال بعض افرادها دور المرجعية اكثر من مرة، فالشيخ محمد عبد الله والد الشيخ المظفر كان مجتهداً وكان من مراجع الدين في عصره، كما ان الشيخ محمد حسن المظفر، الاخ الاكبر للشيخ المظفر كان في عداد مراجع التقليد ايضاً.

في هذه الاسرة، ولد الشيخ محمد رضا المظفر في أوائل شهر شعبان من عام (١٣٢٢ هـ ـ ١٩٠٤ م) وترعرع في احشائها يرتضع من الامتيازات العلمية والاخلاقية التي حظيت بها والتي عوضته عمّا فقده من حنان الابوة وعطائها قبل مجيئه للحياة فقد ولُد الحجة المظفر يتيماً، فكفله مع اخويه الآخرين محمد حسن ومحمد حسين، الاخ الأكبر الشيخ عبد النبي المظفر الذي يعود الفضل اليه في تنشئة اخوته ظلت مضرب المثل بين الناس فترة

(١) آل محبوبة، جعفر باقر، ماضي النجف وحاضرها، ج ٣ ص ٣٦٠.

ليست قليلة.

ولكن سرعان ما ينتقل هذا المربي المخلص الى جوار ربه الكريم تاركاً اخويه محمد رضا ومحمد حسين بكفالة الشيخ محمد حسن، الذي قام منهما مقام الأب والاستاذ في ان واحد، حيث كان الاستاذ الاول الذي سيواصل اهتمامه التعليمي بهما حتى آخر الشوط.

رحلة العلم

يعتبر العام (١٣٣٥ هـ ـ ١٩١٩ م) بداية الحياة الدراسية للشيخ المظفر يوم اقبل على التحصيل العلمي، وهو ابن اثنى عشر عاماً، حيث أخذ مقدمات العلوم من اخيه الشيخ محمد حسن المظفر والشيخ محمد طه الحويزي، ثم واصل الدراسة في المراحل العليا على يد اخيه الشيخ محمد حسن والمحقق الشيخ ضياء الدين العراقي والشيخ حسين النائيني والشيخ محمد حسين الاصفهاني، حتى بلغ درجة الاجتهاد وحصل على اجازات في ذلك من اخيه الشيخ محمد حسن واستاذه الشيخ محمد حسين الاصفهاني والمرجع الديني السيد عبد الهادي الشيرازي[1].

والى جانب الفقه والاصول، ولع الشيخ المظفر بدراسة الرياضيات والفلك والعروض والفلسفة، وكان من مدرسي اسفار الملا صدرا الفلسفية المعروفين، كما ألف كتاباً في العروض في سنة (١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤ م).

يبدى الاستاذ جعفر الخليلي اعجابه بالحياة الدراسية للشيخ المظفر قائلاً: واني لاذكر ان الشيخ المظفر كان احد بضعة انفار ممن لفتوا انظار الآخرين من اوساط الحوزة اليهم بجِدهم وانغماسهم في الدروس «مفسراً

---

(١) حرز الدين، محمد، معارف الرجال، ج ٢ ص ٢٤٧ في الهامش.

تعمق الشيخ المظفر في الالهيات والفلسفة واهتمامه بما كان يضعه الشيخ محمد جواد البلاغي من افكار وآراء في هذا المجال، الى عملية تحضير الارواح التي ولع بها الشيخ المظفر مع اترابه في عهد صباه»[1] حيث كان نافذة اطلّ المظفر من خلالها على عالم ما وراء المادة ليسبر غوره طيلة حياته العلمية.

---

(١) الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم ج ٢ ص ١٧ ـ ١٨.

التجديد الفكري

في منتصف العشرينات من هذا القرن، انتهت الجولة السياسية الاولى من المعركة بين التغريب والاسلام في العراق واكثر بلدان العالم الاسلامي الاخرى ـ لصالح الاستعمار الذي فرض نفسه على الأمة بحكم الامتيازات المادية والسياسية والعلمية التي كانت بحوزته من جهة، وعوامل التخلف التي يعيشها العالم الاسلامي من جهة اخرى، الأمر الذي نبّه القيادة الاسلامية في النجف الاشرف الى عدم جدوى الاستمرار في المراهنة على العامل السياسي، والى ضرورة تجديد بناء القواعد التحتية للمجتمَع الاسلامي، وايجاد صياغة عصرية للفكر الاسلامي تتيح له الارتقاء الى مستوى التحديات الحضارية الكبرى، التي يفرضها الغرب على الاسلام في المرحلة الجديدة وكان معنى ذلك تغليب مهام التجديد الفكري على المهام السياسية ريثما يكتمل بناء القواعد التحتية الجديدة للمجتمع الاسلامي المعاصر.

من هنا، كانت الفترة الواقعة من منتصف العشرينات، وحتى منتصف الستينات تمثل مرحلة غلبة الفكر على السياسة في اعمال المرجعية والحوزة العلمية للنجف الاشرف، وهي المرحلة التي بدأها المرجعان الكبيران آية الله السيد ابو الحسن الاصفهاني وآية الله الشيخ النائيني بعد عودتهما من ايران الى العراق، والتي ضمت النشاطات الفكرية الواسعة للشيخ محمد البلاغي،

والسيد هبة الدين الشهرستاني، والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، والشيخ اغا بزرك الطهراني، والشيخ عبد الكريم الزنجاني، والسيد محسن الامين العاملي، واخيراً الامام الشهيد محمد باقر الصدر.

غير ان الدور الاكبر في هذه المرحلة، هو ما قام به العلامة الشيخ محمد رضا المظفر الذي لعب دوراً محورياً فيها، ووظّف كل ملكاته من اجلها، لانه كان رجل القول والعمل معاً، فقد اقترن فكره التجديدي بحركته الاصلاحية الرائدة التي أطلقها في مجال تجديد وتطوير المناهج التدريسية للحوزة العلمية ولولا هذه الحركة وما كان الشيخ المظفر قد عقد العزم عليه من تغليب هموم التجديد والاصلاح على ما سواها لبلغ ما كان بطوع بنانه من آمال المرجعية العليا.

ولأجل اندكاك التجديد في حياة الشيخ المظفر بالاصلاح وعدم امكانية الفصل بينهما، لذا فمن الافضل استعراض خطوات التجديد من خلال استعراضنا لخطوات الاصلاح في سيرته «قدس سره».

قصة الإصلاح

لقد قدَّر الشيخ المظفر ان المجتمع الاسلامي يعيش بداية دورة حضارية جديدة، وان هذه البداية تعني ضرورة الشروع بالتجديد والاصلاح من النقطة التي تمثل قطب المجتمع ومحوره الاساس، الا وهي الحوزة العلمية في النجف الاشرف، من هنا فقد كان مصب الحركة التجديدية والاصلاحية في حياته.

يقول الاستاذ جعفر الخليلي: ان الشيخ المظفر هو اول «من التفت الى وجوب ايجاد حركة تجديدية في طريقة البحث والاستقراء والاستقصاء عن طريق التأليف والمبادرة الى احياء المؤلفات الخطية ونشرها والتعليق عليها بقالب يتمشى مع العصر، وقد سرّه ان وجد له مؤيدين، وكان معظمهم اكبر منه سناً، وأقدم عهداً بالدرس، كالشيخ عبد الحسين الحلي والسيد علي بحر العلوم والشيخ محمد جواد الحجامي وأخيه الشيخ محمد حسين المظفر»[1].

يقول الشيخ المظفر، منتقداً حالة الجمود الفكري: «وهذا هو التفكير الذي يبدو ظاهراً على بعض رجالنا، الذين كانوا يحلمون باصلاح نواقص الدراسة العلمية في معاهد النجف الاشرف، فان هذه النواقص كفقدان نظم

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢١.

التربية والتدريس في الامتحانات والمواد العلمية والاوقات والشهادات، كانت تهدد المفكرين منا بشلل الحركة العلمية في مستقبل الجامعة القريب او البعيد، يوم اصطدمت سفينة هذه الجامعة القديمة بتيار العصر الجديد فهزّتها في بحر متلاطم بالميول، ولكن الوقت الذي كانوا يفكرون في هذا كان يعوقهم عن التقدم في العمل ذلك التفكير المؤلم»[1].

وبعد هذه الفكرة التحليلية، لنستمع الى الشيخ المظفر وهو يحدثنا عن قصة الاصلاح في حياته، كتب يقول: «لقد سايرت بنفسي فكرة الاصلاح حتى هذه الساعة ـ يقصد عام (١٣٥٨ هـ ـ ١٩٣٩ م) وساعطيكها وليدة، نشأت في احضان الاجتماعات الصامتة، ومرت عليها ادوار وتجارب غذتها، حتى اشتد ساعدها ونمت نمواً يناسبها شأن الكائنات الحية»[2] ثم يستطرد قائلاً: «بالرغم من مواصلة الجلسات والتفكير عاماً واحداً لم نستطع اخراج صوتنا من غرفتنا الا بعض الشيء، ولم نستطع ضم اكثر من عشرة اعضاء»[3].

ويمثل عام (١٣٤٣ هـ ـ ١٩٢٤ م) بداية التفكير والعمل من اجل الاصلاح، وظلت هذه الفئة القليلة من المصلحين تنتظر الفرصة المناسبة للظهور، وتعمل على استثمار المناسبات والاحداث وتوظيفها في خدمة قضية الاصلاح، حتى جاء عام (١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ م) حينما هوجمت النجف بعدد من الكتب الدعائية، التي حسست الشعور العام وحفّزته للدفاع عن الذات، فاتخذ بعض المصلحين هذه الحادثة فرصة مناسبة، لتأسيس جمعية النشر والتأليف، التي سرعان ما أشركَ القائمون بها معهم اشهر رجالات النجف وقاموا بانتخاب هيئة عامة من سبعة اشخاص، وهيئة عليا

---

(١) الاصفي، محمد مهدي، مدرسة النجف وتطور الحركة الاصلاحية فيها، ص ١١١.
(٢) المصدر نفسه، ص ١١٢.
(٣) المصدر نفسه، ص ١١٣.

من ثلاثة مجتهدين، وهي - أي هيئة المجتهدين - التي اقترحت - فيما بعد - على الشيخ البلاغي (رحمه الله) تأليف تفسير مختصر للقرآن الكريم، ليكون باكورة اعمالها، وقد استجاب الشيخ لطلبهم فعلاً وكتب تفسير «الآء الرحمن» الا ان المنيّة عاجلته قبل اتمامه[١].

وشيئاً فشيئاً أخذت الفكرة الاصلاحية تحرز تقدماً ملحوظاً في اذهان العاملين لها، من خلال ازديادها وضوحاً لديهم، وفي الوسط العلمائي من خلال ما تكسبه من الانصار يوماً بعد آخر من ممثلي هذا الوسط الرفيع في الأمة، حتى بلغ عدد الموقعين على ورقة عمل: «منتدى النشر» مئتي عالم دين، وان كان الذين ثبتوا منهم - في وجه العاصفة التي اثيرت ضد هذه المؤسسة الاصلاحية - عدداً قليلاً جداً[٢].

وفي عام (١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م) قدم ثلة من العلماء يتقدمهم الشيخ المظفر بياناً الى وزارة الداخلية، يطلبون فيه الترخيص بتأسيس جمعية باسم «منتدى النشر» وبعد جهود مضنية، حصل العاملون على اجازة الوزارة، وبذلك اعلن عن تأسيس المنتدى، وانتخب الشيخ محمد جواد الحجامي رئيساً له والشيخ المظفر سكرتيراً، وكان الهدف من هذه المؤسسة هو: «تعميم الثقافة الاسلامية والعلمية، والاصلاح الاجتماعي، بواسطة النشر والتأليف والتعليم، وغير ذلك من الطرق المشروعة»[٣].

وفي العام التالي، وضع الشيخ المظفر خطة لتأسيس كلية الاجتهاد، لتدريس الفقه الاستدلالي والاصول والتفسير والفلسفة وفي عام (١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م) تولى الشيخ المظفر رئاسة المنتدى، وتكرر انتخابه لها الى آخر

---

(١) المصدر نفسه، ص ١١٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٥.

حياته، وفي العام التالي تم تأسيس صف لدراسة العلوم العربية والمنطق والفقه، استمر الى آخر السنة، وكان تجربة ناجحة، شجعت العاملين في المنتدى على فتح ثلاثة صفوف في السنة الدراسية اللاحقة، ونجح هذا المشروع ـ هو الآخر ـ نجاحاً باهراً وبلغ عدد طلابه «١٥٠» طالباً، كما اعترفت وزارة المعارف العراقية بتلك الصفوف الدراسية.

وواصل الشيخ المظفر جهاده الاصلاحي وخطواته التحديثية، متعقباً عوامل التخلف حيثما تكون، ولم يكن منهجه الاصلاحي مقتصراً على التجديد في مناهج الدراسة، او منحصراً في اطار الحوزة، بل اتسع ليشمل وسائل التبليغ الاسلامي والتوجيه الاجتماعي، وكان يفكر ملياً بعوامل التخلف التي تحيط بالخطابة الحسينية وطريقة ادائها آنذاك ويسعى لتربية نشىء من الخطباء يملكون الكفاءات التي تؤهلهم للخطابة الاسلامية، وهذا ما صرح به في عام (١٣٦٣ هـ ـ ١٩٤٣ م) في التقرير السنوى الذي رفعه الى الهيئة العامة، ولأجل هذا الغرض تألفت لجنة في العام نفسه برئاسة الخطيب الشهير الشيخ محمد علي قسام، وقد باشرت هذه اللجنة اعمالها بالفعل، وذلك بفتح صف تجريبي لتدريس الفقه، والعربية والدراية والعقيدة.

وهنا أُمتحن المصلحون وعلى رأسهم الشيخ المظفر امتحاناً عسيراً، فقد لملم معارضو تلك الفكرة اطرافهم، وصاروا يندبون الخطابة الحسينية التي يريد الشيخ المظفر القضاء عليها، ومع ان خط الاصلاح كان يتقدمه رجال اتقياء وعلماء معرفون، الا ان معارضيهم استطاعوا ان يؤثروا ـ سلباً ـ في اوساط المجتمع، بشكل ادى الى الغاء اللجنة المذكورة، واستقالة الشيخ محمد الشريعة ـ نجل المرجع الديني شيخ الشريعة الاصفهاني ـ من سكرتارية المنتدى، وكادت الموجة المقابلة ان تطيح بالمنتدى، لولا صبر وثبات الشيخ المظفر، الذي اعتزل المجتمع بإيمان، اقوى، وعزم اشد على مواصلة الاصلاح.

وبعد اخفاق الخط الثاني لحركته الاصلاحية المتمثل باصلاح المنبر الحسيني، رجع الى التأكيد على الخط الاول الذي انطلق منه وهو المناهج الدراسية، ففي عام (١٣٦٤ هـ - ١٩٤٤ مْ) قام بفتح اربعة صفوف دراسية، أُعتُبرت قسماً متوسطاً للدراسة الدينية، مع صف تحضيري قبلها، وثلاثة صفوف اخرى بعدها، اعتبرت بمثابة كلية للفقه. وفي هذه الفترة عاود الشيخ المظفر الى فتح خط اصلاحي ثان في حركته، غير آبه بالمعارضة التي لقيها، ولئن كانت محاولته السابقة قد اخفقت، فهو الآن بصدد ايجاد بديل لها، وكان ذلك البديل هو تنشيط حركة التأليف والكتابة والتحقيق، وتربية جيل من الكتّاب والباحثين، وقد قدّر لهذا المشروع ان ينشر سلسلة من الكتب الاسلامية والتوجيهية النافعة، كما قدر للمنتدى اصدار مجلتين هما: «البذرة» و «النجف».

وفي عام (١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م) وبعد جهود كبيرة، أسس الشيخ المظفر «كلية الفقه» في النجف الاشرف، واعترفت بها وزارة المعارف العراقية في السنة التالية، وبما تمنحه من شهادات لطلابها، على انها شهادات عالية، والعلوم التي تدرس فيها، هي: الفقه الامامي، والفقه المقارن، وأصول الفقه، والتفسير والحديث، والتربية، وعلم النفس والادب، وعلم الاجتماع، والتاريخ الاسلامي، والفلسفة الاسلامية، والفلسفة الحديثة، والمنطق، واصول التدريس، والنحو والصرف، واحدى اللغات الاجنبية (الانجليزية).

وهنا برز الدور التجديدي للشيخ المظفر، فمناهج الدراسة التقليدية في الاصول والمنطق والفلسفة لا تنسجم مع المناهج الحديثة في التدريس، وكان على الشيخ المظفر - وهو يؤسس كلية دينية تقوم على اساس المناهج الحديثة في التدريس - ان يضع المناهج المناسبة في مثل هذه المجالات، وما كان منه الا ان استجاب لهذه المهمة، فانتدب قلمه، ليضع كتابيه:

«المنطق» و «اصول الفقه» في متناول طلابه، محققاً بذلك فتحا ليس في دنيا مناهج التدريس الديني فحسب، وانما في كثير من ابعاد علميّ المنطق والاصول ايضاً، والى جانب هذين الكتابين، كان يلقي على طلبته بحوثاً في الفلسفة الاسلامية، وكان من المقرر ان تكون كتاباً باسم: «الفلسفة»، الا ان الاقدار خانت الآمال، فلم يظهر الكتاب الى عالم النشر.

وهكذا نجد الشيخ المظفر، يوقف حياته وامكاناته من اجل المشروع الاصلاحي ـ التجديدي والمتمثل بقضية منتدى النشر واهمل حلقة درسه، وزهد في الطريق الذي كان يمكن ان يؤدي به الى المرجعية سريعاً، واقبل على آخر، ملأه الاعداء باحابيل وشراك ومعاناة لا يعرف مداها الا من كُتب له ان يشهد الوقائع عن كثب، على حد تعبير الكاتب المعروف جعفر الخليلي[1] وقد كان من حسن الحظ ان يلقى المنتدى تأييد وتبنى المرجع الديني الاعلى السيد ابي الحسن الاصفهاني الذي افتى بصرف الحقوق الشرعية على هذه المؤسسة[2].

ويكفي الشيخ المظفر وساماً، انه رائد الحركة الاصلاحية الحديثة في النجف الاشرف، وان نتاج حركته هذه، ظهرت في ثلة رفيعة من كبار العلماء والخطباء، الذين تصدروا واجهة الخطابة والعمل الفكري والسياسي بعده، ولا زال العديد منهم يضطلع باعباء مسؤوليات جليلة في الساحة الاسلامية[3].

---

(١) الخليلي، جعفر، المصدر السابق، ص ٢٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه ص ٥٢.

عطاؤه العلمي والأدبي

خلّف الشيخ المظفر آثاراً فكرية عديدة، منها كتابه: «احلام اليقظة»، استعرض فيها نظريات صدر المتألهين في الفلسفة. ومنها كتابه: «السقيفة» وهو كتاب تاريخي تحليلي لوقائع ما بعد وفاة الرسول الاعظم ﷺ، كشف فيه الشيخ المظفر عن مقدرة عالية في تناول الموضوعات التاريخية ومعالجتها، وفق الاسلوب الحديث.

ومنها «فلسفة ابن سينا» بسط فيه المؤلف حياة ابن سينا وشرح بعض آرائه، وذكر نقوده عليها، كما خلّف في مكتبته الخاصة، كتاباً في تفسير القرآن، وآخر في «فقه المعاملات» وثالثاً في «الارث» اضافة الى كتابيه المذكورين آنفاً: «المنطق» و «أصول الفقه»، والى جانب ذلك، دخل الشيخ المظفر الميدان الادبي، وعُرف فيه شاعراً مُجيداً، وقد نظم اكثر من الفي بيت، نزع بعضها الى تسجيل الخواطر الفلسفية والنفسية[١].

---

(١) الخاقاني، علي، شعراء الغري، ج ٨ ص ٤٦١.

خدماته ونشاطه السياسي

عاش الشيخ المظفر ادواراً مليئة بالاحداث والتحولات على صعيدي الفكر والسياسة، وكان معظمها ايجابياً وفعالاً الى جانب ما حمل من هموم التغيير والاصلاح في حياة الحوزة العلمية.

فقد عاش احداث الجزائر المسلمة، وتألم لما كان يعانيه المسلمون هناك، ورفع البرقيات الى بعض الجهات الدولية المعنية مستنكراً ومندداً بالاستعمار، وابّان العدوان الثلاثي على مصر عام (١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٦ م) كان له دور في الغليان الشعبي الذي انطلق في النجف الاشرف، تأييداً للشعب المصري، وقد أبرق الى شيخ الازهر برقية، عبّر فيها عن دعم وتأييد الشعب العراقي المسلم لأخيه الشعب المصري المسلم، كما كان له دور في تأييد الحركة الاسلامية التي انطلقت في ايران بقيادة الامام الخميني (قدس سره) سنة (١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٣ م).

وعلى الصعيد الداخلي، يذكر الاستاذ جعفر الخليلي عن نشاطات الشيخ المظفر السياسية ايام العهد الملكي، ويشير الى المقابلة التي تقرر في النجف اجراؤها مع «ولي العهد» لطرح بعض القضايا المهمة عليه، وكان الخليلي احد افراد الوفد، يقول: «واثناء المقابلة تكلم الشيخ، فما عرفت لوماً افرغ في عتب حلو جميل، ولا نقداً صيغ في عبارة عذبة كالعتب الذي

عاتب به المظفر الحكومة، ولم يكذب ولم يداهن، وخرجنا من البلاط، وانا جازم بانه قد قال اكثر مما تسمح به الظروف هناك عن الحكومة وطريقة الحكم»[١].

وفي محنة المدّ الشيوعي في العراق، قام الشيخ المظفر باتصالات واجتماعات مع بقية علماء النجف الذين كانوا يشاطرونه الهم ذاته، مما أسفر عن ولادة «جماعة العلماء» التي أخذت على عاتقها مقاومة المدّ الاحمر والتي عقدت جلساتها في اوائل جمادى الاولى سنة (١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م).

وعندما أصدر عبد الكريم قاسم قانون الاحوال الشخصية، المنافي للاحكام الاسلامية، وقف الشيخ وعلماء آخرون ضد هذا القانون وارسلت «كلية الفقه» الى الحكومة، تقريراً مفصلاً عن وجوه الاختلاف بين ذلك القانون والقانون الاسلامي، كما أبرق الشيخ عدة برقيات الى رجال الحكم في العراق، ينذرهم فيها من مغبة التمادي في مخالفة الاسلام[٢].

ومن جهة اخرى، مثّل الشيخ المظفر النجف الاشرف، في حفلات «كراجي» عام (١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م) التي أقيمت بمناسبة مرور ١٤ قرناً على ولادة الامام علي عليه السلام، كما حضر احتفالات جامعة «القرويين» بفاس عام (١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م) بمناسبة مرور احد عشر قرناً على تأسيسها[٣].

---

(١) الخليلي، جعفر، مصدر سابق ص، ٢٦.
(٢) الاصفي، محمد مهدي، مصدر سابق، ص ٩١.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٣.

سجاياه الإخلاقية

عُرف الشيخ الحجة المظفر (قدس سره) بسجايا عالية، كالتواضع والاخلاص وعدم الالتفات الى القشور والزخارف يقول الكاتب المعروف علي الخاقاني: «عرفته منذ زمن بعيد، يرجع الى اكثر من ربع قرن، انسان حي الشعور، يقظ القلب مرح الروح لا يميز بين العدو والصديق لقوة المجاملة عنده، وقلّما تراه يهاجم احداً، وان ازعجه بالقول الجاف واللهجة اليابسة»[١]، وفي مدارس المنتدى ومعاهده، كان يمارس التدريس احياناً في الصفوف الاولى من الدراسة، عند غياب بعض الاساتذة، ويباشر تدوين السجلات او مراجعتها او طباعة بعض الرسائل بالآلة الطابعة[٢] وهو المجتهد الذي تخرّج على يديه عدد من المجتهدين.

---

(١) الخاقاني، علي، مصدر سابق، ص ٤٥٣.

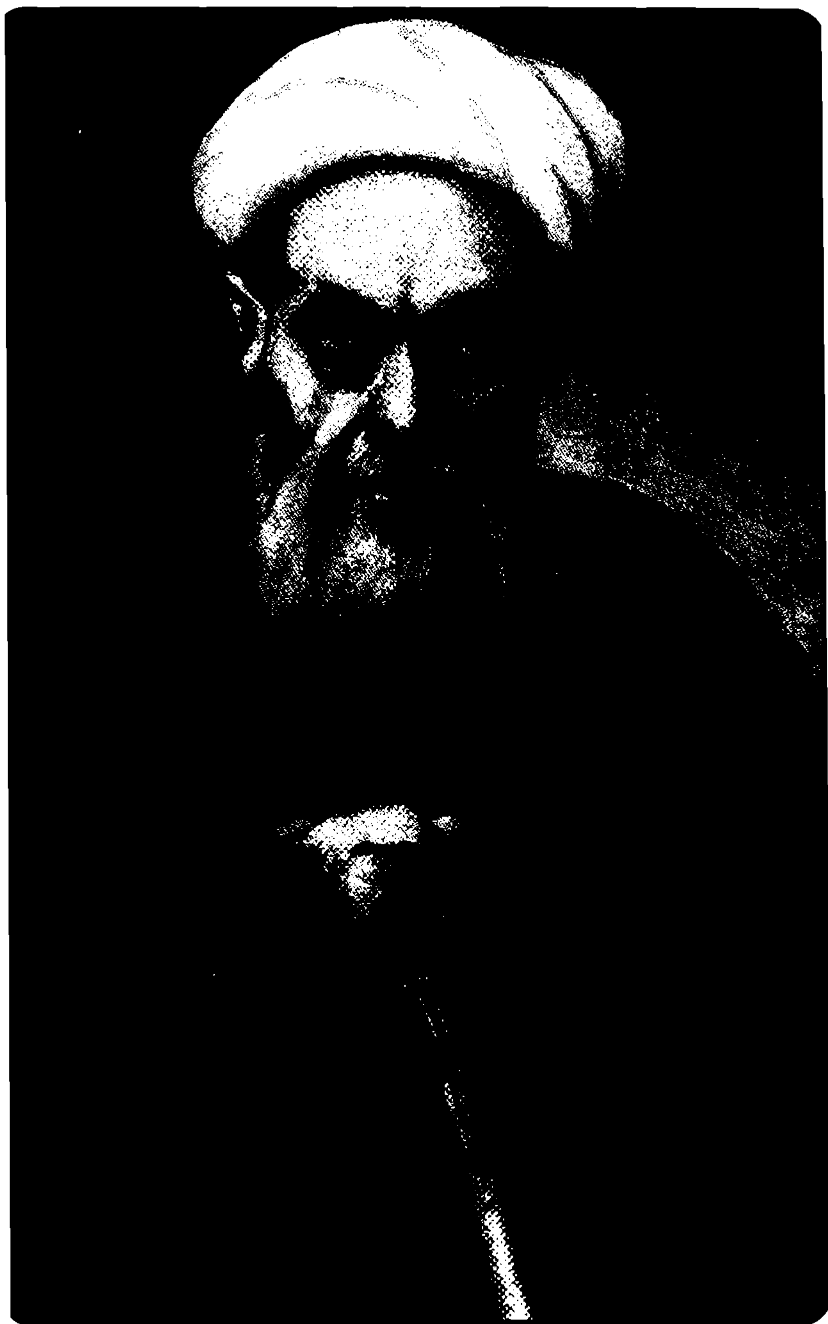
(٢) الاصفي، محمد مهدي، مصدر سابق، ص ١٢٩.

وفاته

انتقل الشيخ الحجة محمد رضا المظفر الى الرفيق الاعلى، ليلة (١٦ رمضان، ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٦٤ م) وشُيع تشييعاً مهيباً حافلاً بالعلماء وغيرهم، ودفن الى جنب أخيه الشيخ محمد حسن المظفر (رحمهما الله).

المصنف الموسوعي

الشيخ أقا بزرك الطهراني



الشيخ آغا بزرك الطهراني

إذا كانت أهمية التراث في حياة الأمم والشعوب، تنبع من كونه رمزاً الى الذات، وتمجيداً بالجذور، وعاطفة نحو السلف وتحقيقاً للرفعة امام الآخرين، فانها بالنسبة لنا نحن المسلمين تنبع اضافة الى ذلك من ارتباط التراث بالحضارة والاسلام الذي أوجدها، فان التراث في المفهوم الاسلامي يعني حصيلة الابداع والقيم التي انجزها الاسلام!. يوم تزعم المسلمون بفضله البشرية عشرة قرون واعطوها ما لم يعطها احد من قبل، رغم ان عملية التطبيق الاسلامي لم تكن متكاملة، وكانت علاقة السياسة بالاسلام على ما يرام.

ان العناية بالتراث تعني العناية بجذور حية يمكنها ان تستأنف التأثير يوماً ما في حياة الانسان، وتتحرك في دورة جديدة من الابداع والقيم، وبالتالي فهي من دلائل وجود أمة حية، وفي مجتمعنا الاسلامي المعاصر تجسّدت هذه العناية من خلال نشاطات جملة من العلماء والباحثين الكبار الذين وهبوا حياتهم وفكرهم خدمة للتراث الاسلامي العريق ويأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الكبير الشيخ أقا بزرك الطهراني الذي لقبه بعضهم بـ «شيخ الباحثين» والذي يتعين علينا دراسة حياته خدمة للتراث واجلالاً للعلماء.

دور النشأة

ولد الشيخ محمد محسن الطهراني في طهران سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) وكان والده الحاج علي وجده الحاج محسن من رجال الدين، ولهما يد في التجارة أيضاً، فوالده الذي وضع كتاباً في حرمة التنباك تأييداً لفتوى المجدد الشيرازي كان يعد من افاضل تجار طهران، كما ان جده كان تاجراً ايضاً وقد أسس بمساعدة منوجهرفان معتمد الدولة أول مطبعة في ايران[1] وقد افاد الوليد محمد محسن من الخصائص العلمية لاسرته حيث أتاحت له فرصة جيدة في تحصيل عناية ابوية خاصة في مجال التحصيل العلمي، فعندما بلغ السابعة من عمره، حرص والده على اعطائه تعليماً أولياً في القرآن والشعر والحساب والعلوم الدينية، ولما بلغ العاشرة من عمره البسه زي طلبة العلوم الدينية في حفل خاص، وبسبب اشتراك اسمه مع اسم جده الاعلى، لُقب بـآقا بزرك «أي السيد الكبير»، وهو لقب يُعطى في المجتمع الايراني وفي طهران بشكل خاص لكبير العائلة، وللصبي الذي يسمى باسم جده الاعلى، اما الذي يسمى باسم جده الادنى فيلقب بـ «آقا كوجك» أي السيد الصغير، ولا ينحصر هذا التقليد بالذكور بل ينطبق على البنات ايضاً. . .

---

(١) البجنوردي، كاظم، دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١ ص ٣٢١.

التحصيل العلمي

تلقى الشيخ أقا بزرك علومه الاولية في عدد من مدارس طهران وفي المرحلة التالية درس الفقه والاصول والرياضيات والرجال عند اساتذة بارزين مواصلاً خطوات النور ومتمسكاً بالاصرار على بلوغ نهاية الشوط.

وفي عام ١٣١٣ هـ، ١٨٩٥ م قدر له الذهاب الى العراق لزيارة العتبات المقدسة، ودامت سفرته سنة كاملة اطلع خلالها على معالم الحياة العلمية في حواضر سامراء والنجف والكاظمين وكربلاء، فأحسّ بلهفة عارمة تهزّه من الداخل وتدعوه الى اشباع فكره المتوثب الى المزيد من العلم والمعرفة وتأخذ بقياده من حيث يريد الى الاستجابة لنهمة العلم التي استبدت به دون اختها نهمة المال التي عزف عنها وخلّفها وراءه، فما عاد الى طهران في السنة الثانية إلا ليعد العدة للعودة الى العراق واتمام رحلة العلم الطويلة، وفعلاً رجع الى العراق عام ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) واستقر في النجف الاشرف ينهل من العلوم الاسلامية على ايدي كبار العلماء، أمثال، الميرزا حسين النوري، والسيد مرتضى الكشميري والشيخ محمد طه نجف والميرزا حسين الخليلي، والحجة الشيخ كاظم الخراساني، والسيد كاظم اليزدي، وشيخ الشريعة الاصفهاني، وقد واصل الاقامة هناك الى عام ١٣٢٩ هـ ١٩١٢ م وهو العام الذي توفي فيه الشيخ كاظم الخراساني، فانتقل الى سامراء

لحضور درس الشيخ محمد تقي الشيرازي، واستمر هناك الى عام ١٣٣٥ هـ ١٩١٧ م، وكانت الاحداث السياسية قد طغت، وتفاقمت الأمور بسبب الاحتلال البريطاني للعراق وانشغال الأمة بالمقاومة والجهاد، الأمر الذي اضطر معه الشيخ محمد تقي الشيرازي والاستاذ الأخير للشيخ الطهراني الى الانتقال الى كربلاء وقيادة حركة المقاومة الاسلامية من هناك وبذلك انتهت مرحلة التلمذة في رحلة العلم التي حاز فيها الحجة أقا بزرك درجة الاجتهاد لتبدأ مرحلة العطاء والانتاج الفكري التي كشفت عن عبقرية فذة في شخصيته.

مشايخه في الرواية

تحتل السنّة مكانة مهمة في الفكر الاسلامي حيث تعد المصدر الثاني له بعد القرآن الكريم وبسبب مكانتها هذه عمل الطامعون من السياسيين وأصحاب المذاهب الفكرية المنحرفة على دسّ الأحاديث الكاذبة وتحريف الصادقة منها، ثم نسبتها الى النبي ﷺ وذلك للترويج للاغراض والمصالح المذهبية والسياسية الخاصة بهم، من هنا واجه الفكر الاسلامي هذه الظاهرة كمشكلة خطيرة تهدد بالانحراف والضياع وأخذ العلماء المخلصون يواجهونها بخطط وأساليب علمية دقيقة وواسعة، منها انشاء علم خاص باسم (علم الحديث) يعني بدراسة انواع الحديث من حيث احتمالات صدقه وكذبه ومراتب ذلك، كما انشىء علم آخر باسم «علم الرجال» يعني بدراسة رواة الأحاديث من جهة سلوكهم الديني ومدى وثاقتهم، واعتمد اسلوب الاجازة في الحديث، فكل جيل من العلماء لا بد له من أخذ الاجازة في رواية الاحاديث عن الجيل السابق، ولا تؤخذ الرواية إلا من ذوي الاجازات، كل ذلك حفاظاً على السنة من اختلاط الأحاديث المكذوبة بها غير ان الاسلوب الاخير لم يعتمد عليه كثيراً في الفترة المتأخرة نتيجة للابتعاد الشاسع عن عصر النص وظهور الطباعة التي يسرت عملية حفظ المدونات الحديثية من الاندثار وظلت اجازة الفتوى هي المعتمدة في الاوساط العلمية الاسلامية وانحصر نطاق اجازة الحديث في دائرة محدودة من العلماء الذين يريدون

لطريقة السلف البقاء والاستمرار، وفي مقدمتهم الشيخ أقا بزرك الذي عنى عناية خاصة بهذا الجانب فحرص على تحصيل اجازات كثيرة من مختلف علماء المسلمين، منها اجازات المحدث النوري والشيخ محمد طه نجف والسيد مرتضى الكشميري والميرزا علي جهاردهي، والشيخ علي الخاقاني وشيخ الشريعة الاصفهاني والحجة السيد حسن الصدر، كما حصل على اجازات مماثلة من كبار علماء السنة امثال الشيخ محمد علي الأزهري والشيخ عبد الوهاب الشافعي امام المسجد الحرام والشيخ عبد الرحمن عليش من الجامع الازهر وآخرين.

ومن جهته منح أكثر من الفي اجازة لعلماء من الفريقين، ومن علماء الامامية الذين حصلوا على اجازات في رواية الحديث منه السيد حسين البروجردي، والعلامة الطباطبائي والسيد شرف الدين العاملي، والسيد عبد الهادي الشيرازي والشيخ محمد رضا آل ياسين، والشيخ عبد الحسين الاميني والسيد شهاب الدين المرعشي والسيد هبة الدين الشهرستاني[١].

---

(١) الزركلي، خير الدين، الاعلام ج ٥ ص ٥٨٩ وكذلك كتاب «تاريخ حصر الاجتهاد» تحقيق محمد علي الانصاري ص ٥٥ وكتاب «معارف الرجال» ج ٢ ص ١٨٧.

دور العطاء والإبداع

أقام الشيخ أقا بزرك في سامراء بعد وفاة استاذه الشيخ كاظم الخراساني ما يقرب من ربع قرن، ومنذ بدايات هذه الفترة أخذت قريحة العطاء العلمي تتفتح لتنبىء عن كوامن وذخائر هائلة في شخصيته «قدس سره»، فقد بدأ بتأليف كتاب «الذريعة» ومنه تواصل دوره الفكري الخصب حتى نهاية حياته وكانت حصيلة هذا الدور أكثر من خمسين كتاباً ومخطوطاً وبذلك عُدَّ من أكثر علماء الأمامية في القرن الرابع عشر الهجري نشاطاً وعملاً.

وأهم آثاره العلمية ما يلي:

١ ـ الذريعة الى تصانيف الشيعة:

وهو فهرست كبير لما الفه علماء الشيعة طوال أربعة عشر قرناً، وقد ذكر من سمع من الشيخ أقا بزرك ان اجزاء الذريعة بلغت (٤٥) جزءاً[1] إلا

---

(١) حرز الدين، محمد، معارف الرجال ج ٢ ص ١٨٧ ذكر ذلك حفيد المؤلف في هامش الصفحة المذكورة.

ان المطبوع منه فعلاً (٢٦) جزءاً وبلغ الجزء التاسع منه اربع مجلدات وقد شرع بتأليف هذه الموسوعة في أوائل اقامته في سامراء[١] واستمر العمل به أربعة وعشرين عاماً.

ولهذه الموسوعة قصة تذكر، فان المدونات التي وضعها علماء المسلمين من غير الامامية لفهرسة الآثار والمؤلفات الاسلامية كانت تتجاهل مؤلفات علماء الامامية وكأنها عدم من الاعدام، حتى ان الباحث فيها يضمحل عنده الشعور بوجود مذهب أهل البيت وهذه ـ أي التنكر لعلماء أهل البيت ـ سنة يؤسف لها اتبعها علماء المسلمين من المذاهب الاربعة في المجالات الفقهية والرجالية والحديثية والاصولية والفلسفية بينما قام البحث الفكري في المذهب الامامي في المجالات كافة على استعراض آراء علماء المسلمين من أي مذهب كانوا ونتيجة لذلك ادعى جرجي زيدان (ت ١٩١٤) في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية «ان الشيعة طائفة صغيرة لم تترك اثراً يذكر وليس لها وجود في الوقت الحاضر»[٢] وكانت تلك مغالطة فاضحة خرج فيها الكاتب عن الموضوعية وقانون الضمير، الأمر الذي أثار حفيظة علماء الامامية ونبههم الى ضرورة الالتفات الى فهرسة التراث الامامي في مدونات

---

(١) ذكر السيد كاظم البجنوردي في الجزء الاول من دائرة المعارف الاسلامية الكبرى ان الشيخ أقا بزرك انتقل بعد وفاة الشيخ الخراساني الى الكاظمية وهناك بدأ التحقيق والبحث لتأليف موسوعة الذريعة ومنها انتقل الى سامراء بينما يذكر السيد العاملي زميل الشيخ أقا بزرك في الدراسة والشيخ حرز الدين وخير الدين الزركلي ان الشيخ الطهراني انتقل من النجف الى سامراء وهناك بدأ بتأليف الذريعة، انظر أعيان الشيعة المجلد العاشر ص ٤٧ معارف الرجال ج ٢ ص ١٨٧ الاعلام ج ٥ ص ٢٨٩ كما ان نجل الشيخ أقا بزرك ذكر في مقدمة الجزء الاول من طبقات اعلام الشيعة ان فترة اقامة والده في سامراء تبدأ في عام ١٩١١ خلافاً لما يذكره البجنوردي من ان الشيخ الطهراني انتقل في تلك السنة الى الكاظمية وانه توجه الى سامراء بعد فترة من اقامته هناك.

(٢) زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٨٤ دار الهلال.

خاصة به، فتعاهد الشيخ أقا بزرك مع رفيقيه العالمين الكبيرين السيد حسن الصدر والشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء على التصدي لهذه الفكرة الخاطئة التي قد تشيع في أوساط المسلمين.

فتقرر ان يبحث السيد حسن الصدر في الآثار العلمية التي خلفها علماء الامامية والتي كان لها دور بارز في تأسيس ورفد العلوم الاسلامية ووضع نتائج بحثه في كتاب نفيس اسماه «تأسيس الشيعة لعلوم الاسلام» وان يكتب الشيخ كاشف الغطاء نقداً مباشراً لكتاب جرجي زيدان المذكور، اما الحجة آغا بزرك، فقد تعهد بكتابة فهرست يجمع اسماء ومؤلفات علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام مع شرح اولي لكل منها وكان ذلك هو موسوعة «الذريعة»[1] التي قام من اجلها برحلات طويلة الى أكثر المكتبات العامة في العراق وايران وسورية وفلسطين ومصر والحجاز وكثير من المكتبات الخاصة وعكف على دراسة كتبها وحقق في «٦٢» مكتبة[2] وكان عليه في بعض الاحيان ان يفتش في المكتبات ويبحث عن كتبها ومخطوطاتها واحداً بعد الآخر اذا لم يكن للمكتبة فهرس مطبوع، وكان الشيخ يعتز بعمله هذا اكثر من سائر مصنفاته، ويحق له ذلك فقد وصفه الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بانه «أكبر موسوعة في مؤلفات هذه الطائفة والتي جمعت المحاسن والعيون»[3]، بل ان هذه الموسوعة اعطت للمسلمين الحق في الافتخار بنموذج فريد من التصنيف الموسوعي امام الغربيين والمتغربين الذين اعتبروا ذلك خصيصة من خصائص الفكر الغربي الحديث وقد بدأ الشيخ أقا بزرك بطبع موسوعته هذه في النجف الاشرف سنة ١٣٥٥ هـ «١٩٣٦ م» لدى عودته من سامراء فطبع منها ثلاثة اجزاء تحت اشرافه، وكانت عملية الطبع والنشر تواجه عراقيل من قبل

---

(١) محمد علي، عبد الرحيم، شيخ الباحثين ص ٢٩ ـ ٣٠.
(٢) البجنوردي، كاظم، دائرة المعارف الاسلامية الكبرى، ج ١ ص ٣٢١.
(٣) الطهراني، أقا بزرك، طبقات اعيان الشيعة ج ١ من مقدمة الشيخ كاشف الغطاء.

السلطات العراقية، ففي بدء الأمر أسس مطبعة باسم مطبعة السعادة ليتولى طباعة «الذريعة» فيها إلا أنه واجه تخرصات الحكومة العراقية ومعارضتها له، فاضطر لبيع المطبعة وايكال «الذريعة» الى مطبعة الغرى، فحوّلت الحكومة العراقية معارضتها الى النشر الأمر الذي اضطر معه الشيخ الى نقل طباعة بقية الاجزاء الى طهران ويذكر السيد احمد الحسيني ان طبع الكتاب لم يمنع المصنف الطهراني من الاستمرار في البحث والتنقيب وزيارة المكتبات للاطلاع على ما يستجد من المطبوعات والمخطوطات فنجده كثيراً ما يذكر كتاباً يجب ان يذكر في حروف سابقة مع عبارة «فاتنا ذكره في محله» كما انه ادرج كثيراً من مستدركاته في حرف الراء بعنوان رسالة وبعضها في حرف الكاف بعنوان كتاب والبقية الباقية في مستدركاته مما لم يدرج في اجزاء الذريعة ظلت اوراقاً متناثرة قام السيد احمد الحسيني بطباعتها بعنوان الجزء السادس والعشرين من الذريعة(١).

٢ ــ طبقات اعلام الشيعة:

الباحث في التاريخ المعاصر لحركة الفكر الامامي يجد امامه ظاهرة بارزة هي ظاهرة التصنيف الواسع في مجال التراجم والسير لعلماء مدرسة أهل البيت، فالسيد الأمين العاملي يصنف اعيان الشيعة في نيف وخمسين جزءاً، والسيد حسن الصدر يكتب تكملة أمل الآمل، ووفيات الاعلام من الشيعة الكرام الذي لم ينشر منه سوى جزء صغير يتعلق بالقرون الثلاثة الاولى من تاريخ الاسلام والشيخ محمد حرز الدين يكتب «معارف الرجال» ثم يأتي الحفيد ويضيف إلى ما صنفه الجد ويضع اضافاته في الهامش.

---

(١) الطهراني، أقا بزرك، الذريعة، ج ٢٦ ص ٥ من مقدمة السيد احمد الحسيني.

والشيخ عباس القمي يضع كتابه (الكنى والالقاب) والشيخ محمد الرازي يضع كتاباً مماثلاً باسم «آثار الحجة» ويصنف محمد علي المدرسي كتابه «ريحانة الأدب» في هذا المجال ايضاً، ويضيف ملا علي واعظ التبريزي مؤلفاً جديداً بعنوان «علماء معاصرين» اما السيد محمد مهدي الاصفهاني فقد وضع كتاباً في تراجم علماء الشيعة «احسن الوديعة» كما ظهرت عدة كتب درس فيها مؤلفوها حياة جملة من مؤلفي الشيعة وفلاسفتهم، وصنف الشيخ هادي الاميني معجماً عن رجال الفكر والأدب في النجف الاشرف، وصنف الشيخ باقر آل محبوبة مؤلفاً من ثلاثة اجزاء عن الاسر العلمية في النجف الاشرف، سماه بـ «ماضي النجف وحاضرها».

وان دلّ هذا الرقم الكبير من التصنيف الرجالي الحديث على شيء فانما يدل على شعور كبير بالحيف تملّك المتأخرين من علماء الأمامية من عدم التفاتهم الى هذه الوظيفة الحيوية فيما مضى من الزمان وعدم التفات الاوساط الاسلامية الاخرى اليهم، وانطلاقة قوية للحضور الفعال على الساحة الفكرية الاسلامية ومما لا شك فيه ان هذه الجهود قد اتت اكلها وظهرت ثمراتها.

فلولا تلك المصنفات التي بينت عمق وسعة التراث الفكري لعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام ما كان بالامكان ايجاد تعريف كاف بهذه المدرسة امام مدرسة المذاهب الاخرى التي درجت على ان ترى نفسها الممثل الوحيد للتراث الاسلامي.

وتأتي الموسوعة الثانية للشيخ أقا بزرك المسماة بـ «طبقات اعلام الشيعة» في مقدمة المصنفات الرجالية الحديثة التي لعبت هذا الدور الحساس، وقد كلف المؤلف جهوداً كبيرة وشاقة جداً بذلها على مدى عقود من الزمان باحثاً في طيات الكتب والمخطوطات في المكتبة العامة والخاصة عن الارقام والتحقيقات التاريخية التي يحتاجها، وقد نص على ذلك في

مقدمة الجزء الاول من موسوعته هذه، كتب يقول «وقد تقحمت من أجل هذا الكتاب انواع الاهوال وتجشمت مشقة الاسفار مفتشاً في دور الكتب وخزائنها مستخرجاً للتراجم من مظانها البعيدة، يعرف ذلك المتخصصون بهذا الفن»[1].

وتقع هذه الموسوعة في احد عشر جزءاً، وذُكر انه في الاصل يقع في «٣٠ ـ ٣٢» جزءاً[2].

٣ ـ مصنفي المقال في مصنفي علم الرجال:

وهو فهرست آخر يتضمن تراجم (٥٠٠) من رجال الشيعة الذين الفوا في «علم الرجال».

٤ ـ توضيح الرشاد في تاريخ حصر الاجتهاد:

رسالة صغيرة تبحث عن تاريخ حصر الاجتهاد بالمذاهب الاربعة وأسباب ذلك، وقد كتبها المؤلف إجابة لطلب احد علماء السنة في الموصل.

٥ ـ تفنيد قول العوام بقدم الكلام:

كتاب يبحث في النزاع المشهور الذي دار في العصر العباسي بين

---

(١) الطهراني، أقا بزرك، طبقات اعلام الشيعة ج ١ من كلمة المؤلف.
(٢) الحكيمي، محمد رضا، شيخ اقا بزرك تهراني، ص ٢٥ بالفارسية.

المعتزلة والاشاعرة حول قدم القرآن وحدوثه، وقد كتبه اجابة لطلب من العالم الموصلي السابق.

٦ ـ النقد اللطيف في نفي التحريف:

كتاب دافع فيه المؤلف عن التهمة القائلة بان استاذه المحدث النوري يؤمن بتحريف القرآن الكريم.

واضافة الى هذه المؤلفات ترك الحجة أقا بزرك في مكتبته (٢٠٠) كتاب خطي يضمنها تقريرات اساتذته في الفقه والاصول.

نشاطه السياسي

ان المهام العلمية الكبيرة التي نهض بها الشيخ أقا بزرك الطهراني، لم تترك له مجالاً للقيام بنشاطات اجتماعية او سياسية واسعة، ذلك ان العلوم الاسلامية قد تشعبت وتوسعت وتعمقت بحيث غدت تتطلب من العالم الديني سنوات طويلة لدراستها واستيعابها، واذا ما اراد الانتاج الفكري في مجالاتها فسيجد ان الوظيفة تتطلب منه الانحصار بالبحث والتأليف، ولو على حساب النشاطات الاجتماعية والمشاغل السياسية الأمر الذي لا بد من معالجته بتنظيم الدراسة على أساس مراحل اكثر دقة في التحديد وإيجاد نظام التخصص.

والذي ينظر في حياة الشيخ أقا بزرك العلمية، يستبد به الاستغراب من كثرة الآثار العلمية التي خلّفها والتي يتطلب كل واحد منها سنوات وعقود عديدة، ومع ذلك لم ينقطع الشيخ الطهراني عن السياسة، بل واصلها بما كان يتبقى لديه من المجال، فقد شارك في نشاطات ثورة العشرين التي قادها استاذه الأخير الشيخ محمد تقي الشيرازي، وأحساساً منه بالمواجهة المحتدمة بين الاسلام والتغريب آنذاك، ترجم كتاب «المدينة والاسلام» لفريد وجدي الى اللغة الفارسية كما دعا الى فتح المدارس الجديدة، وكان يعمل على توجيه المعارضين لها[١].

---

(١) الطهراني، أقا بزرك «طبقات اعلام الشيعة» ج ١ من مقدمة الاستاذ علي تقي =

مزاياه ومكانته العلمية

لقد شيدت الانجازات العلمية الكبيرة للشيخ الحجة الطهراني مكانة مرموقة في الاوساط الفكرية والعلمية في العالم الاسلامي، فقد وصفه رفيقه الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء بانه «من الشجرات الطيبة التي لا تزال تؤتي ثمارها النافعة «وازهارها اليانعة وغذاءها الشهي وسقاءها الهني»[١].

واعتبره خير الدين الزركلي انه «شيخ محدثي الشيعة على الاطلاق»[٢]. وذكر الدكتور احمد شلبي انه في اثناء تحضيره للدكتوراه قام بالاتصال الشخصي بعدد من كبار العلماء منهم الشيخ أقا بزرك وأفاد من مقابلته افادة كبيرة في مسألة تاريخ الشهادات الدراسية[٣]. ويُنقل عن الشيخ محمد علي اليعقوبي انه عندما كان في بيروت في عام ١٩٥٥ دخل عليه ذات يوم شخص غريب وسأله عن نفسه، فعرَّف اليعقوبي نفسه للسائل فقال السائل: «الحمدلله

= المنزوي.

(١) الطهراني، أقا بزرك، طبقات اعلام الشيعة ج ١ من مقدمة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء.

(٢) الزركلي، خير الدين، الاعلام ج ٥ ص ٢٨٩.

(٣) شلبي، احمد، كيف تكتب بحثاً او رسالة ص ٦٧.

اذ كنت ارغب رغبة ملحة في رؤياك... وقد تحقق لي ذلك» وأخذ يسأله عن الشيخ أقا بزرك هل انه حي ام ميت، فأجابه بانه على قيد الحياة ثم سأله عن إمكانية اللقاء به فأجابه ثم سأله: وهل من الممكن ان يزار هذا الرجل العظيم، فأجابه كيف لا يمكن ان يزار وقد فتح باب بيته للرائح والغادي من طلاب العلم وهو يخرج الى الصلاة ثلاث مرات يومياً، وكان هذا الرجل هو الدكتور يوسف اسعد داغر يتصور ان الدخول على الشيخ يتطلب اذناً خاصاً، وان هناك مؤسسة وحجّاباً(١).

اما الشيخ عبد الحسين الاميني، فقد اهتم بالنظر الى السيرة الاخلاقية والروحية للشيخ الطهراني فوصفه بانه «بقية السلف الصالح»(٢).

اما مزاياه فيحدثنا عنها نجله الاستاذ علي تقي المنزوي في مقدمة الجزء الأول من طبقات اعلام الشيعة، حيث يذكر ان والده كان يأمره في سنة ١٩٣٨ ان يقرأ الصحف كل ليلة في المكتبة العامة، وان يستخرج له الاخبار الهامة ويثبتها في دفتر ليقرأها كل يوم ويذكر ايضاً، ان لوالده مراسلات مع العديد من الأدباء العرب والرسائل كانت ترد عليه من مختلف الجهات في ايران والهند وباكستان، ويدلك على قوة الارادة التي كان يملكها والده بانه رأى والده ترك وجبة العشاء من سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٥٥، وانه كان يكثر من التدخين بحيث يدخن في اليوم الواحد مائة سيجارة لكنه لما نصحه الاطباء بترك التدخين تركه مرة واحدة، وفي مجال التصنيف والتأليف يذكر اسماء أربعة كتب في المنطق والفلسفة خطها بيده اهتماماً منه بالتحصيل العلمي.

---

(١) محمد علي، عبد الرحيم، شيخ الباحثين. ص ٣٠ ـ ٣١.
(٢) الاميني، عبد الحسين، الغدير، ج ١٠ من تقاريض الكتاب.

كما خط كتباً اخرى بيده لغرض التحقيق مثل رجال النجاشي والفهرست للشيخ الطوسي كما توجد في بيته بعض الخرائط الجغرافية بخط يده، وانه كان يدخل المكتبة فيبقى فيها اسبوعاً بلياليه ويدخل معه الطعام والشراب، ويغلق صاحب المكتبة الباب عليه ولا يأتيه إلا في صباح اليوم التالي.

ويذكر المنزوي ايضاً في مقدمة الجزء الأول من الذريعة ان مخطوطات العراق وايران لم تكن مفهرسة، ولأجل القيام بمهمته قام بفحص المكتبات واحدة واحدة وفتش في مخطوطاتها واحداً بعد الآخر.

وفاته «قدس سره»

في عام ١٣٣٥ هـ (١٩١٧) انتقل الشيخ الطهراني من سامراء الى الكاظمية وبقي فيها سنتين ثم عاد الى سامراء واقام فيها مجدداً حتى عام ١٣٥٤ هـ «١٩٣٥ م» حيث عاد الى النجف ليقضي هناك بقية عمره بالبحث والتصنيف.

وقد استمرت اقامته فيها الى حين وفاته في الثالث عشر من ذي الحجة عام ١٣٨٩ هـ (٢٠ شباط ١٩٦٩) أثر مرض عضال وقد صلى المرجع الديني السيد ابو القاسم الخوئي على جنازته ودفن في مقبرته التي بناها تحت مكتبته الخاصة وذلك حسب وصيته فعاش بين الكتب، ودفن بينها ايضاً ـ وقد اذاعت بعض الاذاعات الاجنبية نبأ وفاته.

مفسر القرآن بالقرآن

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي



العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

يحمل القرآن الكريم نوعين من الاعجاز اعجاز ظاهر واعجاز باطن الاعجاز الظاهر هو ما يشير إليه المفسرون والمختصون في علوم القرآن من الاعجاز البلاغي والعلمي والغيبي والتشريعي والاعجاز الباطن هو قابلية القرآن الكريم على مواكبة واستيعاب المتغيرات مهما امتدت في آفاق الزمان والمكان، والى هذا الجانب اشار الامام الصادق عليه السلام بقوله: «ان الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض الى يوم القيامة»[1]، وبهذا صار القرآن الكريم ذخيرة الهداية الابدية.

ومن هنا نجد ان عظمة القرآن الكريم تتجلى في هذا النوع من الاعجاز أكثر من تجليها في الاعجاز العلمي والغيبي والبلاغي والتشريعي، كما تتضح أهمية علم التفسير، فانه العلم المتكفل باعطاء كل زمان حقه من الهداية القرآنية او بتعبير آخر ابداء هذه الهداية واجلاءها لأهل هذا الزمان او ذاك فهو حلقة الوصل بين ثوابت القرآن ومتغيرات الزمان.

وفي ضوء هذه الرؤية يمكننا ان ندرك ابعاد شخصية كبيرة كالعلامة محمد حسين الطباطبائي الذي قدم لعصره التفسير الشهير «الميزان في تفسير القرآن».

---

(١) الحكيمي، محمد رضا، علي محمد، الحياة ج ٢ ص ١٤٩.

نشأته ودراسته

ولد السيد محمد حسين بن السيد محمد الطباطبائي في ٢٩ ذي الحجة ١٣٢١ هـ «١٩٠٣» في مدينة تبريز الشهيرة بكثرة العلماء الافذاذ المنتسبين إليها، وقد اشتهرت اسرته منذ القدم بالفضل والعلم والرئاسة، وكانت سلسلة اجداده الأربعة عشر الماضين من العلماء المعروفين فيها[1]، توفيت والدته وعمره خمس سنوات وعندما بلغ التاسعة من عمره توفي والده.

بدأ رحلة العلم الطويلة في مسقط رأسه تبريز، وذلك على أيدي الأفاضل من أسرته، وقد باشر التحصيل باشراف معلم خاص درّسه اللغة الفارسية ثم درس العلوم العربية والاسلامية حتى أتم مرحلة المقدمات، ومن ذكريات العلامة في هذه الفترة ما تحدث عنه قائلاً: «عندما كنت طفلاً لم اجد رغبة في التحصيل، ومضت أربع سنوات لم أفهم ماذا أقرأ ولكني فجأة وجدت نفسي مطمئناً وكأني أصبحت على غير ما كنت عليه امس، ومنذ ذلك اليوم والحمدلله الى آخريات أيام دراستي زهاء سبع عشرة سنة، ما كسلت وما توانيت في طلب العلم، فقد نسيت حوادث الدهر وملذات الحياة وتعاستها، وانقطعت عن كل احد، وكل شيء غير اهل العلم وأصحاب

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة في الاسلام من مقدمة المترجم ص ٨.

الفضيلة، مقتصراً على الحاجيات الاولى في الليل والنهار، ووقفت نفسي للدرس والتعليم، وطالما قضيت الليل في القراءة خاصة في فصلي الربيع والصيف حتى تطلع الشمس وانا مشغول بالمطالعة(١).

وفي عام ١٣٤٣ هـ «١٩٢٤ م» هاجر الى النجف الأشرف، وكان عمره آنذاك ثلاث وعشرين سنة واقام فيها مدة عشر سنوات انكب اثناءها على تحصيل مختلف العلوم الاسلامية، عازفاً عن كل اهتمام آخر، حتى حاز بهذه الفترة الوجيزة درجة الاجتهاد وكان اساتذته في المراحل العليا من الدراسة ثلة من افذاذ العلماء واقطاب الفضيلة، امثال الشيخ محمد حسين النائيني حيث درس عنده ثمان سنوات، والشيخ محمد حسن الكمباني في الفقه والاصول، وكان السيد الطباطبائي يكن له احتراماً خاصاً كلما ذكره، والسيد حسين البادكوبي في الفلسفة درس عنده ست سنوات، وكان له أثر كبير على شخصيته العلمية، وهو الذي وجهه الى دراسة الفلسفة والرياضيات العالية والعلوم الهندسية بكلا قسميها المسطحة والفضائية والجبر الاستدلالي عند الفلكي والرياضي الكبير السيد أبو القاسم الخونساري، ومن اساتذته ايضاً السيد ابو الحسن الاصفهاني في الفقه حيث درس عنده عدة سنوات، والميرزا علي القاضي في الاخلاق وقد سمحت له ذهنيته الوقادة وهمته العالية بتجاوز الاطر التقليدية في الدراسة الى مجال ارحب وأعمق فانهى دورة كاملة في الرياضيات القديمة كمبادىء الهندسة لاقليدس والمجسطي لبطليموس(٢) وقد حصل على اجازة في الاجتهاد من الميرزا النائيني واجازات في الرواية من الشيخ عباس القمي وآية الله حسين البروجردي.

يحدثنا العلامة الطباطبائي عن ذكرياته في هذه الفترة انه عندما وصل الى النجف كان متحيراً في أمر الدراسة، في اختياره لنوعية الدروس

(١) العاملي، محسن الامين، أعيان الشيعة مجلد ٩ ص ٢٥٤.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة في الاسلام من مقدمة المترجم ص ٩.

والاساتذة الذين يحضر عندهم، وذات يوم كان جالساً في البيت يفكر في هذه المسألة ملياً واذا بالباب تطرق فخرج العلامة لفتح الباب فوجد عالماً ذا هيبة ووقار فرحب به وادخله البيت ثم تحدث ذلك العالم إليه قائلاً: ان الطالب الذي يهاجر الى النجف لا بد له من التفكير اولاً بأمر التزكية والتهذيب ومراقبة النفس فضلاً عن الدراسة والعلم وبعد اتمام الحديث خرج من البيت ولكن حديثه ظل نافذاً في قلب الطالب التبريزي الجديد محمد حسين الطباطبائي، الأمر الذي دفعه الى ملازمة درس ذلك العالم الكبير الذي تعرف عليه وكان هو الميرزا علي القاضي احد ابناء عمومته ونتيجة لهذه الملازمة تأثر تأثراً عميقاً بفكر وشخصية القاضي وكان يقول «كل ما عندنا من المرحوم القاضي»، بل وان مسلك تفسير القرآن بالقرآن كان العلامة الطباطبائي الذي اشتهر به قد تعلمه من درس المرحوم القاضي وجاراه فيه[١].

وفي عام ١٣٥٣ هـ «١٩٣٤ م» عاد السيد الطباطبائي برفقة أخيه السيد محمد حسن الى تبريز نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة التي طرأت على حياته واقتطعت من آماله العلمية عشر سنوات سيقضيها في تبريز ممتهناً الزراعة تاركاً الدراسة والتدريس.

وبعد هذه الفترة وانتهاء الحرب العالمية الثانية وما نجم عنها من استقرار القوات الروسية في مقاطعة آذربيجان، وأثر تحسن الوضع الاقتصادي الخاص به، وجد السيد الطباطبائي في هذه الظروف عوامل مشجعة لاستئناف الحياة العلمية من جديد.

---

(١) الطهراني، محمد حسين، مهرتابان ص ٧.

دور الإنجازات الكبرى

عندما أراد الهجرة من تبريز الى مدينة قم المقدسة تفأل العلامة الطباطبائي بالقرآن الكريم فخرج قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾[1].

الأمر الذي أكد له فكرة الهجرة الى قم، وفعلاً ارتحل اليها في عام ١٣٦٤ هـ «١٩٤٥ م» وكانت الحوزة العلمية هناك تعيش عهداً تجديدياً برعاية آية الله العظمى السيد حسين البروجردي، فكان لحضور العلامة الطباطبائي فيها اثناء تلك الفترة أهمية خاصة حيث سيساعد على ظهور النهضة الفكرية القوية التي شهدتها في النصف الثاني من القرن العشرين، ولنستمع الى سماحته يحدثنا عن جانب من الدور الذي لعبه، كتب يقول: «عندما قدمت الى قم، امعنت النظر وتفحصت الواقع بحثاً عما تحتاجه الحوزة في ذلك الوقت فوجدت انه اهم ما ينقص الحوزة وبرامجها الدراسية تفسير القرآن والبحوث العقلية، ولهذا باشرت بتدريس التفسير والفلسفة مع ان تفسير القرآن لم يكن بنظر البعض علماً يحتاج الى تحقيق وتأمل بل وغير لائق بمن له امكانية التحقيق في مجال الفقه والاصول حتى ان البعض كان يعتبر

(١) سورة الكهف الآية ٤٤.

تدريس التفسير والانشغال به دليلاً وعلامة على قلة المعلومات على أي حال لم أتخذ ذلك ذريعة أو مبرراً مقبولاً امام الله تعالى لأن اتنازل عن مشاريعي بل على العكس واصلت الطريق حتى تمخض عنه تفسير الميزان»[1] ولم تكن الفلسفة احسن حالاً من التفسير ولئن كان التفسير درساً قليل المنزلة في عُرف البعض فان الفلسفة كانت تواجه العقبات، وما ان باشر السيد الطباطبائي بتدريس الفلسفة وجعل مادة درسه كتاب الاسفار انطلاقاً من تشخيصه لمسؤولياته والدور الذي ينبغي القيام به في مواجهة النزعات المادية التي غدت تغزو المسلمين والفلسفات الغربية التي انبهر بها ابناؤهم، حتى برزت جهود تحاول ايقافه حيث أوغر البعض صدر آية الله البروجردي وأخذوا يقربون إليه فكرة تعطيل هذا الدرس المهم الذي كان يحضره مئة طالب، وفجأة أُبلغ السيد الطباطبائي بخبر قرار قطع رواتب الطلبة الذين يحضرون عنده، وذلك من قبل السيد البروجردي، وهنا أخذت الحيرة مأخذاً كبيراً منه، بين الاستمرار في الدرس وما يترتب على ذلك من سلبيات كبيرة، وبين تعطيله الذي يعني تعطيل الوظيفة الاسلامية، وفي هذه الاثناء ارسل آية الله البروجردي موفداً عنه الى السيد الطباطبائي مع رسالة تحريرية يذكر فيه ان سماحته ـ أي السيد البروجردي ـ كان يدرس الاسفار في اصفهان مع زملاء خفية وان طرح مثل هذا الدرس بشكل علني أمر لا مصلحة فيه، وبعد قراءته للرسالة، اجاب السيد الطباطبائي عليها شفهياً للموفد، بانه ليس عاجزاً عن تدريس الفقه والاصول وانه جاء من تبريز الى قم لتصحيح ما تسرب الى اذهان الطلبة ولمواجهة الماديين وغيرهم وان عصرنا الحاضر يختلف عن العصر الذي كانت تدرس فيه الاسفار بشكل خفي، اذ لم تكن آنذاك فلسفات مضادة توجب اقحام الحوزة في العلوم العقلية، وشفع هذه الاجابة برسالة تحريرية الى آية الله البروجردي قال فيها: «ان مواصلتي لهذا

---

(١) مصباح، محمد تقي، يادنامه مفسر كبير ص ١٤١.

الدرس نابعة من تشخيصي لمسؤولية شرعية لسد نقص ضروري المسه داخل المجتمع الاسلامي ولكنني في الوقت نفسه ونظراً الى انني لا أجيز لنفسي مخالفة توصياتكم باعتباركم زعيم الحوزة وقائد المجتمع الشيعي، فإنني الزمت نفسي بالطاعة لما تصدرونه من حكم حتى لو أدى ذلك الى تعطيل الدرس وانني ساعتمد حكمكم مبرراً لي امام الله تعالى للتخلي عن هذه الوظيفة التي شخصتها، اما اذا كان رأيكم غير هذا فانني سأواصل الدرس»[(١)].

وأثر هذه الرسالة المفعمة بالاخلاق الرفيعة وروح المسؤولية استجاب آية الله البروجردي لرغبته واجازه بالاستمرار في درسه، واذا ما أردنا دراسة هذه الرسالة بشكل معمق فسنجد انها تمثل خلاصة الابعاد الرسالية والاخلاقية في شخصية العلامة الطباطبائي وتعكس توجهاته المستقبلية، فهو يشعر بمسؤوليته آزاء المخاطر والمنزلقات التي يعاني منها المجتمع، ويقوم بعملية تشخيص الداء والدواء ويثبت قدرته على اعطاء تشخيص دقيق وصحيح، ويؤدي دوره الرسالي في هذا المجال، لكنه في الوقت نفسه لا يستبد برؤيته للواقع ولا يجمد على هذه الرؤية عندما يطلب منه زعيم الحوزة امراً مخالفاً لها. ومن هذه الرسالة ايضاً تتجلى ابعاد المشروع الفكري الكبير الذي كان يريد انجازه، فقد ندب نفسه لمكافحة المادية ألمستشريه في المجتمع الاسلامي وإعادة الفلسفة الاسلامية الى الواجهة من جديد، اضافة الى مهام فكرية حيوية أخرى ويشتمل المشروع الفكري للعلامة الطباطبائي على جوانب متعددة هي:

١ ـ الاهتمام بالقرآن الكريم وطرح تفسير جديد له يحرص على الاصالة ويتسم بالعصرية والعمق والاستيعاب في آن واحد وبشكل يناسب

---

(١) مصباح، محمد تقي، يادنامه مفسر كبير، علامة طباطبائي ص ١٤٢.

مكانه القرآن الكريم كمصدر وحيد وخالد لهداية الانسان في الفكر والسلوك، وهذا ما انجزه العلامة الطباطبائي من خلال تفسير «الميزان» الشهير، الذي اعتبره الشهيد آية الله مرتضى المطهري بانه افضل تفسير كتبه المسلمون منذ صدر الاسلام وحتى الآن، وان كثيراً من ابحاثه تعد الهامات غيبية وان المشاكل التي لم أجد مفتاح حلها في الميزان قليلة جداً»[1].

٢ ـ صقل وتجذير الفلسفة الاسلامية وتمكنيها من الوقوف على قدميها اما تحديات الفكر الغربي وذلك من خلال التأكيد على درس الفلسفة في الحوزة وتربية عدد من العلماء المتطلعين فيها، وتأليفه ما يزيد على العشرة كتب في الفلسفة والعقيدة يأتي في مقدمتها كتابه «اصول الفلسفة» الذي وضعه في خمسة اجزاء طبعت مع تعليقات قيمة لتلميذه البارز الشهير آية الله مرتضى المطهري.

٣ ـ التأليف حيث قدّم العلامة الطباطبائي للمكتبة الاسلامية «٣٥» رسالة وكتاباً ودورة ذات اجزاء عديدة، كتفسير الميزان ذي العشرين جزءاً وذلك في عدة مجالات من المعرفة الاسلامية، كالتفسير والفلسفة، والعقائد والتاريخ والحديث والفقه والاصول وعلوم القرآن والعرفان والثقافة الاسلامية العامة اضافة الى الرياضيات.

٤ ـ إيصال الفكر الاسلامي الاصيل الى اوروبا كما في المحادثات التي اجراها سماحته مع المستشرق الفرنسي هنري كوربان والتي بدأت سنة ١٣٧٨ هـ «١٩٥٨ م» وتواصلت أكثر من عشرين عاماً، وكانت اللقاءات تجري في طهران وكان سماحته يسافر إليها من قم في الشهر مرتين وبفضلها اقترب كوربان من المذهب الامامي ودوّن المحاورات ونشرها في بلاده كما

---

(١) مصباح، محمد تقي، يادنامه علامة طباطبائي ص ٢٠٠ مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي.

نشر افكار التشيّع، حيث أصبح يعتقد ان المذهب الامامي هو المذهب الحي الوحيد في العالم لأنه المذهب الذي يعتقد باستمرار العلاقة مع السماء عبر الامام المهدي عليه السلام خلافاً لبقية الاديان والمذاهب التي انهت هذه العلاقة بوفاة نبيها او امامها، بل ان هنري كوربان صار يقرأ الصحيفة السجادية ويبكي، وقد سأله العلامة الطباطبائي يوماً، اننا في الاسلام نعتقد باسماء حسنى نخاطب بها الله سبحانه وتعالى ونناجيه في كل حاجة من خلال الاسم الذي يناسبها، فماذا يفعل المحتاج منكم؟ فأجاب كوربان: انا اناجي بقراءة الصحيفة المهدوية[1] وقد طبعت هذه المحاورات في مجلدين وترجما الى الانكليزية والفرنسية والعربية.

٥ ـ تخريج جيل من العلماء والاساتذة والمفكرين والكتاب الذين لعبوا ادواراً فكرية وسياسية رفيعة جداً، أمثال آية الله الشيخ المنتظري وآية الله الشهيد المطهري وآية الله البهشتي، والامام موسى الصدر وآية الله ناصر مكارم الشيرازي والشيخ الشهيد محمد مفتح وآية الله السيد عبد الكريم الاردبيلي والشيخ محمد تقي مصباح وآية الله جوادي الآملي وآية الله حسن زاده آملي وآخرون.

---

(١) طهراني، محمد حسين، مهرتابان ص ٤٦ ـ ٤٩.

الطباطبائي وعصره

لقد كان للمؤثرات الزمنية دورها في تحديد اتجاه التحرك العلمي للسيد الطباطبائي فلم ينزو عن عصره بل انطلق مرة نحو الاعماق الاسلامية يستنجد بالاصالة في استيعاب حقائق العصر والتعاطي معها على قاعدة رصينة وانطلق مرة ثانية نحو الاعالي مستنداً الى تلك القاعدة ليحل اشكالات العصر ويبين سقطاته وهفواته أو يؤكد ايجابياته وحسناته.

وعلى هذا كان كتابه «أصول الفلسفة» معالجة لظاهرة معاصرة طرأت على المجتمع الاسلامي وهو الانجراف وراء تيار الفلسفة الغربية، وكتابه «المرأة في الاسلام» كشف عن استمرار الظلم الاوروبي القديم للمرأة وتواصله من خلال الظلم الحديث لها وكيف ان موقف الحضارات القديمة والجديدة من المرأة يقع بين الافراط والتفريط.

اما «نظرية السياسة والحكم في الاسلام» فأنه على صغره يوضح مدى تعاطي العلامة للطباطبائي مع عصره، اذ عالج «قدس سره» فيه مسألة الحكم معالجة اصيلة مقارناً بين الاسلام والنظم الوضعية مشيراً الى ايجابيات الاسلام في الحكم والسياسة ومساوىء الانظمة الوضعية المتمثلة بالديمقراطية والديكتاتورية اللتين يعتبرهما وجهين لعملة واحدة «فلا تزال الديكتاتورية هو الطابع العام للحكومات الديمقراطية بانتزاعها الديكتاتورية

من القاعدة الفردية واعطائها الى القاعدة الجماعية»[1] مشيراً من خلال ذلك الى الظاهرة الاستعمارية البشعة التي ولدت في احشاء الديمقراطية الغربية والتي تشكف عن ديكتاتورية دفينة في تلافيف الفكرة الديمقراطية نفسها مستنتجاً من ذلك «ان الذين يدافعون عن الديمقراطية الغربية ويتحاملون على الاسلام لا يريدون من الحرية التي ينعتون على الاسلام انه يفقدها، الا هذا اللون من الابتذال والخلاعة الذي يشيع في الاجواء الغربية بصورة واسعة»[2].

وتجلت العصرية ـ بمفهومها الاسلامي الذي يعني استيعاب ايجابيات العصر دون التأثر بسلبياته ـ في تفسير الميزان بشكل كبير فكانت ظاهرة بارزة فيه.

وعلى سبيل الاشارة لا الحصر، نجد العلامة الطباطبائي يتحدث في الجزء الثاني عن الاسباب الكامنة وراء اتساع الحركة الشيوعية التي كانت تشكل ظاهرة مريرة بالنسبة للمجتمع الاسلامي بصورة خاصة والإنسان بصورة عامة[3] كما يتحدث في الجزء نفسه عن خصائص المجتمع الاسلامي[4].

وفي الجزء الرابع يتحدث العلامة عن قدرة الاسلام على اسعاد المجتمع الانساني، وخصائص الحاكم في الاسلام، وعن ان حدود الدولة الاسلامية عقائدية لا جغرافية، ثم يفند شبهة انتشار الاسلام بالسيف وينوه بمثالب المدينة الغربية وجرائمها بحق البشرية[5] ويشير في الجزء نفسه ضمن ابحاث اخرى الى ان الديمقراطية هي السبب في ظهور الشيوعية ويحدد

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، نظرية السياسة والحكم في الاسلام ص ٣١ ـ ٣٢.
(٢) الطباطبائي، محمد حسين، نظرية السياسة والحكم في الاسلام ص ٣١ ـ ٣٢.
(٣) تفسير الميزان ج ٢ ص ٤٥٧.
(٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٠ و١٥٧ و١٣٧.
(٥) تفسير الميزان ج ٤ ص ١٢٧ و١٧٦.

الفرق بين الاسلام والديمقراطية في الحكم[1] اضافة الى ابحاث حول المجتمع الاسلامي وخصائصه[2] ومعنى الحرية في الاسلام كما شرح نظرية الادوار البشرية التي رفض فيها السيد الطباطبائي ان يكون آدم ممثلاً لكل البشرية والصحيح عنده ان هناك ادواراً بشرية مرت على الارض وان ادم عليه السلام ممثل لآخر دورة بشرية فيها، وذلك استناداً الى رواية عن الامام الصادق عليه السلام يقول فيها «لقد خلق الله الف الف ادم وانتم في آخر اولئك الادميين»[3] وفي الجزء السادس طرح بحث الرق والاستعباد وموقف الاسلام منه مع الاشارة الدائمة الى مظاهر الرق والاستعباد في الحضارة المعاصرة ضمن التوجه الثابت لدى السيد «رحمه الله» في نقد الحضارة الغربية[4]، وفي الجزء الخامس عشر تحدث العلامة عن الاستبداد وفساد الديكتاتورية في الحكم[5]، والى جنب ذلك حفل الميزان بنظريات وابحاث علمية حديثة كلما تطرق الحديث الى قضية من قضايا التاريخ، او الخلق والتكوين، كما في الابحاث المتعلقة بقصة نوح عليه السلام والطوفان وما اذا كان عاماً ام محدوداً في بقعة معينة من الارض، الامر الذي يدل على سعة المام المفسر بعلوم عصره وثقافة زمانه وهكذا استطاع العلامة الطباطبائي ان يدعم المفهوم الصحيح للعصرية فهي لا تعني عنده الأخذ بمعطيات العصر والالتحام معه، بل تعني الاطلاع على تلك المعطيات واستيعابها واعتماد الاصالة مقياساً لتحديد الحسن فيها من القبيح.

ان الاصالة عند علماء المسلمين ليست شعاراً تستحثه حالة عابرة، او

---

(١) تفسير الميزان ج ٤ ص ١١٧ و١٣١.
(٢) تفسير الميزان ج ٤ ص ١٠٠ و١٢٥.
(٣) تفسير الميزان ج ٤ ص ١٢٣.
(٤) تفسير الميزان ج ٥ ص ٣٥٧، ٣٧٧.
(٥) تفسير الميزان ج ١٥ ص ١٧١.

مطالب طارئة بل هو نهج عميق عمق الصلة مع القرآن، ولئن حسب بعضهم ان الاصالة تعني الجذب الفكري والانطوائية والانفصال عن الحاضر فان هذه المعاني لا تلاءم الاصالة ضرورة، بل تلاءم اولئك الذين تقصر قواهم عن استيعاب مظاهر التناقض الكاذب بين الماضي والحاضر وهي لا تدل الا على جهل وقصور فيهم، او خداع في فكر التبعية المطلقة للحاضر.

لقد استطاعت الاصالة الاسلامية ان توجد علماء ومفكرين يسخرون من دعاوى التضاد بين الماضي والحاضر ويجدون اصالتهم في عصريتهم، وعصريتهم في اصالتهم، دونما احساس بأمر غريب في البين، منتزعين من تلك الاصالة القدرة على التواصل مع الحاضر مهما كان واسعاً ومتشعباً، بما يوجب لهم على الرافضين للاصالة حق الاعتراف بالامامة الفكرية التي هي حق طبيعي لامثال العلامة الطباطبائي.

لقد وجد السيد الطباطبائي قدس سره، ان العامل الذاتي في التفسير المعبر عنه بالتفسير بالرأي هو أخطر ما واجه القرآن الكريم من تحديات في الماضي والحاضر، اذ هي تستهدف افراغه من محتواه وفرض المحدودية الموضعية عليه وتحويله الى غلاف يقبل الانطباق على كل فكرة واتجاه وليس التفسير الباطني الصوفي قديماً والتفسير العصري، بمعنى حمل القرآن على معطيات العلم الحديث حديثاً إلا اسوأ مثالين لتلك التحديدات.

ومن هنا كان لا بد من بلورة منهج تفسيري غني مستوعب يجمع الضرورتين الاصالة والعصرية وهو منهج تفسير القرآن بالقرآن الذي اعتمده العلامة الطباطبائي والذي ظهرت بداياته في صدر الاسلام وهناك مؤشرات تدل على ممارسة النبي ﷺ له في بعض الاحيان[1] ويعتبر العلامة الطباطبائي الرائد الذي تبلور هذا المنهج على يديه، ووضع قواعده منطلقاً في ذلك من

---

(١) الاوسي، علي، الطباطبائي ومنهجه في تفسيره ص ١٢٥.

وصف القرآن لنفسه انه ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1] وحاشا ان يكون القرآن تبياناً لكل شيء ولا يكون تبياناً لنفسه قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (سورة البقرة ١٨٥)، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۝١٧٤﴾ (سورة النساء ١٧٤) وكيف يكون هدى وبينة وفرقاناً ونوراً مبيناً للناس في جميع ما يحتاجون ولا يكفيهم في احتياجهم اليه وهو اشد الاحتياج؟ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (سورة العنكبوت/ ٦٩) وأي جهاد اعظم من بذل الجهد في فهم كتابه وأي سبيل اهدى إليه من القرآن»[2].

وعلى هذا الاساس يعني سماحته في مشروعه التفسيري الضخم فكان قمة المراحل التي وصل إليها علم التفسير، وقد نقل عن السيد آية الله الشهيد الصدر «قدس سره» انه قال بشأن الميزان: من التبيان للشيخ الطوسي الى الميزان للسيد الف سنة لم يكن لدينا تفسير جديد الميزان اول تفسير جديد»[3].

ان الحركة الفكرية العميقة والمستوعبة التي يختزنها الميزان جعلت القرآن منطلقاً وغاية لها في الوقت نفسه، فهي تبدأ منه وتنتهي به ضمن دائرة واسعة تحيط بالحياة الانسانية المعاصرة من اطرافها كافة ومن المعلوم ان قدرة المفسر لا تظهر في اختيار المنهج الصحيح فحسب، وانما في قدرته على الاستجابة لشروط ذلك المنهج وسعة حركته الفكرية، وأهمية الميزان تكمن في انه احتل الدائرة الانسانية المعاصرة باقتدار واتساق وأصالة.

---

(١) سورة النحل آية ٨٩.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ج ١ ص ١١.

(٣) من محاضرة للعلامة محمد مهدي الاصفي.

مكانته ومزاياه الإخلاقية

لقد كان العلامة الطباطبائي «قدس سره» احد الافذاذ الذين يفتخر العقل الاسلامي المعاصر بعطائه الفكري، وهو المتخصص الوحيد في فلسفة الشرق على مستوى العالم بحيث ان امريكا قبل أكثر من أربعين سنة طلبت من الشاه مفاتحة العلامة ليدرس هذه المادة في الجامعات الامريكية، فوسّط الشاه رضا بهلوي آية الله البروجردي ليعرض الأمر على العلامة، وعندما قام السيد البروجردي بدوره رفض العلامة الطلب. لكن العلامة الطباطبائي لا يستمد مكانته من هذا الجانب فقط، فقد كان فضلاً عن ذلك شخصية فذة في الميدان الروحي والاخلاقي، فهو ممن تذكر رؤيته بالله تعالى وتمثل سيرته نافذة اخلاقية وروحية تهب منها على المجتمع الاسلامي نسمات عبقة بالاخلاق السامية، وعلى حد تعبير احد العلماء المعاصرين ان الشطر العلمي عندما يقارن بالشطر الروحي في شخصية العلامة الطباطبائي فلا يكون علمه سوى قطرة في بحر، كان في مجلسه خاضعاً خاشعاً يذكر بحديثه الله تعالى كثير الصمت والتفكير، وإذا سئل احكم وأوجز، يقول احد تلامذته (عاشرته السنوات الطوال فلم اجده يرتكب مكروها)[1] يذكر تلميذه الاستاذ ابراهيم الاميني انني «لم اجده يوماً طيلة أكثر من ثلاثين عاماً تشرفت بمعاشرته فيها

---

(١) العلامة الطباطبائي، محمد حسين، نظرية السياسة والحكم في الاسلام المقدمة.

قد غضب على احد، او تحامل عليه، ولو لمرة واحدة اذ كان وقوراً هادئاً متيناً دمث الاخلاق حتى مع اصغر وابسط طلابه، يستمع الى حديث الجميع ويظهر للجميع حبه على حد سواء وحينما كنا نخاطبه احياناً بـ «سماحة الاستاذ» كان يرد علينا قائلاً: «لا احب هذا التعبير اننا تجمعنا هنا للتدبر في أمور ديننا بالتعاون والتفاهم»[1]، ويقول الشيخ محمد تقي مصباح: «على مدى ثلاثين عاماً تشرفت خلالها بالاستزاده من علم العلامة الطباطبائي لم اكن اسمع منه كلمة أنا، بينما كثيراً ما كنت اسمع منه عبارة لا أعلم»[2].

أما آية الله الشهيد مرتضى مطهري فيقول عن استاذه: «انني اعتقد ان العلامة الطباطبائي قد بلغ في مرتبة كماله الروحي والمعنوي درجة التجرد البرزخي بحيث يمكنه ان يطلع على كثير من الصور الغيبية التي يعجز الناس العاديون، عن تصورها او مشاهدتها»[3].

---

(١) اميني، ابراهيم، يادنامة مفسر كبير علامة طباطبائي ص ١٢٤.
(٢) مصباح محمد تقي، يادنامة مفسر كبير ص ٣٧.
(٣) المصدر نفسه ص ٦٢.

وفاته

وفي الثامن عشر من محرم الحرام عام ١٤٠٢ هـ (١٩٨١ م) انتقل العلامة الطباطبائي الى جوار ربه الكريم عن عمر بلغ احدى وثمانين سنة، ودُفن في قم المقدسة بعد تشييع حاشد جرى لجنازته «قدس سره».

ملحق

الاتجاهات المستقبلية لحركة الاجتهاد

بقلم:

الإمام الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره)



السيد محمد باقر الصدر

ان حركة الاجتهاد تتحدد وتكسب اتجاهاتها ومعالمها على أساس عاملين وهما: عامل الهدف وعامل الفن، ومن خلال ما يطرأ على هذين العاملين من تطور او تغيير تتطور الحركة نفسها، وأقصد بالهدف الأثر الذي تتوخى حركة الاجتهاد ويحاول المجتهدون تحقيقه وايجاده في واقع الحياة.

واريد بالفن: درجة التعقيد والعمق في أساليب الاستدلال التي تختلف في مراحل الاجتهاد تبعاً لتطور الفكر العلمي. ونحن حين نريد ان ندرس الاتجاهات المستقبلية لحركة الاجتهاد او نتنبأ عنها بشيء، لا نملك طريقاً الى ذلك إلا ان نفحص بعناية البدايات والبذور التي تحملها حركة الاجتهاد في واقعها المعاصر ونربط هذه البذور بأحد العاملين السابقين الهدف والفن ونقدر على ضوئها ماذا يمكن ان تصبح هذه البذور في يوم ما وكيف تنمو وماذا سوف تدخل على حركة الاجتهاد من تغيير.

ويمكننا ان نقسم البحث عن الاتجاهات المستقبلية لحركة الاجتهاد الى قسمين:

احدهما: الاتجاهات المستقبلية التي يمكن التنبؤ بها على أساس العامل الفني في الحركة.

والاخر: الاتجاهات المستقبلية التي يمكن التنبؤ بها من زاوية الهدف، فعلى أساس العامل الفني يمكن ان ندرس فكرة معينة منذ دخولها حركة الاجتهاد وأطوارها المتعددة من حيث العمق والتعقيد، فيتاح لنا ان نقدّر

الوضع الذي سوف تنتهي اليه في نموها الفني، وعلى أساس الهدف قد نلمح تغييراً في هذه الزاوية ومن الطبيعي ان يكون للتغيير في جانب الهدف آثاره وانعكاساته على مختلف جوانب الحركة، وفي ضوء تقدير معقول لنوعية هذه الانعكاسات يمكن ان نضع فكرتنا عن الاتجاهات المستقبلية للاجتهاد.

وان تناول الموضوع من الزاوية الفنية الخالصة لا مجال له الآن بالرغم من انه طريف وممتع لأن ذلك يضيع على غير الاختصاصين فرصة متابعة الحديث ولهذا سوف اقتصر على عامل الهدف وأدرس البدايات النامية في الواقع المعاصر لحركة الاجتهاد وما تشكل من اتجاهات مستقبلية لهذه الحركة من زاوية الهدف ونوعية تأثيره على الحركة كلها.

ما هو الهدف من حركة الاجتهاد؟

اظن اننا متفقون على خط عريض للهدف الذي تتوخاه حركة الاجتهاد وتتأثر به وهو يمكّن المسلمين من تطبيق النظرية الاسلامية للحياة، لأن التطبيق لا يمكن ان يتحقق ما لم تحدد حركة الاجتهاد معالم النظرية وتفاصيلها، ولكي ندرك ابعاد الهدف بوضوح يجب ان نميز بين مجالين لتطبيق النظرية الاسلامية للحياة.

احدهما: تطبيق النظرية في المجال الفردي، وبالقدر الذي يتصل بسلوك الفرد وتصرفاته.

والآخر: تطبيق النظرية في المجال الاجتماعي واقامة حياة الجماعة البشرية على أساسها بما يتطلبه ذلك من علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية.

وحركة الاجتهاد من حيث المبدأ ومن الناحية النظرية وان كانت تستهدف كلا مجالي التطبيق، لانهما سواء في حساب العقيدة ولكنها في خطها التاريخي الذي عاشته على الصعيد الشيعي كانت تتجه في هدفها على الأكثر نحو المجال الأول فحسب فالمجتهد خلال عملية الاستنباط يتمثل في ذهنه صورة الفرد المسلم الذي يريد ان يطبق النظرية الاسلامية للحياة على

سلوكه ولا تتمثل صورة المجتمع الذي يحاول ان ينشىء حياته وعلاقاته على أساس الاسلام، وهذا التخصيص والانكماش في الهدف له ظروفه الموضوعية وملابساته التاريخية فان حركة الاجتهاد عند الامامية قاست منذ ولدت تقريباً عزلاً سياسياً عن المجالات الاجتماعية للفقه الاسلامي نتيجة لارتباط الحكم في العصور الاسلامية المختلفة وفي أكثر البقاع بحركة الاجتهاد عند السنة، وهذا العزل السياسي ادى تدريجياً الى تقليص نطاق الهدف الذي تعمل حركة الاجتهاد عند الامامية لحسابه، وتعمق على الزمن شعورها بان مجالها الوحيد الذي يمكن ان تعكس عليه في واقع الحياة وتستهدفه هو مجال التطبيق الفردي وهكذا ارتبط الاجتهاد بصورة الفرد المسلم في ذهن الفقيه لا بصورة المجتمع المسلم.

بدايات التطور او التوسع في الهدف

وبعد ان سقط الحكم الاسلامي على أثر غزو الكافر المستعمر لهذه البلاد لم يعد هذا العزل مختصاً بحركة الاجتهاد عند الامامية بالخصوص، بل لقد شملت عملية العزل السياسي التي تمخض عنها الغزو الكافر للاسلام ككل والفقه الاسلامي بشتى مذاهبه وأقيمت بدلاً من الاسلام قواعد فكرية اخرى لانشاء الحياة الاجتماعية على أساسها واستبدل الفقه الاسلامي بالفقه المرتبط حضارياً بتلك القواعد الفكرية، وقد كان لهذا التحول الاساسي في وضع الأمة أثره الكبير على حركة الاجتهاد عند الامامية لأن حركة الاجتهاد هذه أحست بكل وضوح بالخطر الحقيقي على كيان الاسلام والأمة من المستعمر الكافر ونفوذه السياسي والعسكري وقواعده الفكرية الجديدة وقد صدمها هذا الخطر العظيم بدرجة استطاع ان يجعلها تتمثل الكيان الاجتماعي للأمة الاسلامية وتنفتح على الايمان بضرورة المقاومة ودفع الخطر بقدر الامكان، وقد أحست حركة الاجتهاد خلال المقاومة احساساً بان الجانب الفردي من تطبيق النظرية الاسلامية للحياة مرتبط كل الارتباط بالجانب الاجتماعي منه إذ بدأ الجانب الفردي ينهار شيئاً بعد شيء بسبب انهيار الجانب الاجتماعي.

ومن ناحية أخرى أخذت الأمة نفسها تعي وجودها وتفكر في رسالتها

الحقيقية المتمثلة في الاسلام بعد ان اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونـوع التجارب الاجتماعية المزيفة التي حملها إليها الاستعمار، ومن الطبيعي ان ينعكس هذا الوعي على حركة الاجتهاد نفسها، ويؤكد أحساسها الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشتها في عصر ما بعد الاستعمار بان الاسلام كل لا يتجزأ وان التطبيق الفردي للنظرية لا يمكن ان ينفصل مجال عن التطبيق الاجتماعي لها وان يظل ثابتاً اذا تعطل التطبيق على الصعيد الاجتماعي.

كل هذا ساعد على تحويل حركة الاجتهاد عند الشيعة الى حركة مجاهدة في سبيل حماية الاسلام وتثبيت دعائمه، وقوة مطالبته بتطبيق الاسلام على كل مجالات الحياة، وكان من الطبيعي ان توسع نطاق هدفها وتبدأ بالنظر الى مجال التطبيق الفردي والاجتماعي معاً، وهذا ما يلحظ بداياتـه بوضوح في الواقع المعاصر لحركة الاجتهاد عند الشيعة، وما تمخض عنه من محاولات للتعبير عن نظام الحكم في الاسلام ونحو هذا وذاك من الوان البحث الاجتماعي في الاسلام.

وما دامت الأمة في حالة الارتفاع، وقد بدأت تعي الاسلام بوصفه رسالتهـا الحقيقيـة فـي الحيـاة والتقت بحركة الاجتهاد عند الامامية ضمن هذا المفهوم الرسالي الشامل للاسلام، فمن الطبيعي التأكيد على ان التطور في الهدف الذي تتبناه حركة الاجتهاد واتساع هذا الهدف لمجالات التطبيق الاجتماعي للنظرية سوف يستمر ويبلغ اقصاه تبعاً لنمو الوعي في هذه الأمة ومواصلة الحركة لخطها الجهادي في حماية الاسلام، ولكي نتنبأ في ضوء ذلك بالاتجاهات المستقبلية للاجتهاد والتي سوف تنجم عن التطورات في الهدف لا بد ان نرجع الى ما قبل بدايات هذا التطور لندرس الآثار التي عكسها الانكماش في الهدف الذي عاشته حركة الاجتهاد وما ادى اليه هذا

الانكماش من اتجاهات في حركة الاجتهاد لنستطيع ان ندرك الاتجاهات المستقبلية التي سوف تحل محلها حينما يستكمل التطور او التوسع في الهدف ابعاده المنظورة.

نتائج الانكماش في الهدف

ان الانكماش في الهدف وأخذ المجال الفردي للتطبيق بعين الاعتبار فقط نجم عنه انكماش الفقه من الناحية الموضوعية فقد أخذ الاجتهاد يركز باستمرار على الجوانب الفقهية الأكثر اتصالاً بالمجال التطبيقي الفردي، وأهملت المواضيع التي تمهد للمجال التطبيقي الاجتماعي، نتيجة لانكماش هدفه وانكماش ذهن الفقيه عن الاستنباط غالباً الى الفرد المسلم وحاجته الى التوجيه بدلاً عن الجماعة المسلمة وحاجتها الى تنظيم حياتها الاجتماعية.

وهذا الاتجاه الذهني لدى الفقيه لم يؤد فقط الى انكماش الفقه من الناحية الموضوعية بل أدى بالتدريج الى تسرب الفردية الى نظرة الفقيه نحو الشريعة نفسها، فان الفقيه بسبب ترسخ الجانب الفردي من تطبيق النظرية الاسلامية للحياة في ذهنه واعتياده ان ينظر الى الفرد ومشاكله عكس موقفه هذا على نظرته الى الشريعة فاتخذت طابعاً فردياً، وأصبح ينظر الى الشريعة في نطاق الفرد، وكأن الشريعة ذاتها كانت تعمل في حدود الهدف المنكمش الذي يعمل له الفقيه فحسب وهو الجانب الفردي من تطبيق النظرية الاسلامية للحياة.

ولأذكر مثالين من الاصول والفقه تجدون خلالهما كيف تسربت الفردية من نظرة الفقيه الى هدفه الى نظرته للشريعة نفسها: ان المثال الأصولي

نأخذه من بحوث «دليل الانسداد» الذي يعرض الفكرة القائلة باننا ما دمنا نعلم بان في الشريعة تكاليف ولا يمكننا معرفتها بصورة قطعية فيجب ان يكون المتبع في معرفتها هو الظن، ان هذه الفكرة يناقشها الاصوليون قائلين: لماذا لا يمكن ان نفترض ان الواجب على المكلف هو الاحتياط في كل واقعة بدلاً عن اتخاذ الظن مقياساً واذا أدى التوسع في الاحتياط الى الحرج فيسمح لكل مكلف بان يقلل من الاحتياط بالدرجة التي لا تؤدي الى الحرج، انظروا الى الروح الكامنة في هذا الافتراض وكيف سيطرت على اصحابه النظرة الفردية الى الشريعة، فان الشريعة انما يمكن أن تأمر بهذا النوع من الاحتياط لو كانت تشريعاً للفرد فحسب، وأما حيث تكون تشريعاً للجماعة وأساساً لتنظيم حياتها فلا يمكن ذلك بشأنها لأن هذا الفرد أو ذاك قد يقيم سلوكه كله على أساس الاحتياط وأما الجماعة كلها فلا يمكن ان تقيم حياتها وعلاقاتها الاجتماعية والاقتصادية والتجارية والسياسية على أساس الاحتياط.

وأما المثال الفقهي فنأخذه من الاعتراض الشهير الذي أثاره الفقهاء حول قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» اذ قالوا ان هذه القاعدة تنفي وجود أي حكم ضرري في الاسلام بينما نجد في الاسلام احكاماً ضررية كثيرة كتشريع الديات والقصاص والضمان والزكاة فان في تشريع هذه الاحكام اضرار بالقاتل الذي يكلف بالدية والقصاص، واضرار بالشخص الذي يتلف مال غيره إذ يكلف بضمانه، واضرار بصاحب المال الذي يكلف بدفع الزكاة.

ان هذا الاعتراض يقوم على أساس النظرة الفردية الى التشريع، فان هذه النظرة هي التي أتاحت لهم ان يعتبروا هذه الاحكام ضررية، بينما لا يمكن ان تعتبر هذه الاحكام ضررية في شريعة تفكر في الفرد بوصفه من جماعة ومرتبط بمصالحها بل ان خلو الشريعة من تشريع الضمان والضرائب

يعتبر أمراً ضررياً.

وقد كان من نتائج ترسخ النظرة الفردية قيام اتجاه عام في الذهنية الفقهية يحاول دائماً حل مشكلة الفرد المسلم عن طريق تبرير الدافع وتطبيق الشريعة عليه بشكل من الاشكال، فنظام الصيرفة القائم على أساس الربا بوصفه جزءاً من الدافع الاجتماعي في المعاش يجعل الفقيه يحس بان الفرد المسلم يعاني مشكلة تحديد موقفه من التعامل مع مصارف الربا ويتجه البحث عندئذ لحل مشكلة الفرد المسلم عن طريق تقديم تفسير المشروع للواقع المعاش بدلاً من الاحساس بان نظام الصيرفة الربوي يعتبر مشكلة في حياة الجماعة ككل، حتى بعد ان يقدم التفسير المشروع للواقع المعاش من زاوية الفرد وليس ذلك إلا لأن ذهن الفقيه في عملية الاستنباط قد استحضر صورة الفرد المسلم والمشكلة بالقدر الذي يرتبط به بما هو فرد.

وقد امتد أثر الانكماش وترسخ النظرة الفردية للشريعة الى طريقة فهم النص الشرعي ايضاً، فمن ناحية اهملت في فهم النصوص شخصية النبي والامام الحاكم ورئيس الدولة، فإذا ورد نهي عن النبي كنهيه أهل المدينة عن منع نقل الماء فهو اما نهي تحريم او نهي كراهة عندهم، مع انه قد لا يكون هذا ولا ذاك بل قد يصدر النهي من النبي بصفته رئيساً للدولة فلا يستفاد منه الحكم الشرعي العام.

ومن ناحية اخرى لم تعالج النصوص بروح التطبيق على الواقع واتخاذ قاعدة منه ولهذا سوغ الكثير لأنفسهم أن يجزئوا الموضوع الواحد ويلتزموا باحكام مختلفة له واستعين على توضيح الفكرة بمثال من كتاب الاجارة، فهناك مسألة هي ان المستأجر هل يجوز له ـ بدوره ـ ان يؤجر العين باجرة أكبر من الأجرة التي دفعها هو حين الايجار، وقد جاءت نصوص تنهى عن ذلك والنصوص كعادتها في أغلب الاحيان جاءت لتعالج مواضيع خاصة، فبعضها نهى عن ذلك في الدار المستأجرة، وبعضها نهى عن ذلك في الرحى

والسفينة المستأجرة، وبعضها نهى عن ذلك في العمل المأجور ونحن حين ننظر الى هذه النصوص بروح التطبيق على الواقع وتنظيم علاقة اجتماعية عامة على أساسها، سوف نتوقف كثيراً قبل ان نلتزم بالتجزئة وبان النهي مختص بتلك المواد التي صرحت بها النصوص دون غيرها، وأما حين ننظر إلى النصوص على مستوى النظرة الفردية لا على مستوى التقنين الاجتماعي فاننا نستسيغ هذه التجزئة بسهولة.

ما هي الاتجاهات المستقبلية لحركة الاجتهاد

أحس ان الحديث طال أكثر مما يستحب ولهذا فسوف اترك الاتجاهات المستقبلية للقارىء يستنتجها مما سبق فان من الطبيعي حين يستعيد الهدف المحرك للاجتهاد ابعاده الحقيقية ويشمل كلا مجالي التطبيق وان تزول بالتدريج آثار الانكماش السابق ويتكيف محتوى الحركة وفقاً لاتساع الهدف ومتطلبات خط الجهاد الذي تسير عليه حركة الاجتهاد.

ان الانكماش الموضوعي يزول والامتداد العمودي الذي يعبر عن الدرجة العالية من الدقة التي وصل اليها الفكر العلمي يتحول في سيره الى الامتداد الافقي ليستوعب كل مجالات الحياة، وسوف يتحول الاتجاه نحو تبرير التعامل مع الواقع الفاسد وتقديم البديل الفكري الكامل عنه من وجهة نظر الاسلام، وسوف يُمحى في مفهوم حركة الاجتهاد أي تصور ضيّق للشريعة وتزول من الذهنية الفقهية كلُّ آثاره وانعكاساته على البحث الفقهي والأصولي.

وفي تحول فهم النصوص ويؤخذ منه كل جوانب شخصية النبي والامام بعين الاعتبار، كما ترفض التجزئة التي أشرنا اليها لا على أساس القياس بل على أساس ارتكاز وفهم اجتماعي للنص كما هو مشروع في بعض البحوث، فان للنص بمفهومه الاجتماعي مدلولاً أوسع من مدلوله اللغوي في كثير من

الاحيان.

هذه هي الخطوط العريضة للاتجاهات المستقبلية على أساس التطور في طبيعة الهدف وتحول حركة الاجتهاد من حركة معزولة اجتماعياً الى حركة مجاهدة تستهدف تقديم الاسلام ككل وتعتبر ان رسالتها هي توعية الأمة على ضرورة تطبيقه في كل مجالات حياتها.

اضطر لضيق المجال الى الاكتفاء بما ذكرت من الخطوط مؤمناً بأن الثورة الكبرى أخذت مجراها في حركة الاجتهاد لتوسيع هدفها وتعميق رسالتها على كل مجالات حياة الأمة وآمالها وآلامها.

ان هذه الثورة في جانب الهدف سوف تؤدي حتماً حينما يستكمل الهدف كل أبعاده الحقيقية الى تغيّر عظيم في كثير من المناهج والتطورات والمواضيع.

الفهرست